

ربطنا على قلبها

سمية الرمسيسي

دار كتاب للنشر والتوزيع



مسئول النشر
طارق رمضان
مدير التوزيع
عمر عبد السميع
مدير العلاقات
مها عادل

الطبعة الأولى
الكتاب : ربطنا على قلبها
تأليف : سمية الرمسيسي
تصنيف الكتاب : رواية
مصمم الغلاف : عبد الرحمن سندوبى
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٠٨٩٧ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي : 2 - 37 - 6597 - 977 - 978

العنوان : ٤٧ تقاطع الفلكي مع محمد محمود - القاهرة - مصر
التليفون : ٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨
Email : darkitabone@gmail.com

إهداء...

إلى أخــي الرجــل الحقيقــي الــذي رحــل بجــلال ووقــار يليــق برجولتــه ...

سأبدأ كتـابي بعبـارة قرأتهـا ذات صيـف « يسـعى الكاتـب ليضـع حياتـه في كتـاب، ويسـعى القـارئ ليجـد حياتـه في كتـاب «

لـذا إن لـم تـرق لـك قـراءة حيـاتي فابحـث عـن حياتـك بـين سـطور كتـابي فقـد دونتهـا لـك وتحملـت عنـاء التدويـن نيابـة عنـك ويروقـني ذلـك ...

"""

برأيـي أن البـشر يحتاجـون لمـن يسـمع أوجاعهـم ينصـت لهـا بقلـب كتـوم، يدركهـا بعـين عميقـة كـما المحيـط لاتنعكـس على صفحتهـا نظرات الشـفقة و الشـماتة أو التعاطف، يحتويها بجسـد لاتفنـى طاقاتـه ولاتسـتنفذ،يفهمها بعقـل يمنطـق الألم والأعظم مـن كل هـذا روح مُنحـت التدويـن، ولقـد منحني الإلـه القدرة عـلى الكتابـة، خلقنـي كـي أكتب، هكـذا قُـدر علي لم أسـتطع من قـدري مهربـاً أو لجـوءً، أزعـم أننـي حاولـت لكـن في النهايـة لم أفلـح، هـذه ببسـاطة إجابتـي على السـؤال النمطـي الـذي أعلم أنـه سـيدور في ذهـن مـن يقـرأ كلـماتي ماالهـدف مـن كتاباتـك ؟ حتـى هذا السـؤال حيرني كثـيراً، الإجابة عنـه لمَ نبحث عن هدف للكتابـة ؟ فالكتابـة في حـد ذاتهـا هدف بل أنها بالنسـبة لي ليسـت مجـرد هـدف بـل حيـاة قـدر عـلي أن أحياهـا بعيـداً عـن حيـاتي التـي أُجـبرت أن أعيشـها دون إختيـاراً منـي، كينونـة لا أسـتطع الخـلاص منهـا أو الإنعتـاق عنهـا، متنفـس استنشـق حروفهـا بـدلاً مـن ذرات الأكسـجين الملوثـة التي قـدر لرئتـاي ألا تتنفس سـواها، مهـرب آوي إليـه كلـما ضيـق واقعـي علي الخنـاق، ملجأ احتمـي بـه مـن حـروب ذاتي وذوات الآخريـن من حـولي، حلم إليـه أرنـو وأهفـو ألون بـه وجودي بعـد أن أصبـح باهتـاً رمادياً، أنانيـة نعـم أكتـب لأن أنـاي تئـن بعيـداً عـن الكلـمات فأكتـب

لأجد احترامي وتقديري لذاتي لأشبع عنفوان غروري لأرتق جروحي، أكتب كي أُلبي غريزتي، أشبع حاجتي وأحقق رغبتي أصل لكمالي، لأنتشي سعادة و أبكي ألماً وأصرخ وجعاً وأطير حرية وأقيد عجزاً، أكتب لإني أهوى نقش الحروف وإخضاع الكلمات تحت جناحي قلم أنتشي وأنا أراه يمارس سطوته عليها، أحب عزف الجمل بأنامل السطور، أعشق رسم المشاعر بنبض الحروف ويمتعني سرب الأحاسيس وهو يطير بحرية على سماء الورق، أكتب كي أحيا كي أتنفس كي أُخلق من جديد مع كل كلمة أدونها، أكتب دونما سبب لكن لأني جربت الحياة دون الكتابة فما وجدتها حياة ..

لهذه المقدرة بالتحديد نصبني بعض البشر قائدة، وربما زعيمة لهم برغم أني لم أسع للزعامة لا لإني امرأة وليس من دافع التواضع بل من باب درء المتاعب ولإن طبعي الإنعزالي يرهقه ضجيجها وتعذرها على الخصوصية، لكن الشيطان نفث في روحي كعهده بالزعماء فأغواني، وأنا التي لاتعرف الاستسلام ولاتؤمن بالهزيمة هُزمت ...

،،،

كاد المراقب أن يسحب مني ورقة امتحان البصريات (إحدى فروع علم الفيزياء) فتشبثت بضعفها أستحث عقلي العاجز عن حل معضلاتها المسماة مسائل لكن قوانينها تبخرت من رأسي تماماً وكأنني لم أخبرها قط ولم أحضر محاضرات فيزياء في حياتي، عاد المراقب لسحب الورقة فصرخت به وأنا أكاد أبكي من العجز أريد أن اتخرج اترك الورقة قليلاً، أبعد يديه وتنفست بقلق يا للهول لاشئ في عقلي أين رحلت المادة حاولت أن اتذكر قوانين شرودنجر دون جدوى، نظريات رذرفورد دون أمل، وعاد المراقب فاختطف الورقة حاولت أن أخذها لكنها استقرت وادعة بجانب صدره مع رفيقاتها الأخريات فتوسلته أنه امتحاني الأخير لأنال شهادة البكالوريوس وانتهي منها للأبد، نظر لي بصرامة انتهى الوقت، حشرت الدموع في حلقي فقلت والكلام يتعثر بدموعي لكني سأتزوج في الصيف ولا أريد لهذه المادة أن تنغص علي زواجي وفي بداياته، نظر لي بقرف إذن فلتؤجلي زواجك أو لاتتزوجي وذاكريها في الصيف .

لا أريد أن يُكتب في شهادة البكالوريوس خريجة دور مايو لو رسبت بها سيُدون هذا في شهادتي وسيجعل وضعي حرج عند التقدم لوظيفة .

امسـك بالورقـة يتأملهـا ثـم ناولها إيـاي وقد لان عزمـه، فور أن لامسـتها أناملي دخـل الدكتـور إلى اللجنـة فـكاد المراقـب أن يعيدهـا إليـه لكنـي أمسـكتها بقـوة حـاول أن يحررهـا مـن بـين يـدي لكـن لا فـكاك لهـا اليـوم مني وبـين شـد مني وجـذب منه تمزقـت الورقـة إربـاً وصرخ الدكتـور ألغـي امتحانها أنت راسـبة راسـبة أعطنـي هويتـك فسـأحولك للتحقيق..

شُـل لسـاني عـن الـكلام وشـعرت أن صـدري حبـس الهـواء فيـه فكـدت أختنـق بأنفـاسي وارتفـع رنـين الجـرس بجانبـي مزعجـاً زاعقـاً حتـى أنني ماكدت أتبـين صراخ الدكتـور بل أرى ملامـح الإسـتياء وانفعالاتـه المغلظـة عـلى وجهـه بصمـت ثـم خفـت صوتـه تمامـاً وكأنني اتفرج عـلى فيلم صامـت ولم يتوقف الجـرس عـن رنينـه المزعـج حتـى أننـي حـين حركـت جسـدي المنهـك مـن تأثـير الفيزياء سـمعت الرنين يقترب شـيئاً فشـيئاً إلى رأسي فأجـبرني عـلى فتـح عينـي، أنـه رنين المنبه السـاعة الخامسـة صباحـاً أغلقتـه باسـتياء ممتـن وقلـت حـاضر اسـتيقظت نهضت مـن سريـري مثقلة أتمتـم بغضـب فيزياء فيزيـاء فيزياء ألـن تنتهي الفيزيـاء منـي أبـدا تركتهـا من حـوالي العـشر سـنوات ومازالت تتصـدر كوابيـسي ألـن تفارقنـي قـط سـحبت قدمـي سـحباً إلى الحـمام، فرشـت أسـناني، توضـأت، صليـت، ارتديـت ملابـسي بعجالة،أفرغـت قهوتي المرة برشـفات متسـارعة، أنهيـت الروتين

الصباحـي لـكل يـوم، آه كـدت أنسـى دفترالتحضـير الخـاص بأمـيرة ألتقطتـه وجـررت جسـدي إلى الشـارع حيـث حـربي كل يـوم في ميـدان العمـل .

اليـوم هـو الخامـس والعشريـن مـن شـهر سـبتمبر وهـو أول يـوم مـن أيام العـام الـدراسي٢٠١٥، اكتظـت الشـوارع بالناس والطـلاب مـن كل المراحـل بداية مـن الروضـة إلى الجامعة وجميع المشـيات بدايـة مـن الهرولـة نهايـة بالتـؤدة وكل أنـواع وسـائل النقـل مـن التمنايـة (السـوزوكي)مـروراً بالميكـرو بـاص نهايـة بالحافـلات الكبـيرة وكأن مظاهـرة اندلعت فأفرغـت البيوت من أهلها .

بعـد قرابـة السـاعة مـن الخـوض في الزحـام كنت في المدرسـة شـددت ظهـري، رفعـت قامتي، عدلـت موضع أكتـافي، جهزت حنجـرتي فتهيـأت أحبـالي الصوتيـة، شـحذت ذهنـي، ذهبـت لتوقيـع الحضـور، تبادلـت التحيات، ألقيـت بعض الابتسـامات والتـي سرعـان ماتنقلـب لتصبـح تقطبيـات صارمـات أو أوامـر حازمـات، أُلقيـت الإذاعـة، نُفـذت التدريبات الصباحيـة، انتهى الطابـور، سـاق كل معلـم صفـه إلى الفصـل يعجبني هذا المشـهد الصباحـي، المعلـم وهـو يسـوق الطـلاب إلى فصولهـم لا أذكـر كـم مـن مـرة تأملتـه، مـرة أراه بصورتـه النمطيـة للراعـي الـذي يسـوق أغنامـه يهش عليهـم بصوتـه فالعصـا ممنوعة في مدرسـتنا

فنستبدلها بحنجرتنا، ومرة أراه قائد يقود فريقه حيث مركز العمليات يُلقي عليهم خططه وأوامره أو على الأرجح مكائده، ومره أراه مدير يرأسهم وينفذ فيهم ماقد تم تنفيذه فيه، ومرة أراه كرسول يقود أمته لمحراب دعوته السرية أو ربما الجهرية مستعيناً بمعجزاته لإيصال رسالته، وربما أولت هذا المشهد إلى ساحر يقود معجبيه إلى غرفته السحرية الخاصة يُلقي إليهم بتعويذاته ويجرب فيهم تجاربه السحرية ويمارس عليهم حيله الخفية، ومرة أراه ديكتاتور أحمق مستبد يقود محكوميه إلى مقرات إعتقالهم يصب عليهم جام عذابه وخالص سخطه يفرض عليهم قوانينه يعاقبهم ليحققوا مصالحه ثم يطالبهم بعبادته ليستنسخهم منه ويعيد تشكليهم ليحولهم إلى قطع صماء بكماء خرساء، ومرة أراها (المعلمة) أم لكن قدرها الصعب أن أولادها كثر فقد أنجبت خمس وعشرين طفلاً أو يزيد وهي تتقدمهم بغريزتها، وتسوقهم إلى عشهم بعاطفتها، تقويهم من ضعفها، تقومهم بعوجها، تكملهم بنقصها، تحمل أثقالهم في روحها بخفة محارب قوي يتباهى بعضلاته الضخمة، يالها من امرأة مستهترة كيف تنجب كل هذا العدد من الأطفال تتسع ابتسامتي الساخرة منها امرأة جاهلة لم تتبع خطى المثقفات المتنورات في تناولهن لعقاقير منع الحمل أو ربما منع الأمومة لكنها مازالت آنسة فليست كل المعلمات أمهات، بداخلي إعترضت متأففة أف لينة كل الأمهات معلمات والمفترض أن

كل المعلمات أمهات أوه أيها الخيال الأحمق لاتحشرني في زواية الفلسفة النخبوية أصلاً لاأحب التعميم أراه من أنواع الظلم .

مس لينة لاتقولي أنك نسيت دفتري التحضير .

قوطع خيالي رغم آثار الابتسامة الساخرة التي لاتزال معلقة على شفتاي .

كدت أنساه ولا أعلم مالذي ذكرني به (يبدو أن السخرية مازالت تتلبسني).

ابتسمت مس أميرة ابتسامتها الجميلة يا لطول بالك له قرابة الأسبوع في متاهات نسيانك احمدي الله أن الموجه لم يحضر هذا الأسبوع .

أنت تعرفي أنه لن يحضر وإلا لما صبرتي عليه ثم أننا مازلنا في البداية مالذي سيأتي بالموجهين الآن ؟

ضحكت وقالت مازحة مبطنة جدية :

لن أعطيه لك مرة أخرى .

متنهدة قلت:

لن أطلبه منك مرة أخرى لك الحق في استيائك المبتسم هذا .

أتعلمين يالينة لو لم أكن أحبك لأ..

قاطعتهـا لأوجعتنـي كلامـاً اعتـذر منـك لكـن أمـر بظـروف متقلبـة جعلتنـي مشـتتة كثـيرة النسـيان ولايهمـك لن تكـرر مرة أخـرى أعدك بهـذا .

أعلـم أن أمـيرة لاتحتـاج لدفترهـا فهـو يعـود للعـام الفائـت لكنهـا تسـتعين بـه أحيانـاً في تحضيرهـا لـذا سـقط كـم مـرة مـن ذاكـرتي واعـترف أن هـذا ليـس عـذر لنسـياني وأخـذت ألـوم نفـسي بداخـلي رغـم أنـني أظهـرت أمامهـا اللامبـالاة أو بتعبـير آخـر تبسـيط الأمـر بـدلاً مـن تعقيـده، تهوينـه بـدلاً مـن تهويله .

لينة ؟

قالتها بطريقة هادئة وفي عينيها طلب ...

ابتسـمت غامـزة أعـرف تمامـاً ماتعنيـه تلـك النـبرة هـاتي مـا لديـك .

أوه لينة ...

هيا تكلمي اسمعك وتبعت الكلام بضحكة خفيفة .

ضحكـت بدورهـا فقـد خجلت من كـوني ترجمتهـا بسرعة، يا للمـرأة جبلـت عـلى السـتر حتى حـين يترجمهـا الآخـرون تُفضل أن تكـون ترجمة مسـترة .

قلت بسرعة لأساعدها في تجاهل خجلها لدي الحصة الأولى فراغ لمَ لا تأتي معي،

جلست بجانبي على المكتب قائلة آه يا لينة أشعر بإحباط شديد بل بالتمزق هل أخبر مس سلام (المشرفة أو السوبر فيزر في قسمنا) بما أخبرتني به ولية الأمر عن مس منال ؟

نظرت لها نظرة معترضة، لكنها تجاهلتها وأكملت كلامها لا أقصد الفتنة بل سأفضفض لها .

تركت القلم الأحمر على الكتاب وقلت ستحبك مس سلام كثيراً إن أخبرتها بهذا وستعلم أنك مخلصة لإنك ستخبريها بكل شئ يحدث في الفصل وخارجه وكأنك كاميرا صوتية وكلامك معها ليس فضفضة إنها تملك سلطة رفد المعلمة وفصلها من عملها وبالتالي فالحديث مع صاحب سلطة عن العمل لايندرج تحت كلمتي فضفضة وصداقة بل يسمى إيغار صدرها، الإشتراك في قطع رزق معلمة، إن فعلتِ ستسقطين من نظر نفسك وليس هناك أثمن من الظفر بالذات ياصديقتي، ستقربك مس سلام منها وستصبحين من المخلصين لكن لاتنسي الأشخاص يتغيرون ويتبدلون ولاأحد دائم على كرسي المنصب لاسيما إن كان يعمل في عمل خاص كمدرستنا، أفضل أن تخبري مس منال مباشرة بما تريدين .

لينـة أنت تخافـين المخلصـين لمَ؟ ألقت السـؤال بنـبرة خفيضة وكأنـه سر تخشـى عليه .

لسـت أخـاف منهـم لكن أحـب أن أكون حذرة معهم يسـهل تغيرهم .

قاطعتنـي وهـي تغمـض عينيها وكأنهـا تخبرني لسـت أفهمك لينـة أليـس الإخـلاص صفـة نبيلـة الإخـلاص وتعثـرت في إنفعالاتهـا إنـه سـورة من سـور القـرآن دفعـت الجملة مـن فمها وكأنهـا تبصقهـا.

ابتسـمت عيني وقلـت تخضعين للتدليس بسـذاجة الإخلاص المذكـور في القـرآن لله وحـده أما نحن فنخلص لكل شـئ نخلص للقمـة العيـش، نخلـص للعمـل وللراتـب، نخلـص لمدرائنـا والمشرفـين علينـا، نخلـص لـكل شـئ يصـب في مصلحتنـا ويدر علينـا منفعـة وأحياناً نخلص لا لسـبب سـوى أننـا لم نخلص لله .

لم أفهـم أيـن الخطـأ في هـذا أعيـب أن يحـرص الإنسـان عـلى مصلحتـه ؟

ليـس عيبـاً أن يظـل حريـص لكـن أن يتحول لإخـلاص هذه هي المشـكلة .

لمَ ؟

لإن الإخـلاص شرط مـن شروط العبوديـة، سـنتحول مـن مجـرد مخلصـين مبرريـن إخلاصهـم لعبيـد متلذذيـن بعبوديتهـم، سـنعبد لقمـة العيـش والعمـل والمديـر والراتـب .

أبعدت وجهها مستنكرة أف لينة ليس لهذا الحد .

نقـول هذا دائـماً لكننـا نفعـل باسـتمرارعكس مانقـول، قلت هـذا بنـبرات صـوت متنهدة .

هزت رأسـها بعـد صمت قليـل وفي عينيها رأيـت بريق إمتنان أضـاء الهـم المرتسـم فيهما ثـم قالت أفهم قصـدك كفانا إسـتخدام مطيـة المصطلحـات، آه ياصديقتـي نحـن لا نكتفـي باسـتعمالها كمطيـة فقـط بـل نخترعهـا لنمـرر تبريراتنـا ولنشرعـن مصالحنا وأحيانـاً مخططاتنـا، أكملـت بنـبرة حانيـة لينـة هـل لي أن احكـي لـك كلـما وقعـت في مشـكلة أحتـاج لمـن يفهمني .

صدري رحب وقتما أردت .

شكراً،

لينة ؟

عادت تنادي اسمي بنبرة حائرة متسائلة متشككة .

نظرت إليها مباشرة وهززت رأسي .

فقالـت بسرعة هبي أننـي لاأمتلك مبـدأ أو أن المبادئ لاتكفي لإنقاذي فمن سـيمنعني الخطأ ؟

ضمـيرك الإنسـاني، الديني، الأخلاقـي وإن اخطأت لاتقلقي فبداخلنـا خلـق الله نفـس لوامـة ليـس المهـم الخطـأ فنحـن بـشر ونُخطـأ لا داعـي لجلـد الـذات لكـن المهـم أن نتـوب ونسـتغفر ونعـين تلـك النفـس اللوامـة التـي أخبرتـك عنهـا والتـي تعيدنا إلى الصـواب هنـاك مـن البشر ياعزيـزتي من يُخطـأ دون أن يطرف لـه جفـن أو يتحـرك منـه سـاكن، كـما أن الكامـيرات المعلقـة في الفصـول يـا أمـيرة كافيـة بنقـل أنفاسـنا ونبضـات صدورنـا لايحتاجـون للمخبريـن الجملـة الأخـيرة خرجـت من فمـي بنبرة متو سلة .

هزت رأسـها ثـم قالت لكـن تقريبـاً الجميع يفعل، لو سـكت سـأحمل خطأ هذا السـكوت .

ليـس السـكوت متشـابه، ثـم مادخلـك بغـيرك فليـس لإن الفعـل مشـاع أن يكـون مُبـاح أنهـن بهـذا يرضـين نفوسـهن البشريـة، أو يـردن أن يخـبرن أصحـاب العمـل بطريقتهـن تلـك أنهـن مخلصـات تهمهـن مصلحـة العمـل ويخشـين عليـه، أو يلتقطـن عـلى بعضهـن لقيطـة وزلـة، أو ربـما هـي شـهوة تتبـع العـورات والتدخـل فيـما لايعنيهـن، أو مجـرد الثرثـرة الفارغـة وتناقـل الـكلام لمـلء الوقـت بشـغل اللسـان، وربـما يكـون نوع

مـن إمتـلاك المعلومـات عـن الـكل ونقلها فحيـازة المعلومـة نوع مـن أنـواع حيـازة السـلطة، فالمعلومـة سـلطة .

تنهـدت وحركـت شـفتيها وكأنهـا تحـدث نفسـها وبالـكاد سـمعتها تقـول اعتدنـا السـكوت عـن القـذى.

ثـم عـاد صوتهـا يرتفـع وهـي تحدثنـي بادئـة جملتهـا بكلمـة لكـن ...

قاطعهـا الجـرس معلنـاً انتهـاء الوقـت فوقفـت حاملـة دفـتر تحضـيري وأنـا أقـول لكن المهـم النيـة لاتنـوي شراً ولـن تُخذلي .

واسـتغرقت أمـيرة تفكيري في طريقـي للفصل، إنهـا كالفرس الجامحـة التـي لم تسـتطع الحيـاة ترويضهـا ولا الأقـدار امتطائهـا، الحيـاة ميدانهـا ترمـح في سـاحتها بعنفـوان وفتـوة خيـل حقيقيـة روحهـا الوثابـة لم تحتويهـا روح أخـرى، لكنهـا مُلجمـة بإحـكام ولجامهـا قـوي يمنعهـا التهـور في الجمـوح، مكبوحـة بعقلهـا ومبادئهـا، لم يكـن لجامهـا مجتمـع لإنهـا لاتؤمـن بـه، أو رجـل تعطـي زوجهـا قـدر مايجعلـه مطمئنـاً أنها لـن تتمرد عليـه فتوهمه أنـه اسـتطاع امتطائهـا وامتلاكها وربما هـو فعل هذا لكـن بالقدر الـذي تريـده وتمنحه، لـذا فقد كان يعشـقها يعرف أنها مستسـلمة لـه بإرادتهـا خاضعـة لـه بقوتهـا يعلـم أن خضوعهـا اختيـار لا اضطـرار، جـبر لاكـسر، لـذا هـي تحكـي لي ليـس لأسـمعها بـل

لأثبـت لهـا لجامهـا أو هـي تطلـب مسـاعدتي في إحـكام تثبيتـه .

اتذكر أنها سألتني ذات صباح ماذا لو فُك لجامي ؟

ستسقطين كخيل جريحة لجامك موطن قوتك .

يومها ابتسمت قائلة ياه لو فك لجامي لصنعت الأفاعيل،

قاطعتها يُخيل هذا إليك، لن تفعلِ شيئاً .

تنهدت :

ياصديقتـي سـأخبرك شـيئاً مـن مكنونـات نفسي لكـن هل لي أن اثــق بكِ ؟

غمزت بعيني لكِ الثقة ولي البوح .

تعرفـين أنا لم اسـمح لأحـد بامتطائـي ليس لقوتي بـل أعي أن احترامـي سيسـقط إن فعل أحـد، الناس تكتفي بتأمـلي واحترامي دون الإجـتراء عـلى شـئ آخر مـاذا لـوكان كل هذا زيـف وخداع وإننـي بالداخـل هشـة واتخذ مـن القوة مظهـراً أُخفي بـه عورات ضعفي ؟،

ألتقطت منها الكلام .

لا ليـس هـذا مايشـغلك لإنـك لا تحبـي لأحـد أن يمتطيـك بلــوي ذراعــك، أن يبتــزك، أن يذلــك، أن يــترأس عليــك

فلاتتركين خياراً إلا احترامك وتأمل جمال فروسيتك وهي تختال في الميدان لكن يحزنك أنك لم تجدِ بعد مروضك فكل خيل مهما أحبت حريتها في النهاية تنشد صاحباً يمتلك وفاءها وتختال بكبرياء وفخر وهي بجانبه يقبض على لجامها،نظرت لها متفحصة وأكملت أميرة أنتِ ذكية تعرفين الإجابة لكنك تحبين سماعها، وببطء ضاغطة على الحروف قلت و لن تجديه .

من هو ؟

مروضك .

اتسعت عيناها دهشة تجاهلتها وقلت هذا هو سر معاناتك ومكمن جراحك .

ومالحل ؟

لا حل، التكيف أحياناً هو الحل، التعود حل، والحل الأسرع الرضا تعلمي أن ترضي .

لينة أتعلمين هذا هو النقص الذي أعانيه أنتِ وكأنك تطلبين مني ألا أطالب بالكمال ؟

تماماً لإن الكمال محال، لاوجود له .

ماذا لوكان موجود وأنت تهدأين حماستي في إيجاده .

الكمال لا كمال بعده أي من المفترض أننا إن حققناه أن نتوقف عن البحث أو السعي ونتظر الموت لكن واقعياً هذا لايحدث إننا نحقق أحلامنا، نبحث عن أهدافنا، نحاول تنفيذ خططنا لكننا أبداً لانكتمل، صدقيني عدم الكمال نعمة لكن جبلنا على الطمع .

لينة أنتِ غريبة ثم كيف عرفتي عني كل هذا رغم حداثة عهد حديثي معك ؟

من أسئلتك ! تبحثين عن إجابات محددة تشفي غليل عقلك .

قاطعتني وهذا هو سر إختياري لكِ أجد عندك مايوافق هوى عقلي .

بل تجدين عندي ماتحبين سماعه .

لايهم المهم أني وجدتك .

قضيت حصتين متتاليتين في فصل الأول الإعدادي أزالو من عقلي أميرة بل كل الأميرات في العالم وخرجت من عندهم أقول الحمد لله خرجت سالمة يا للحرب التي نخوضها داخل الفصول !

ثم نزلت إلى الباحة الترابية للإشراف .

في فــترة الإشراف (أي وقــت الراحــة أو البريــك)يــشرف المعلمــون والمعلــمات عــلى الطــلاب في هــذه الفــترة يتجولــون في الباحــة ينتبهــون من تصرفاتهم وســلوكياتهم، يراقبونهــم، يقدمون الحمايــة لهــم، أو يمارســون ســلطتهم على حريــة تلاميذهــم وهذه الفــترة لهــا جــدول محــدد كل معلــم يعــرف يومــه جيــداً أنه يشــبه جــدول الحصــص الأســبوعية وللقــدر أشرفــت معــي أمــيرة فأجــبرني الإشراف لإعادتهــا إلى عقــلي ..

تخرجــت أمــيرة مــن كليــة التربيــة قســم بيولوجــي(أحيــاء) تزوجــت فــور تخرجهــا وقبل ظهــور النتيجــة، أنخرطــت في مهام الــزواج مــن إنجــاب ورعايــة أطفــال وخدمــة زوج ولم تفــق مــن روتــين الحياة الزوجية إلا بعد مرور ســبع ســنوات أي عند دخول ابنتهــا الكــبرى المدرســة وبســبب الثورة فقــد زوجهــا عمله وظل عاطــلاً لعــام تقريبــاً ولا شــئ أكثر قســاوة مــن جلــوس الرجل في البيــت وتعطيله عــن القيــام بوظيفتــه، إن الرجل بلاعمــل كالمرأة العاقــر لا رجــاء منهــا، توصــل ابنتهــا للمدرســة وتعــود للبيــت فتجــده نائــماً لم يســتيقظ بينــما الشــوارع تعُــج بالرجــال الذاهبــين أو المغادريــن لأعمالهــم في البدايــة ألتقمــت الصــبر ثــم لفظتــه في النهايــة أغراهــا الطــلاق كشــاطئ أمــان وروادتهــا نفســها الفراق لكــن كيــف وبينهما أطفــال ماذنبهــما أن يعيشــا هذا التمــزق ثم لو أن الطــلاق مهربــاً من مشــاكلها فأكــد أن هناك مهــرب آخر ليس

فيـه إيـذاء لأولادهـا وقـررت التضحية مـن أجلهـم بخاصة أنهم يعشـقون أباهـم فلـن تحرمهـم منـه ولـن تكتـب عليهم الشـتات وتـرآي لهـا الخـلاص بعيـداً مسـتحيلاً فقـررت أن تتخـذ مـن العمـل مهربـاً وإليـه لجـوءً وغاصـت في دوامته، ومن سـت بيت منعزلـة هادئـة رائقـة تسـتيقظ صباحاً عـلى فنجان قهوة وتتمسـى ليـلاً بمتابعة مسلسـلها المفضل مؤنسـها صوت أطفالهـا ولعبهم حولهـا إلى امـرأة عاملـة بامتيـاز، لـذا هي لاتـزال غضة عـلى هذا التحـول، تعـاني مـن ضبـط إنفعالاتهـا، تبكـي بسرعـة، حـذرة منغلقـة، والأبـرز أنهـا تتفـرج عـلى ذاتها تلـك الـذات الجديـدة التـي لم تتعـرف عليهـا من قبـل، تحـارب في صراعها بـين الحفاظ عـلى مبادئهـا أن تتغـير وبـين الـذي يمليـه عليهـا العمـل، بـين الإخـلاص لمبـدأ أو الإخـلاص لشـخص، تتمـزق بـين امرأتـين شـديدتا القسـوة المـرأة العاملـة الجديـدة وربـة البيـت القديمـة وكل واحـدة منهـن تحـاول إلغـاء خصيمتها ثم اسـتخلاص أميرة لنفسها .

ورن الجـرس فأخرجـت أمـيرة مـن عقـلي وتركتهـا تواجـه صراعاتهـا وحدهـا ...

***

بعد البريك (وقت الراحة)...

دخلت حصة الصف الثالث الإعدادي (المتوسط)أتهيب من هذا الفصل كثيراً بسبب إبراهيم ليس لمشاغبته أو جسمه الكبير فهو طويل عريض وكأنه ليس طالب في نهاية المرحلة الإعدادية بل شاب في الجامعة أو حديث التخرج منها، أظهر أمامه صغيرة ضئيلة الحجم ولست وحدي فكل المدرسات يظهرن كذلك أمامه بل هو أطول من المدرسين الرجال، بصراحة ليس هذا هو السبب الحقيقي فهناك الكثير في مدرستنا مثله جسام عراض، فابراهيم يمتلك شخصية سلطوية يستطيع فرضها على من يتعامل معهم بداية من أقرانه في الفصل نهاية بالمعلمين، فأقرانه يحسبون له ألف حساب، يطيعونه طاعة عمياء، يحترمونه بل يحبونه حباً جماً وغريب أن أجد هذا التمازج سطوة طاعة وحب ينتفي الخوف في تلك العلاقة وهو ما لفت انتباهي بشدة، لم يكن إبراهيم ذكياً أو مميزاً في الدراسة وينتقصه النضج والحكمة لأصفه بالقائد لكنه أخضع الفصل تحت إمرته وهو السبب الثاني الذي أثار عجبي فالذين انتظموا تحت زعامته ليسوا ناضجين أو حتى راشدين بل مراهقين في مرحلة شديدة الحساسية بين عبث الهرمونات لفيض أو إنحسار إلى أوج التمرد ثم عنفوان الهياج الإنفعالي ففوضى العواطف وتقلبات المشاعر والأمزجة، برغم من

كل ذلـك فقـد انتظمـوا تحـت فرض شـخصيته وسـقف سـلطته وأصبـح هـو رئيـس الشـلة ومـا الفصـل إلا شـلته الكبـيرة ولـذا ألزمـت ألا أتعامـل بالطـرق التربويـة القديمة أو تلـك النظريات الكلاسـيكية التـي تعـج بهـا كتب التربيـة بـل أتعامل بـذكاء كبير وهـو مـا مثل لي ضغطـاً وتحـدي في نفـس الوقت، كما أنـه دؤوب في دراسـته لشـخصيتي يبحث عن نقـاط ضعفي لتكـون مدخله، ربـما حـاول تتبـع عثـراتي وكـم مـن مـرة حـاول تأليـب شـلته (الفصـل) وتحريضهـم ضـدي وفي كل مـرة لا تنجح مسـاعيه ولم تفلـح معـي أسـاليبه فأنا أكـبر منه سـناً وأكثـر منه نضجـاً وخبرة وأقـوى منـه مركـزاً أنـا معلمتـه، إذن فهـو الخـاسر أمامـي فطـن لهـذا بخاصـة أن تجاهلـه الفصـل بعـد فـترة مـن نشـوب حربـه وقـد إنتـاب شـلته الملـل مـن هـذا الـصراع وخفتـت حماسـتهم لـه فكـما تحمسـوا فجـأة خمـدوا فجـأة فهـم في النهايـة مجموعـة مـن مراهقـين ينتقصهـم النفـس الطويـل والصبر بـل تتحكم بهم فـورة العواطـف، وربما أصابهـم إحباط من إنتفاء سـبب حقيقي للـصراع، أو مصلحـة خاصة كوقود تشـعل عزيمتهـم لخوضه مع مصلحـة عامـة لضـمان إسـتمراريته، كـما أن عدم وضـوح الهدف منـه (الـصراع) وغياب الخطـط وإنتفـاء وجود إسـتراتيجية قابلة للتنفيـذ أخمـد الشـغف في إكـمال مابـدأه إبراهيـم، فهـو لم ينجـح في وضـع إسـتراتيجية يقـود بهـا شـلته ويحمـي بهـا صراعـه فقـد تمحـورت حربـه حـول جلـب النـصر لتوطيد مزيـد من السـلطة

والسيطرة فتمركز الصراع حول سلطته ومصلحته الخاصة لا المصلحة العامة للفصل لذا إنفضوا من حوله والأهم من كل هذا أنهم حقاً يكرهون بعضهم البعض وتشتعل بينهم العداوة لأتفه الأسباب وينفث الحقد سمومه في أرواحهم وتتآكلهم الغيرة ولا أُنكر أنني لعبت بخبث لإظهار هذا لهم بإثباتات ودلائل فوقر في أرواحهم أن هذا التعاون الذي تظهرونه ضدي مجرد وهم وخديعة تخدعون بها أنفسكم ولا تنطلي علي، اتحادكم ضدي مزيف، لذا سرعان ماتساقطوا أمامي حين إنكشفت عورات طباعهم وسوءة أخلاقهم مع بعضهم البعض وكانت هذه أشد هزيمة لهم، كما أنني في المقابل عملت بجهد على استمالتهم بشرحي، باحتوائهم، بالحديث إليهم، باقترابي منهم كصديقة لها حدودها في التعامل أو كأخت كبرى تؤمن بمسؤوليتها تجاههم، كمعلمة تؤدي واجبها أمام الله لايضيرها تمردهم وكثيراً ماتدخلت الأمومة الخفية التي لم تُخطئها أرواحهم .

فشل إبراهيم في جعلهم مشتعلين متحمسين لقضيته لكنه لم يستسلم ليس من طبعه الركون للهزيمة أو الرضا بها فقام بالصراع وحده وأصبحوا هم مجرد متفرجين لكن حتى المشاهدة ثمنها في صالحه فالمتفرج سيبقى تابعاً للمنفذ،

إبراهيـم يعلـم تمامـاً أن لديـه ميـزة واحـدة تطيـح بمراكـزي أرضـاً فليسـتعمل سـلاحه القـوي، رجولتـه، وبالفعـل أشـهرها أمامـي وجرني إلى سـاحته وأقـام الحرب بشـعار رجل أمـام امرأة ذكـر وأنثـى وارتفـع سـقف التحـدي ومعـه زادت وتـيرة حنقي واسـتيائي فقـد أُقحِمـت في حـرب قـذرة لا ناقة لي فيهـا ولا جمل واسـتطاع إخضاعـي لخوضهـا واشـتعل توتـري وقلقـي وتحفـز الضعـف الأنثـوي بداخـلي فارتـدى لباس الحـرب وتـذرع بقناع القـوة مازلـت لا أريـد أن أخسر هيبتـي أمـام الطلبـة باللجـوء إليـه وتماماً هـذه نقطـة ضعفـي وفطـن إليهـا فالمعلـمات يلجـأن إليـه في فـرض السـيطرة عـلى الفصل وإلـزام الفصل بالهـدوء كي تسـتطعن الـشرح وتتمكـن مـن إلقـاء الـدرس وانتظـر إبراهيـم منـي هـذا اللجوء إليه كـما فعلـت كل المعلمات بل وحتـى الإدارة تفعـل ذلـك لكننـي لم أفعـل و خـسرت توقعاتـه أمامـي وكانـت هـذه أول هزيمـة لـه لكنـه رجـل لـن يرتضيها لنفسـه ...

وأعلنت الحرب ...

وأخيراً رن الجرس معلناً انتهاء الحصة ...

***

رد رجاء ..

المرة الثالثة من اتصالي بزوجي ولا يُجيب .

ربما لديه عمل الآن، لكن الساعة الرابعة أنه وقت الغداء ربما لا يستطيع الرد علي لإن أحداً من زملاء العمل إلى جانبه وهو يتحرج من الحديث معي أمامه .

لأتصل في السادسة عند انتهاء فترة العمل .

ألتهيت في التحضير ولا أعلم كم من مرة نظرت إلى الساعة ربما عشرات المرات متى تأتي السادسة وحتى لا أفقد عقلي وأنا أراقب الساعة ضبط منبه الموبايل،

بعد حوالي منتصف الساعة رن المنبه .

ألتقطت المنبه سعيدة ما أجمله ذلك الرنين وعدت للاتصال بقلب واجف وبأنفاس متهدجة رد رجاء ..

لايوجد رد الاتصال الأول الثاني فالثالث والرابع ثم أغلق هاتفه ..

قلت لنفسي لينة ماتزال فترة المقاطعة قائمة بللت الدموع عيني ثم نهرتها فجفت على الفور رميت بدفتر التحضير وبالكتب فتناثرت محتويات المكتب أمامي كتناثر كبريائي مع كل اتصال لا يجيب عليه ..

لإتصل بزهرة..

وردت زهرة أهلاً لينتي ...

أهلاً اشتقت إليك، أخبارك ؟

بخير الحمد لله، اليوم طحنت في العمل طحناً تخيلي وقفت ثمان ساعات على قدمي حتى تخدرت من طول الوقوف فما عدت أشعر بها،

سألتها مالذي تطلب منك كل هذا الوقوف ؟

الوسائل التعليمية بين رسمها وتلوينها ثم لصقها.... وغرقت زهرة في الثرثرة وغرقت أنا في استماعها رغم أن عقلي بين حين وآخر يهرب من أذني، في الحقيقة اتصلت بها لإني أريد أن أحكي وحين هممت بفض الكلام تعفف لساني عن ما أهم به فتراجعت فماذا عساي أقول لها إن زوجي يهجرني وإنني الآن في مرحلة المقاطعة ثم من تلكم المرأة التي تجرؤ على ذكر ذلك فجميع النساء تختال بحب زوجها لها وتتباهى بعطفه حتى لو اتخذت من الكذب مساعد ومن الخداع ستار ومن المبالغة شاهد ...

وتأوهت روحي فخرج صوتي متنهداً عبر الهاتف .

لينة مابك ؟

وكادت عقدة لساني أن تحل فقلت زوجي ...

قاطعتني ما به زوجك ؟

وعـاد لسـاني للتعثـر وتبعثـرت الكلـمات كلهـا مـن عقـلي وتشـتت متفرقـة وكأننـي لم أتعلـم الـكلام قـط ..

لينة أخبريني لقد قلقت ..

لا لاشئ أنه يتصل علي وسأتركك الآن لأرد عليه .

تمام مع السلامة .

وأغلقـت الهاتـف فـوراً وانهمرت دموعـي وأنا ألعـن عجزي وضعفـي ووحدتي وهتفت من داخلي يـارب لاتتركني وحدي ...

اقتربـت السـاعة مـن الحاديـة عـشر كنـت قـد انتهيـت فعـلاً مـن واجبـاتي وواجبـات أولادي وتحضـيري فتحضرنـا للنـوم،

قرابـة الحادية والنصـف انتظمت أنفاس أولادي فقد سـحبهم النـوم لنظامـه الرتيـب أمـا أنـا فرحت أتقلـب في نومي يسـترجع عقـلي تاريـخ المقاطعـة من تاريـخ ١/ ٩ ونحـن اليـوم١/ ١٠ إذن شـهر هـو عمر الهجـر، تقلبـت إلى جانبي الأيـسر حاولت الهرب بتفكـيري إلى المدرسـة، المعلـمات حكايتهـن، وأخـترق تفكـيري أسـلوب الأسـتاذ وائـل في طريقته الناعمـة مع المعلـمات وحديثه الآسر لايمـل الحديـث يتحدث في كل شـئ وعن أي شـئ يا لحظ

زوجتـه ربـما لا تمـل الجلـوس معـه لكـن زوجـي يهجـرني وربـما امتـد الهجـر لأكثـر مـن ذلك اعتـدت منـه هـذا أف ماهـذا الهراء عـدت لجانبـي الأيمـن فأقتحمتنـي نظـرات أسـتاذ هشـام تجول في وجهـي وتصـول في عقـلي قفـزت بـرأسي مـن عـلى الوسـادة حانقـة وسـألت بضعـف اللعنة مـاذا يريد منـي الشـيطان في هذه السـاعة؟ سـأترك لـك الغرفـة كلهـا ارتع فيهـا كيف شـئت المهم اخـرج بهواجسـك من عقـلي ...

نظـرت للسـاعة كانـت الواحـدة يـالله متـى يـأتي النـوم كيف سـأذهب غـداً للمدرسـة جلسـت أمـام التلفـاز أقلـب القنـوات كتقلـب رأسي المحمـوم على وسـادتي أو ربما تقلب فـأر مذعور في مصيدتـه، أغلقتـه وألتقطـت روايتي فتحت منتصفها كما أشـارت العلامـة لكنـي لم أفقـه كلمـة ممـا اقـرأ وبـدت متاعبـي وهمومـي تظهـر صـوراً على الصفحـات بدلا من ارتسـام كلـمات الرواية في مخيلتـي يـالله حتى خيـالي رهِقـاً أغلقتهـا وأطحت بهـا إلى المنضدة تململـت في جلسـتي ولجـأت إلى الـلاب ملجأي الأخـير، فتحت الملـف (الفولـدر)الـذي أدون فيـه وقلـت هيـا يارفيقـي اسـتعد كتبـت كـم كلمـة ثـم محيـت مـا كتبـت أعـدت الكتابـة وكـررت المحـو أف إذن لافائـدة مـن الكتابة فلأقـرأ ماكتبت مسـبقاً وفعلا نجحـت القـراءة أن تمتصنـي وتهـدأ مـن روعي...

فقرأت ...

مس زهرة ...

اللاجئة الثانية ...

خريجـة كليـة رياض أطفـال، متزوجة لكن قدرهـا في الحياة أن تكـون وحيدة بـلا أولاد حُرمت الأطفال فقـررت أن تعمل معهم علهـا بهـذا ترمم جـدار الأمومـة المتصـدع بداخلهـا أنهـا الفاقدة لرنـين الكلمة السـحرية أمـي فاسـتبدلتها ب (مس) رغـم أنه ما مـن بديـل، بوحها ملـئ بالشـجن مغلف بالأسـى، كلما جلسـت معهـا رأيـت في عينيهـا الحزن يجـدف بمجدافيه في أمـواج تتلاطم متخبطـة وتصطـدم عـلي صخـور عقلها ثـم تتفتت عـلي روحها، قالـت لي مـرة أنـا راضية بقـدري لكن ليـس بمقدرتي منـع الحزن عنـي وأعلـم أن امتحاناتنـا مقاسـه بدقـة وببراعـة قدير بحسـب مقدرتنـا في تحملهـا، وقوتنـا في الصـبر عليهـا لايكلـف الله نفسـاً إلا وسـعها ولمعـت في عينهـا الدموع وأحمـر أنفها ولم أسـتطع منع دموعـي فقـد لامسـني كلامهـا بخاصة أني أمـر بمرحلـة مقاطعة مـن قبـل زوجي وهـو ظرف قـاسي بالنسـبة لي ..

وهتفـت وأنــا اقـرأ وقـت أن دونـت حكايـة زهـرة كنـت مهجـورة أيضـاً هُجـرت لحـوالي الشـهر ربـما تقـصر هـذه المـدة عـن سـابقتها وغمغمـت بصـوت خافـت وربـما تطـول، أف أيها الشـيطان ألم أتـرك لـك الغرفـة لمـا أتيـت ورائـي هنـا هـل تريـد تسـليتي إذن فلتجلـس بأدبـك ...

وعدت لشاشة اللاب اقرأ ..

وقتهـا فهمـت أن ألمهـا سـببه حرمانهـا مـن الأطفـال لكنـي اكتشـفت مؤخـراً أن بوحهـا لي كان لايـزال غامضـاً متحفظـاً كتومـاً، زهـرة معروفـة بيننـا بعندهـا وتمردهـا ومعارضتهـا دوماً نقـول لهـا يازهـرة لايعجبـك العجـب ولا الصيـام في رجـب، متقنـة لعملهـا أيـما اتقـان بـل تسـتمتع بـه كل المتعـة كيـف وهي محاطـة بالأطفـال مـن كل ناحية تغـدق عليهـم حناناً ورقـة وعلماً دومـاً تقـول لي عملي مـع الأطفال مواسـاة الله لي، ولها من اسـمها نصيـب في رقة أخلاقهـا ونعومة صوتها وبيـاض بشرتها ونظافتها تمتلـك دلع امـرأة تظهـره وتخفيه قوة وعنـداً، حكـت لي حكايتها قائلـة تـوفى والدي وكنـت في الصف الثالـث في المرحلـة الثانوية، نحـن سـبع أخوة وأخـوات وفاة والـدي هي الضربـة الأولى التي قصمـت ظهـري وعجلـت بشـيخوخة روحـي فقـد كان والـدي رحمـه الله حنونـاً صديقـاً يسـمعني ويفهمنـي ويكتـم أحاديثـي كـما الفراشـة أنـا بجانبـه لم أعـرف الهـم ولاشـعث التفكـير قـط طـوال حياتـه لكـن لاتسـتمر الحيـاة كثـيراً عـلي اسـتقرارها حين قبـض المـوت عـلي روح أبي انقلـب كل شـئ واضطـررت أنـا للعمـل عـلي الأقـل لأكمـل تعليمـي، أمـي امـرأة صعيديـة قوية صلبـة أمسـكت بالزمـام والخطـام بعـد أبي ومـن قُوتنـا بنـت بيتاً وزوجـت إخـوتي وإنخرطنـا جميعـاً في العمـل لا فـرق بـين بنـت

وولـد وعملـت في محـل لتجـارة الملابـس، قاطعتهـا أنـت يازهرة عملـت في محـل أعلـم جيـداً مايعنيـه الاختـلاط بالتجـار ومحايلة الزبائـن و مهـاودة البضاعـة وكثـير مـن حيلـة كيـف بقيـت كـما أنـت عليه ؟كيـف لم تتغيرِ ؟صوتـك منخفض هـادئ، وطريقتك مسـتقيمة، وتمسـكك بالمبادئ والديـن وإلتزامـك بالمعتقد وكأنك قـط لم تتعامـلِ مـع بشر ؟

لم أكـن وحدي يـا لينة الصحـاب أو الجماعة أو الرفاق سـمهم كـما تشـائين، فقـد ألتحقت بإحـدى الأحـزاب الدينية واشـهرت إنتمائـي لهـا وجعلتهـا مرجعيتـي في كل شـئ فأعاد الرفـاق تربيتي مـن جديـد تلـك التربيـة التـي أنـا عليهـا اليـوم والتـي وصفتيها أنـتِ أن أسـير في المجتمـع لكـن بالحـدود التـي تربيـت عليهـا، أن أُخالـط النـاس دون أن تختلـط عقيـدتي ومـا تربيـت عليـه، أن اتعامـل مـع البـشر بمبادئي، بـل ليس هذا فحسـب بـل أدعوهم لدعـوتي وأوضح لهـم الصـواب والخطأ وهكـذا وضعتنـي الحياة في بوتقـة مصهورهـا دون أن اتغـير وتعرضت للهيـب البشر دون أن أحـترق فيه، اسـتمد من رفاقـي الحماية والقـوة والثبات لم أكن وحـدي يـا لينـة لم أكـن قـط وحـدي حتـى في زواجـي كانـوا هم عائلتـي، فسـتان زفـافي، بعض أثـاث شـقتي، الفرقة التـي زفتني كل شـئ هـم مـن جلبـوه لكـن للأسـف تفرقنـا الآن وصمتـت زهرة،

بادلتهـا صمتاً بصمـت لكـن بداخلنـا ظللنـا نتحـدث ونبوح بما لم تسـتطع ألسـنتنا ذكـره ورحت أفكـر فيها كـم أن تلك الحياة التـي نحياها رديئة وبائسـة .

أخرجتها من صمتها بسؤالي:

زهـرة أنتِ مـن الصعب استعمالك كمخلصة أو اسـتخدامك كتابعـة كيـف انتسـبتِ لهم لمَ لم تظـلِ حرة ؟

لم أكـن كذلـك بـل كنـا رفقـة وأنـا لا تناسـبني الوحـدة لـذا احببـت أن يرافقنـي أحـد عـلى الطريـق، رفيـق الطريـق مهـم يـا لينـة وبدونـه يصبـح الطريـق مُوحشـاً .

أفهمك تماماً اشعر بذلك كثيراً بالوحشة .

خرجت مـن القراءة وقلت بصوت خافت وحالياً بالوحدة ...

أف أيها الشيطان ألم أخبرك أن تجلس بصمت ...

وعدت للقراءة ...

وكيـف تفسريـن ارتدائـك للنقـاب ؟ وبداخـلي قلت سـتقول كلامـاً مُعـاداً نعرفـه جميعـاً لكنهـا ضحكـت قائلـة تمـرد أيضـاً النقـاب ياصديقتـي بحد ذاته تمرد عن الشـكل المجتمعـي للمرأة المسـلمة أو المحجبـة المجتمـع وضـع معايـير للمحجبـة نعرفهـا قطعـة قـماش تغطـي بهـا شـعرها مـع الشـكل العـادي للملابس

أمـا شـكلي هـذا فيرفضـه المجتمـع ويشـكك به بـل ويحاربـه وأنا أتمـرد عـلى رفضـه وأرفـض تشـكيكه ولاتهمنـي حربه،

إذن ارتديتيه من منطلق التمرد ..

قاطعتنـي باسـمة ووافـق تمـردي معتقـد حمـداً لله عـلى ذلـك، أنـا متمـردة في حـدود دينيـة وأطـر عقائديـة .

هل يعني هذا أني قد أكون متدينة أكثر منك ؟

طبعاً .

لكن النقاب خضوع ؟

النقـاب لايعنـي الخضـوع !كـون أحدهـم أراد لـه هـذا المعنى فهـي مشـكلته، لايعنيني كلامـه كثيراً ولايسـتوقفني رأيـه أصلاً، تمامـاً كـما يـرى أحدهـم أن الديـن إرهـاب مشـكلته أيضـاً ورأيه لايهم كثـيراً .

تخيلـت أن بوحهـا انتهـى لكـن مهـلاً لم ينتـه عـن هـذا الحـد لكـن هكـذا خُيـل إلي فقـد عـاد البـوح يتخذ منحـى جديـداً يوم الحفلـة الختاميـة للسـنة الدراسـية وتخريـج دفعـات مـن المدرسـة وأعيـد للحكـي بابـه وفُتـح لي منـه آفـاق بعـد أن تملكنـي اكتئاب الكتابـة وهـو مـرض مقتـصرة معرفتـه عـلى مـن يكتـب سـواء عـن موهبـة أو مـن احترافيـة، وامتـلأني ألم المـرض وداهمتنـي

أعراضـه وعجـزت أن أخـط حرفـاً برغـم حمـل الكلـمات الثقيل بداخـلي وطلقاتهـا المتسـارعة لإخرجهـا لكنـي عجـزت مكتفيـة بـالآلام وامتـد العجـز الإكتئـابي ليشـمل حيـاتي دون أن اسـتطع عنـه إنفصـالاً، المهـم علـم الله أني لم أطـق صـبراً فجـاءت الحفلة تخرجنـي عـن ماألم بي ليسـت الحفلـة في حد ذاتهـا بل قبيـل انتهاء الحفلـة في حـوالي السـاعة الحاديـة عـشر ليـلاً قلت لمـس زهرة لا أسـتطع الجلـوس أكثـر مـن هـذا، لابـد أن اذهـب للبيـت .

قاطعتني وأنا أيضاً أظلمت السماء وتأخر الوقت .

ألـن ننتظـر التكريـم فحـان وقـت تكريـم المعلـمات واسـتلام شـهادات التقديـر .

لا سآخذه فيما بعد .

وأنا سأفعل مثلك هيا بنا .

لكن لنستأذن مس سلام (مشرفة المرحلة أو السوبر فيزر).

هيـا بنـا وفوجئـت بزهـرة تقـول لهـا لأسـلم عليـك سـلام وداعــي فلــن أكمـل في المدرسـة .

قاطعتهــا مــس ســلام زهــرة لا تقــولي أنــك ســتتركينا وتسـابقت الدمـوع مـن عـين مـس سـلام مما جعـل زهـرة تبكـي هـي الأخـرى وتعانقتـا باكيتـين، مسـحت زهـرة دموعها

بسرعة حتى لايسألها أحد ولم يكن الوقت مناسباً للإجابات أو المزيد من الكلام وانطلقنا خارج المدرسة .

بصراحة تحاشيت أن اتكلم في الموضوع فقد كنا منهكتين لدرجة أن مجرد فتح فمي بالكلام عناء، و قدمي متورمة من طول الوقوف فلم أستطع ارتداء الحذاء بطريقة صحيحة وهي أيضاً تعاني من نفس الألم فضلاً عن المشاعر المختلطة التي تحاول كبحها حتي لاتخرج للعلن، ليلتها لم أستطع النوم طوال الليل من الانهاك وكل أمنيتي أن أقف تحت صنبور الماء البارد لأستحم وقد بلغ بي الضعف مبلغه فبقيت أمنية معلقة،

في الصباح اتصلت بها،

جاءني صوتها خشناً محشرجاً وبدا لي أنها بكت فور استيقاظها من النوم أوربما أعياها البكاء فعجز جفناها عن الغمض، راعني صوتها وحالتها زهرة ما بك ولمَ ستتركين العمل لك مكانة رائعة صنعتيها بمشقة فلمَ

ستتخلين عنها بسهولة ؟

تعذرت بأن الراتب قليل والعمل كثير وهذا لايتعارض مع الإخلاص أو حبها للأطفال وقالت بيأس لكني كبرت وماعاد جسدي يتحمل وصحتي تشتكي،

أوه يازهـرة قليـل أحسـن مـن العـدم، أفهمك لكـن لا أعتقد أنـه سـبباً كافيـاً لتتركـي العمل اذهبـي لمدرسـة أخرى .

فأسـكتتني بسـبب أخـر المـاء ينقطـع عندي طـوال اليـوم فأنا حاليـاً اسـكن في بيـت أبي أنـت تعلمـين هـذا فقـد كنـت ابحـث عـن شـقة وهـو لايحتـوي علي موتـور لإصعـاد المياه للأعـلى وأنا أحـب الإسـتحمام كثـيرا وسـكتت بادلتهـا السـكوت وأنـا أعلم جيـداً أنهـا تخفـي سـبباً أخر بل السـبب الحقيقـي وفجـأة قالت لي في الحقيقـة يـا لينـة لـدي مشـكلة كبـيرة في البيـت وأريـد لها حل لـذا سـأترك العمـل وانخرطت في بكاء شـديد إنها كذبـة كبيرة لا أريـد أن أخـبرك لإني سأسـقط من عينـك، أشـعر أن الله لن يغفر لي لقـد وقعـت في ذنـب كبير .

زهـرة لا أريـد أن أعـرف لكـن ثقـي تمامـاً مهـما كان حجـم مشـكلتك فلن تقعِ من عيني أبداً ولـن تتزحزح مكانتك أعي أنك صاحبـة مبـدأ المخلصة لـه لكننا جميعا بـشراً خلقنـا الله لنخطئ ثم نتـوب لننكسر ونـذل له ونطرق بابه خاضعين هوني على نفسـك .

قالت إذا تركت العمل سأحكي لك حتى لاتحكمي علي .

لسـت مـن هـذا النـوع لا يعنيني من الإنسـان سـوى سـلوكه الحـاضر لايهمنـي ماضيـه وأنـت بالـذات يـا زهـرة سـلوكك وتصرفـك المسـتقيم يغفـر لـك أي شـئ .

وعـاد لهـا البـكاء أنـتِ لاتعـرفي شـيئاً أنـا لا أسـتحق تلـك المكانـة لا أسـتحق هـذا الحـب البارحـة بكـت مـس سـلام مـن أجـل ألا أتركهـا أنهـا تحبنـي .

فعـلاً هـي تحبـك حقـاً تحبـك لشـخصك وليـس لإتقانـك العمـل فحسـب وليـس مـن عـادة مـس سـلام أن تحـب أحـداً ليســت سـهلة في عواطفهـا هــي مقتصـدة في إهدارهـا .

أمـس هـي بكت لإنهـا تحبني وأنـا بكيـت لأني اكـذب عليها أنهـا مشـكلة شـخصية اضطرتنـي للكذب لكـن الكذبـة كبرت .

قاطعتهـا ومـا دخـل أنهـا تحبـك بـأن تحكـي لهـا حياتـك الشــخصية أولا تكــذبي عليهــا .

لينة أنت لاتفهمين أنا أخطأت .

وأنا أخطأ بل مليئة بالخطايا نحن بشراً لسنا ملائكة .

بصراحـة لم يكـن لـدي فضـول لأسـمع حكايتهـا بقـدر أننـي أريـد أن اسـمعها لأخفـف عنهـا ثقـل حملها فأنـا مدينة لهـا بذلك فطالمـا حكيت لهـا ووثقت بهـا وأشركتهـا في أحمالي وشـعرت بأن الوقـت قـد حـان لأرد لهـا جميلها .

ومن بين دموعها قالت سأخبرك كل شئ .

لكنها عادت للبكاء وصبرت أنا إلى أن قالت أنا لاأنجب وزوجي أراد أن ينجب، قلت عادي تزوج وقصدت أن يكون صوتي فيه من الإستخفاف بحيث لا أهول عليها فيكفيها تهويلاً على نفسها .

أكملت تماماً فبعد ضغط والدته تزوج ولم أستطع التحمل فطلبت الانفصال، البارحة حين قالت لي مس سلام لم ستتركين العمل قلت لها زوجي لا يريد أن اعمل، لم أقصد الكذب بل حين اتكلم عنه اتكلم بصيغة الماضي فزوجي لم يتركنِ أعمل أقصد كان لايتركني أعمل ثم أنني لا أتكلم عنه كشخص بل كوجود أنه مازال موجوداً معي في البيت مازال مكانه في البيت لم يتغير أنا لم أقصد الكذب صدقيني يالينة ثم أنني مازلت أحبه وهو يحبني ومازال يحاول العودة والرجوع .

ولمَ ترفضين عودي بشرط ألا يتحدث عنها مطلقاً بل حتى لايخبرك بميعاد ذهابه إليها ولك في نطاق السيدة هاجر حل لمعضتلك .

قاطعتني حاولت وحاولت لكني لم أطق صبراً لايكلف الله نفساً إلا وسعها ألم أخبرك بذلك مسبقاً، لذا سأترك العمل في هذه المدرسة وأعمل في مدرسة أخرى أخبرهم قبل أن أعمل إني منفصلة ... (وفعلاً يوماً أخذتنا الثرثرة كعادتنا النساء وتكلمنا عن الابتلاء فقالت أنا راضية بقدري لايكلف الله

نفساً إلا وسعها يومها بكيت أنا وهي من هذه الآية لكني لم أكن أعلم أنها تقصد بها طلاقها وليس عدم إنجابها)فكان الطلاق أقسى علي نفسها من حرمانها من الأطفال بل إنها ترفض وهي تبوح أن تذكره بل تقول منفصلة، انفصال لكنها لم تذكره قط لذا هي في الواقع لم تكذب إنها نفسياً ترفض تصديق ذلك وتصر علي أنها لاتزال متزوجة .

قلت معترضة وما دخلهم في هذا من حقك أن تخفي عنهم حياتك الشخصية ثم أنتِ لم تكذبِ أنت كتومة كتمت هذا الأمر وبدلاً أن تضعيه في خانة الكتمان وضعتيه في خانة الكذب هذا كل مافي الأمر لا تهولِ الأمر على نفسك هوناً يازهرة هوناً .

آه يالينة لا أريد لحياتي الشخصية أن تكون مشاع في المدرسة كحياة مس نجلاء وحياة مس سلام أنهم يتكلمون عن مشاكلهم ببساطة وأريحية والمدرسة كلها تعرف مشكلتهم أنا لا أتحمل أن أكون مثلهم .

أنا مثلك وتعرفين لماذا نحن كتومات لإننا ضعيفات لايسعنا إلا أن نكتم بداخلنا ونصمت لإننا لن نتحمل نتائج الكلام.

لكنني أصبحت أقوى يالينة العمل علمني القوة أصبحت أواجه وآخذ حقي لم أعد ضعيفة كما كنت سأغير المدرسة

وأخبرهـم في المدرسـة الجديـدة أني منفصلـة ولـيرضى مـن يرضى أو ليرفـض مـن يرفـض وغمغمـت حتى الإنحنـاء يتطلـب قوة .

وهـل تخالـين نفسـك سـترتاحين، مـن وجهـة نظـري مـكان العمـل ليـس هـو المـكان المناسـب لأن نقـول هـذا فيه مـن ناحية لإنـك سـتتعرضين للإسـتغلال مـن مدرائـك فأنـت لا زوج لك ولا أولاد وكبـيرة كفايـة لإن يعترضـك إذن الوالـدان أمـا تريـن اسـتغلالهم للعازبـات اللائـي لم يتزوجـن بعـد لـذا فأنـت مـن وجهـة نظرهـم متفرغـة للعمـل وحسـب ولا يسـعك الرفـض، مـن ناحيـة أخرى ستسـتغلين من الرجـال الذين يعملـون معك، وأكملـت هـي والإشـاعات والغمز واللمـز تخيلي أمـس قالت لي نيولوفـر مـا بـكِ تنظريـن هكـذا نظراتـك كأنهـا نظـرات مطلقـة رغـم أنهـا مازلـت بنـت عزباء لم تتـزوج ورغـم أنها لاتعـرف من أمـري شـيئاً راعنـي تشـبيهها كثـيراً وأفزعني .

لا تهتمـي بكلامهم كثـيراً يازهـرتي النقية، وأمامـك خيار آخر أن تقـولي أنـك منفصلـة حتـى تفتحـي لنفسـك مجـال فربـما تقدم لـك الرجل المناسـب .

ومن ذا الذي سيتزوج امرأة لاتنجب .

يـاه كثيريـن، بـل إنـك مطلـب فهـو يريـد أن يعيش مـع امرأة بـلا هم المسـؤولية والأولاد أنت سـتكونين الراحة لـه من تبعات

المسؤولية وثقلها كما إن الفوضى والإهمال الذي يعيشه معظم الرجال مع زوجاتهم وأبنائهم يجعلهم يبحثون عن تلك المرأة الرائقة المنظمة النظيفة المرتبة بعيداً عن عبث الأطفال وازعاجهم أنت المحطة التي يحط عندها رحاله مستريحا رائق البال بعد رحلة محفوفة بالمشقة والعناء ليمتلئ منك ويعود للأولى يكمل مسيرة الضجيج .

ضحكت زهرة وقالت وهل سأتحمل المعاناة التي سأسببها لزوجته الأولي لم اتحمل أنا فمن ستتحمل .

استئذني منها .

عادت زهرة للقهقهة ومن تلك المجنونة التي ستوافق أتركي هذا لله .

صحيح لينة متى ستذهبين للخياطة أريد تفصيل عباءة خفيفة للصيف فالجو حار جدا.

مارأيك في يوم الخميس ؟

متى ؟

الرابعة عصراً .

عندي ورد حفظ اجعليها السادسة .

تمام وبيننا اتصال .

اتفقنا في أمان الله .

انتهـت المكالمـة واسـتغرقني تفكـير مـؤلم، زهـرة لم تكـذب لكنهـا ترفـض الطـلاق ثـم تعجـز عـن تصديـق أنهـا اصبحـت مطلقـة ولإنهـا لم تنجـب اعتبرت هـذا الرجـل ابناً ثـم افاقت علي أنـه زوج بعـد أن تركهـا وتـزوج وبالرغم من ذلـك مازالت تعاني مـن تصديـق هـذا أن ابنها تركهـا وحيـدة وذهب ثم أنهـا تزوجته بعـد وفـاة والدها فـكان بمثابة أب أولا ثـم ابن ثانيـاً لكنه لم يكن زوج .

لم أتصـور أبـداً أن صاحبة الابتسـامة الرقيقـة والصوت الناعم الخفيـض والخلـق الدمـث مع الطبـع الرفيع تكتـم كل هذه الآلام بصمـت جسـور، تخفـي كل جراحهـا في كفـن تخبئـه في قـبر مـن سـكوت، اختـارت لسرهـا بريق من نـدرة بدلاً أن يصبح مشـاع يعلـك في الأفواه .

ثـم إنهـا أخبرتنـي أنها بعـد الإنفصـال تعيـش في بيـت والدها ويبـدو أنهـا رفضـت أن تعيـش مـع أمهـا في شـقة واحـدة فهـما مختلفتـان في الطبـاع أو ربـما متشـابهتان فتنافرتـا فعاشـت في شـقة أخـرى في البيـت وتدفـع إيجارهـا وفواتيرهـا مـن عملهـا فهـي حتـى لا تقبـل أن تكلف أمهـا مشـقة انفصالها أو ربما لـن تتحمل كلمـة تأفـف غـير مقصـود مـن أمهـا أو ربما لإنهـا تود حمـل همها وحدهـا دون مسـاعدة أحد وربـما طلاقها كان طلاق مسـالم أي لم

تحـدث قبلـه مشـاكل لذا فلم يسـمع به أحـد من جهـة ولم تصدق وقوعـه هـي مـن جهة أخـرى لإن طـلاق المشـاكل يصبـح التفوه بيمـين الطـلاق هـو مفتـاح الجنـة هـو اتفاقية السـلام بعـد حرب طاحنـة ويصبح هـو الانتصـار الأوحد بعـد سلسـلة الهزائم لكن زهـرة طلاقهـا مختلـف أنـه فـراق محبـين أبـت الأقـدار إلا الفراق ربـما هـو الخـير لهـما فـلا مطلـق في دنيانـا لايوجـد الـشر المطلـق ولايوجـد الخـير المطلـق لايوجـد قـدر سـئ عـلى اطلاقـه أو قدر جيـد عـلى اطلاقـه، وربـما وربـما لايهـم ووجدتنـي أقـول يـارب الأربـاب كـم أن الحيـاة رديئة وبائسـة .

جلسـت عـلي الجهـاز اكتـب لكـن فجـأة توقفـت أننـي لم أسـتأذنها لأكتـب عنها وكيف سـأفعل وقـد آمنتني عـلي أسرارها ووثقـت بي فباحـت لي وكيـف بعـد أن حكـت أخبرهـا سـأكتب جـاءني هـذا الهاجـس مـع زهـرة بالـذات لإنهـا أمينـة شـديدة الكتـمان وقـد وثقـت بي ورفضـت لقصتهـا أن تكـون مشـاع في محيـط صغـير فكيـف وأنا مـن سـيضخم ذلـك المحيـط، اعلم أن البقيـة سيتسـابقن لـسرد قصصهـن أمامي لـو علمـوا أني اكتبهن ربـما لإن البـشر يحبون أن يكونـوا أبطالاً حتى لو بطولـة في المعاناة والألم فـما عـادت البطـولات تعنـي الإنتصـارات وتقتـصر عـلى النجاحـات بـل غدونـا نحـول الهزائـم والإنتكسـات لبطـولات متناهيـة النظـير ربـما لإن البطولـة غريـزة في الإنسـان خلقـه الله

بها، ربما لإنه يحب الخلود وليس هناك سوى الكتابة وسيلة التخليد الأزلية، ربما لإن التدوين عبر الكلمات هو الشاهد الوحيد، وربما لإن الكتابة عمل عظيم نبيل وهي تعظم شأن أبطالها حتي لوكانوا حقراء فاشلين فهذا شأن الكتابة راقية حتى مع الوضيع مترفعة حتى مع الدنئ، لكن الجميع يطلب تدوين المعاناة أما يريد أحد تدوين أفراحه ألا أن الفرح ليس له ذلك القدر والحظوة في عرف الكتابة كما الحزن، هل الكتابة لاتنتصر إلا للحزن ؟

ربما أنا مضطرة لأستأذن منها لأكتب عنها !!

وأغلقت اللاب بعد إنتهاء قصتها أو بالأدق بعد إنغلاق عيني، فهذه ببساطة أنا لا أتوقف عن القراءة إلا بعد توقف عيني ..

وجررت قدمي جراً لغرفة النوم ...

***

رن المنبه ...

السادسة صباحاً ...

بعد الروتين المعتاد ذهبت للمدرسة ألقيت نظرة على الجدول ٥/ ب،٦/ أ،١/ د،٣/ ه وفصل إبراهيم وشعرت

روحـي بالتثاقـل إذن اليـوم أربع حصص بجانـب الإشراف طبعا وهتفـت «رائـع «الأولى فصـل إبراهيـم إذن فلأتخلـص مـن تلك الحصـة الثقيلـة ...

حـين دخلـت الفصـل قـام جميـع الطـلاب لكـن إبراهيـم لم يقـف ...

بداخلي قلت لقد بدأنا ...

لم ألـق التحيـة ونظـرت إليـه مبـاشرة تجاهـل نظـراتي مدعيـاً التشـاغل .

ربـت طالـب بجانبـه عـلى كتفـه بخشـونة قائـلاً تعبنـا مـن الوقـوف .

فوقـف بتكاسـل ولامبـالاة ثـم رفع رأسـه لأعـلى رافعـاً أحد حاجبيه ،

ألقيـت التحيـة فـرد الجميـع وبـدأت الحصـة ورغم هـذا فقد مرت بسـلام ...

بعـد انتهائـي مـن الـدرس تركت لهم عـشر دقائق ليتسـنى لهم نقلـه مـن السـبورة جلسـت حـوالي الدقيقتـين عـلى الكـرسي ثم بـدأت أدور عليهـم لتصحيـح الدفاتر،

حـين وصلت لدفـتر إبرهيم انحنيـت لأعلم دفـتره فأصبحت قريبـة منـه وشـعرت بوخـزات نظراتـه الذكوريـة عـلى وجهـي وقـد حبس أنفاسـه،

انتهيـت مـن الدفـتر دافعـة بـه بعيـداً بقـرف ٍفقـد وصلتنـي الرسـالة جيـداً، شـعرت بإهانـة شـديدة، انتقلـت للدفـتر التـالي وبداخـلي تتـوالى اللعنـات عـلى شـهادة البكالوريـوس التافهـة الـذي جعلـت منـي معلمـة وكـم صغـر في عيني سـعي وجهدي لأحصـل عـلى تلـك الشـهادة مـاذا لـو تـراءى لي في المـاضي أن المسـتقبل يخبـئ لي ذلـك المشـهد المهـين وتلـك النظـرة الحيوانيـة وهانـت في عينـي نفسـي، وتواتـرت اللعنـات بداخـلي اللعنة على تلـك المنظومة الفاسـدة كلها وعـلى التعليم والتدريـس والطلاب والعمـل حتى المعلمـين لم يحتموا مـن اللعنات الغاضبـة المكبوحة داخـلي، كـدت أبكـي لكننـي أبتلعـت ألمـي فـوراً وقلـت بسرعة جيـد اهتمـوا بحـل الواجبـات .

وفتحت باب الفصل منتظرة رنين الجرس ...

مس لينة ...

نظرت تجاه المنادى، إبراهيم ...

نظرت له وهززت رأسي بإيماءة أي تكلم ...

فقـال أتعلمـين يامـس لينـة أن حلـم حيـاتي أن أدخـل كليـة العلـوم وأردف بسـؤال أتعرفـين لمـاذا،

قلت بهدوء لماذا؟

بخبث أجاب أحبها،

جاهـدت حتـى لا تظهـر تعابـير عـلى وجهـي وقلـت بـلا إكـتراث إمكانياتـك العقليـة لاتخولـك لدخولهـا .

ابتلـع ريقـه وتغـيرت نظراتـه وأتخـذ موقـع المهاجـم أنتـي السـبب في كرهـي لهـا ...

ورن الجـرس يـا لصوتـه الخـلاب فقـد أنتشـلني مـن الحـرب المهينـة ..

تأثـر يومـي كلـه بتلك الحصـة فقـد عمتنـي مشـاعر متضاربة وفقـدت سـيطرتي عـلى إنفعـالاتي وتـوازني العقـلي برغـم إني جاهـدت أن يظـل هـذا التضـارب بداخـلي وبالفعـل نجحـت في جهـادي هـذا عـلى الأقـل ظاهريـاً،

في الحصـة السـابعة ذهبـت للمعمـل هاربـة لعزلتـي المحببـة فتحـت دفـتر التحضـير وكتبـت ...

قتلـت ذاك الجـزء النابـض مـن روحهـا المتدفـق بالعشـق فقد ظنـت تحـت ضغـط طبعهـا العمـلي وروتينيـة حياتهـا وهروبهـا

المُلِح من حلم يؤرقها إلى هجران مستعر يحرقها في أتونه أنها ما عادت بحاجة لتلك المشاعر الغضة فقررت وكان هذا أول قرار تتخذه في حياتها أن تنتقم من ألمها وتتخلص منه بوأد ذلك الجزء العاطفي من تكوينها فما عادت بحاجة إليه وما زاد عن الحاجة لا بأس بالتخلص منه، وحين حان الدفن بدلاً من أن تصنع مائدة جنازة أقامت حفل بهيج داخل سراديب مظلمة في روحها ولم تطل فرحتها كثيراً فقد جزعت حين تحسست جثتها(المشاعر) المقتولة وراعها أنها مازالت تنبض وتدفق النبض بقوة حتى أصبح يؤلمها متحولاً إلى وخزات طاعنة تط

لينة ماذا تفعلين ؟

أغلقت الدفتر بسرعة غير ظاهرة حتى لا ألفت انتباهها ورفعت رأسي وبوجل قلت أحضر .

لقد طرقت الباب عليك لكن يبدو أنك مستغرقة فلم تسمعِ طرقاتي، أكنتِ تبكين ؟

ابتسمت طبعاً لا .

أنفك أحمر وعيناك مبللتان .

راوغتها أنه الزكام .

أتمانعين إن جلست معكِ ؟

ربـت عـلى الكـرسي بجانبـي طبعـاً لا أمانـع، تفضـلي أنـتِ مرحـب بـك في أي وقـت يا نجلاء فابتسـمت بسـعادة شـكراً ...

***

مس نجلاء ...

اللاجئة الثالثة ...

أرهقتنـي قصتهـا أيـما إرهـاق أولاً لإن حكيهـا وافـق شـهر امتحانـات في المدرسـة وكذلـك امتحـان ابنتـي ولم يكـن لدينـا الوقـت كمعلـمات نـسرق دُقيقـات لتتحـدث، مـع انهاكـي مـن ضغـط العمـل و أعبـاء أسرتي الصغـيرة التـي أواجههـا وحـدي بعد سـفر زوجـي، لاتثقلنـي المسـؤولية فأنا ضليعـة بحملها لكن همهـا وقلقـي مـن فشـلي مـع خـوفي مـن عـدم إعطائهـا قدرهـا هـو مايثقلنـي وينهكنـي نفسـياً وزادت المقاطعـة مـن آلامـي فقد قاربـت عـلى الشـهرين وتعمـق الصمـت بيننـا بـل تحَـول لجثـة متعفنـة تحُـول دون حديثنـا، لـذا كنـت مجـبرة عـلي سـماعها لإن متاعـب القصـة ومصاعبهـا تهـون عـلي متاعبـي إذا ماقورنـت بما اسـمع فقصتهـا نوع مـن المواسـاة لي، وفي نفس الوقـت إنني أحمل بداخـلي قلـم ولا أحـب أن يكـون مرفهـاً بـل جلداً وليـس لي إلا الصبرعـلي حكايـا نجـلاء، ثالثاً هي تشـعر بالراحـة إذا حكت لي ولم أمتلـك القسـوة الكافيـة لأخبرهـا أن كفـى عـن الحكـي آلمني

بوحـك، وبالرغـم مـن كل هـذا فلـم يتوفـر لي الوقـت حينهـا لأكتـب فكنـت اكتـب بخيـالي أو تأتينـي الكلـمات وأنـا أمـام الحـوض أغسـل الأواني أو ورأسي عـلي الوسـادة ينشـد بعـض راحـة فاحتفظـت بنوتـة ورقيـة صغـيرة في درج الكمودينـو أخط عليهـا في الظـلام حيـث لا أسـتطيع بعـد أن ذاق جسـدي متعـة التمـدد عـلي السريـر أن أقـاوم وافتـح النـور فاكتـب في الظـلام وحـين افتـح أوراقـي في الصبـاح يذهلنـي ماكتبـت كـما يعجـزني الخـط السـئ عـلي القـراءة لكـن في النهايـة نجحـت في تدويـن بوحهـا بـين تقطيبـات الدمعـات، عالجـت بـه جفـلات العقـل، لحنتـه باهتـزازات النبض، وشـكلته بانتشـارات الروح، ثـم أعربته في انحرافـات القلـب.

نجـلاء معلقـة بـين عقـدة النـكاح وعـزم الطـلاق وزاد مـن معاناتهـا تهـرب زوجهـا من دفـع النفقة ممـا اضطرهـا للعمل أولاً ثـم للمحاكـم ثانيـاً، زوجهـا ليـس من طـراز أصحاب سـوابق في المغـازلات العاديين بل تسـتهويه المـرأة العنيدة البعيـدة القوية، ينشـد تلـك التـي لا تخضـع، يهـوى الصيـد وعـلي كثـرة الغزلان حولـه في الغابـة إلا أنه لايريـد إلا الأسرع و الأجمـل والأقوى إنه يعتبرهـا تحدي ولا يريد لنفسـه الهزيمة وفور أن يصطادها غارسـاً سـهمه فيها يسـعده منظرهـا صريعة تقـاوم دمائها النازفة وتسـتر جراحهـا الغائـرة، لـن يقـترب منها سـتعافها نفسـه فقد سـقطت

يريـد أن يطاردهـا دون أن تسـقط، تمتعـه المطاردة، ويسـتفزه عدم سـقوطها، وتسـتنفره قوتهـا، وماعلـم الثعلـب الخبيـث أن مـن الطرائـد مـن لاتسـمح لنفسـها أن تكـون فريسـة حتـي وإن كان صيـاداً ماهـراً مترعـاً بالمال ومدججـاً بالجاذبيـة أو الوسـامة و إن أخفـت هـي تحت قوتهـا مئـات الجـراح وآلاف بـؤر الضعف .

قالـت نجـلاء بلهجـة تزينهـا الرزانـة مـن الرجـال ياصديقتي مـن يحترم المـرأة القوية، يقدرهـا دون الإقتراب منهـا أو الإقتران بهـا ربما لإنـه يهابها أو يعتبرها تنافسـية معـه وهو لن يقـضِ حياته في تنافـس محموم،

ومنهـم مـن يحـاول كسرهـا فهـو مصـارع لـن يقبـل أن تكون شريكتـه خصمـه فيسـحق أنفهـا في الـتراب أولاً ثم يكمـل حياته معها ،

وثالثهم من يحتوي قوتها يشاركها معه ويتشارك معها .

ولا أقصـد بالمـرأة القوية تلـك المسـيطرة، القاسـية، الصارمة، صاحبـة الصـوت العـالي،أو الأسـلوب الفـظ والخطـط الخبيثـة والكيـد العظيـم بـل أقصـد تلـك التـي تعـرف ماتريـد جيـداً ثم تقاتـل مـن أجلـه بهـدوء وذكاء .

هززت رأسي متفقة معها .

تأملت نجلاء يضرب الإهمال بيديه في جميع أطنابها وتوغلت هي فيه بعد الهجر فيديها جافتان، أظفارها ليست مقصوصة بترتيب وتعاني قلة النظافة، بشرتها تكاد تصرخ من فج ماتعانيه، ملابسها تنافي الهندمة والأناقة ولو في أدنى درجاتها .

ثم قلت سأكون صريحة معك هل كنت مهملة وقت أن كان زوجك بين يديك لإن الرجل يمقت الإهمال، أم أنك تعاقبين نفسك بإهمالها المتوحش القاسي هذا ؟ولا تجعلي السبب نفقة أو مال لأن الفقر لم يكن يوماً سبب الإهمال .

تنهدت بحرارة حتى كادت حرارة أنفاسها تلفح وجهي لكنها أبعدت عينها بعد أن كادت الدموع تلمع فيها ثم عدلت عن السفورعلي سطحها مكتفية بالانسكاب في صوتها فقالت ببطء بعد أن ابتلعت دموعها لينة أنا امرأة عاطفية هشة أخفي ضعفي بغلالة من قوة واستغناء، اكبح زمام بقايا الأنوثة بداخلي، اتمنع واتكبر وادفن بداخلي نار الهجر بعد أن فتت أيام الفراق قوتي وزاد البعاد من عمق ضعفي وحفر البرود أخاديد ألم ووجع أخفيتها بابتسامة طفولية ووجه بريئ، لكن أقل نظرة إعجاب أو سلوك إحسان أو كلمة لطف ستذيب الجليد بداخلي فتشتعل عاطفتي متوهجة وتنصهر روحي بنارها وحمأتها هل

تريديـن منـي أن أخمـد تلـك النـيران برمـاد حرمـاني وفي قـرارة عقـلي أعـي بأنـه لا جـدوى منهـا ولا نفـع، أواه ياصديقتـي الغريـق لابـد وأن يتشـبث فالأعـماق قاسـية ومظلمة وأنـا لا أود الوصـول إليهـا حتـي لـو ظللـت فـوق السـطح دون الوصـول لمرسـى فـلا يهـم الوصـول إن كان الثبـات هـو الثمـن .

صمتـت ثـم ألتفتـت لي قائلـة أنـا أم لـذا لا يهـم أي شـئ آخر فلتذهـب الأنوثـة والاهتـمام للجحيـم آه ياليـنـة إن أقسـى النسـاء وأقواهـن تذيبهـا كلمـة أمـي وتُظهـر بشـكل فـج مـدى ضعفهـا وقلقهـا وعذابهـا ولـذا فـإن المـرأة خُلقـت مـن ضعـف فمهـما تظاهـرت بالقـوة فسـيظل الضعـف مخلـوق فيهـا يكـبر في رحمهـا ويخـرج للحيـاة وهـي ترعـاه بـكل قوة وقسـوة بـل وشراسـة إذا اقتـضى الأمر،إن أي جراحـات تلتئم في كلمة أمـي كما العداوات يذيبهـا العمـل .

نظـرت في عينـي مبـاشرة وقالـت بصـوت نبرتـه خفيضـة وكأنها تخشـى أن يسـمعها أحدهم، لـن أكذب وأدعـي أني متدينة أو متحفظـة وأنهـما مـن شـكلا دعـماً لي مـن الإنحـراف ...

رفعت حاجبي إذن من أي شئ تستمدين الحماية ؟

مـن أمومتـي ...آه يـا لينـة لا أتحمـل أن أرى تلـك الأم العابثة في عـين أطفـالي أعتقـد أن التعاسـة كلهـا أن أتحـول لأم مسـتهترة

والحضيض كله تختصره الأم العابثة ...

ألم تتسائلي ماذا لو غفر الأولاد خطأك ؟

وهل ستغفره أمومتي ؟

ضيقت عيني وأنا انظر لنجلاء كنت أفهمها دون أن أسمعها إنها تهرب من أنوثتها الجريحة في أمومتها المهدرة إنها تهوى صريعة بين مفترستين تنهشان فيها ببطء وتؤدة الأنثى الباحثة عن الإحتواء فاقدة الحنان والأم التي تحتوي وتعطي ذاك الحنان المفقود، بين الأنثى المعذبة في المحاكم تستجدي حقوقها وبين الأم البائسة التي تستجدي ابتسامة تسكبها في أعماق أطفالها علها تعود بصدى رنين ضحكاتهم .

حركت يدها أمام عيني ثم قالت لينة هل أنت معي أين هربت ؟

معك لم أهرب بعد، أنت من هربت نجلاء الاهتمام لن يكسبك أنوثة بل ثقة بالنفس.

تمام جداً هذا ماأحتاجه بعد أن تم تحطيمي وكسري بتؤدة وصبر، تلك المشاعر العابرة جميلة والنظرات المعجبة لذيذة لكن ماذا بعد ؟ماذا لو حرك الإهتمام أنوثتي؟ سأفسد .

قلت مازحة لن تفسدِ ولن يحرك شيئاً تحتاجين آلة ضخمة

كالبلـدوزر لتحـركك وليـس مجـرد هنـدام جيـد وبعـض أناقـة وترتيب .

لمَ لا تفهمـين أن بداخـلي مشـعث مغـبر وهـو ينعكـس عـلي الخـارج ؟

إذن فلتبـدأ النظافة مـن الداخل ولينفض الغبـار من الأعماق .

ورن الجرس ..

تنفســت الصعــداء فقالــت بسرعــة ســأذهب لــدي حصــة وتركتنــي خرجــت مــن الغرفــة لأقــف عــلى الســور وأنــا أُخــرج نجــلاء مــن عقــلي وأقلــب الصفحــة عــن حكايتهــا وداهمتنــي هواجـسي كـم أود أن أحكـي لأحدهـم عـن تلـك المسـماة لينـة تنـوء روحـي بالبـوح ولا يسـعني إلا الصمـت هل هنـاك خيارين لا ثالـث لهـما إما أن تحكـي وإما أن تسـمع وتخيلـت نفسي أحكي فلـم أجد شـيئاً أحكيـه ا لا أجد سـوى الصمت حـين يحين دوري في الـكلام رغـم ثرثـرتي حـين أكتـب، وبـدأت نفسي تنهـال علي لومـاً وتقريعـاً لمـا لا يتسـع صـدرك لنجـلاء يـا لـكِ مـن قاسـية متعجرفـة لجـأت إليـك في ألمهـا وبـدلاً مـن أن تجـد روح تحتويهـا وجـدت قلـب يضجـر منهـا يكفـي أن ليس لهـا زوج تبثـه آلامها فجـاءت إليـك، أنا أيضـاً مثلها مهجـورة، لكنك تكتبـين تفرغين أحمالـك في الكتابـة أما هي فلا، وهتفت حاضر حاضر سأسـمعها

ليس انقياداً لك أيتها الهواجس لكن لإني أحتاج ذلك ...

وهربت من كل شئ في دوامة الحصص كم أعشق تلك الحصص تجبرني على مغادرة آلامي تسكت كل الأصوات داخلي تقتلع هواجسي إقتلاعاً لإنها ببساطة تطحني في حربها فلا تترك فيَ متنفساً ..

انتهى اليوم الدراسي حمد الله فقد أضعفني الشرح،

برغم من ذلك ذهبت لأبصم وأنا أعاني صراعاً داخلياً شديداً بين ما أعانيه من قصصهن وبين نفسي الممزقة وحين ذهبت لتسجيل بصمتي فنحن نوقع صباحاً وعصراً عن طريق بصمة إلكترونية وجدت نجلاء تبصم مثلي،

فابتسمت لها نجلاء احكي لي .

فانقلب وجهها من شحوب وشرود إلي سرور وبهجة .

ثم اقترحت ما رأيك لتتمشي معي فأنا الطريق إلى بيتي قصيراً اقتطعه سيراً أومشينا بين فلل هادئة وطرق تظللها أشجار باسقة وارفة وغيوم السماء الرمادية تغطينا .

وحكت نجلاء حكاية من غرابتها لا تصلح سوى سيناريو لمسلسل أو لفيلم مثير .

قبل عشرون عاماً توفى والدي بعد أن أنهيت الدبلوم

فلـم يسـعنِ إلا العمـل وبالفعـل عملـت سـكرتيرة في مصنـع لتصنيـع الألمونيـوم الـذي كانـت تمتلكـه عائلـة مكونـة مـن أب وأم وشـابين وبنـت كان العمـل كلـه مـتروك للابن الأكـبر ماجد هـو مـن يديـر العمـل وماجد ذاك شـديد الوسـامة شـديد العبث بهـا أنيـق في ملبسـه مـع ابتـذال كإرتدائـه سلسـلة ذهبيـة غليظـة تتـدلى عـلي شـعر صـدره تـاركاً فتحـة قميصـه شـاهدة عليهـما، يسـكب عليـه الفاخر مـن العطـور فتفـوح رائحته على بعـد أمتار واشـية بمجيئـه أو وجـوده في المصنـع، يركـب موديـل فخم من السـيارات أوفتـاة مثـلي جديـدة عهد عـلي هـذا الثـراء، غضة علي مثـل تلـك المظاهر وصغـيرة غـير ناضجـة لتجربة كتلك سـقطت في الوحـل كنـت دائماً أعامـل باحتقار وسـخرية من ماجـد ودائماً ينادينـي يا(بنت)فنجـان قهـوة، كـوب مـاء، اذهبـي وأحـضري طعامـاً كنت خادمـة أكثر من سـكرتيرة، أيـن الإيـرادات، أوراق المصاريـف، ..إلـخ، يتعمـد إهانتـي أمـام عملائـه وزبائنـه، كنت اعطيـه أوراق مبعثـرة متناثـرة فيـصرخ غبيـة حمقاء لملمـي قمامتك مـن عـلي مكتبـي وبقيت حـوالي الثلاث أشـهرعلي هـذا المنوال لا أفهـم مايريـد ولا يعلمنـي معتـبراً أيـاي غبيـة لـن يصلـح التعليم أمثـالي فلـمَ العنـاء ؟،إلى أن جـاء والـده وصرخ ماجـد كعادتـه بعجرفـة يابنـت أحـضري القهوة .

أحـضرت القهـوة ووجدتـه يقـدم لوالـده أجنـدة مجدولـة

مكتـوب فيهـا الصـادرات، الـواردات، المصروفات، السـلفات، المتأخـرات، والمديونـات وصـاح عقـلي أعجـزت أن تفعـلي مثلها ولم أنـم ذلك اليوم اشـتريت مثلها وسـهرت الليـل بطوله أجدول مصاريـف الثـلاث أشـهر الفائتـة وفي الصبـاح وضعـت الأجندة أمامـة فهـز الكـرسي الـدوار الجالـس عليـه هـزات سـاخرة ثـم قلـب شـفتيه قائـلاً جيـد أخـيراً تعلمتي .

قاطعتها مالذي صبر أمثاله علي أمثالك أمن قلة السكرتيرات وقتئذ ؟

بل لإنه وجد فيَ ماجعله يصبر علي سأخبرك،

كان يقصـد أن يبعثـر نقود هنـا وهناك عـلي الأرض، في أدارج المكتـب، تحـت الكـرسي وتظهـر وكأنهـا سـقطت سـهواً وحـين أنظـف مكتبـه أجدها فأجمعهـا وأضعها في صنـدوق موضوع على مكتبـه ثـم يتجاهـل عـن عمـد الصنـدوق يعـرف محتوياتـه جيداً لكنـه يهمـل أخذها آمـلاً أن أمـل إهماله لهـا فأخذهـا ولم أفعل بل زاد محتواهـا المـالي مـع الوقـت بخاصـة أن امتحانـه أصبـح أكثـر صعوبـة فأجـد المـال مرمـي في المطبـخ أو تحـت كـرسي مكتبـي وبطريقـة عفويـة أو هكـذا أريـد لها، ودأبـت على فعلتي واسـتمر في إصراره حتـي فـاض بي الكيـل فغـدوت أرمـي تلـك النقـود في القمامـة مـع الكناسـة ويبحـث ورائـي أيـن المال وحـين لم يجده صرخ يابنـت سـقط منـي مبلـغ يربو عـن المائـة جنيهـاً ألم تجديه ؟

بل وجدته .

وأين هو ؟

فحملت سلة المهملات وفتحتها كانت مليئة بأوراق نقود من مختلف الفئات فصرخ وقد احمر وجهه جراء الإهانة يابنت اجمعي الأموال وضعيها في الصندوق .

فقلت له بثبات لست أنا من ألقى بها .

لمَ ألست من تنظفي المكان ؟

نعم لكن أنت ألقيت وأنا نظفت وأنا لا أعيد ماكنست إن أردتها فخذها أنت وهربت من أمامه إلى مكتبي، لبثت فيه بضع ساعات انتظر ورقة رفدي من العمل لكني فوجئت به اصنعي فنجان قهوة وأنا اضع الفنجان على المكتب حانت مني نظرة لسلة المهملات فوجدتها نظيفة من نقودها فاحمر وجهي سعادة وأفلس وجهه من كل مشاعر لكنه تجاهل الموقف برمته ثم ضغط زر أمامه و أمر...

ابعث السائق،

وأسقط في يدي فبالتأكيد سيوصلني إلي البيت وفي ثواني وقف السائق بجانبي شغلني مصيري حتى لم أعي من حديثهما إلا خذ نجلاء على الفيلا ثم نظر لي قائلاً اذهبي

معـه إلى فيلتـي ثـم أعـاد كـرة النظـر إليـه أخبرهـا بـما تفعلـه .

وانطلـق بي السـائق إلى كفـر عبـده أرقـى مناطق الأسـكندرية بـل مـن أناقتهـا وفخامتهـا كـدت أحبـس أنفـاسي وأنا التـي لم أرَ مثـل هـذا الترف والثـراء من قبـل وتوقفت بنـا السـيارة أمام فيلا بـل قـصر لم أرَ في حيـاتي أجمـل منـه بـل في أشـد أحلامـي جنونـاً وجموحـاً ماكنـت لأراه هـذا مـن الخـارج، حـين فتـح السـائق البـاب خُيـل لي أن تلـك الجنـة وأننـي بالتأكيـد في غياهـب حلـم جميـل وأن الوعـي غـاب عنـي وأسـتبدت بي الأحـلام وأننـي مازلـت أقـف كفـأر مذعورأمـام مكتـب السـيد ماجـد انتظر منه غفرانـاً فأعطـاني إذن بدخـول الفيـلا ماهـذا الهـراء كلـه، أيقظني السـائق آنسـة نجـلاء هـذه هـي الطلبـات كلهـا هيا معـي لأريك المطبـخ وآه يالينـة مـن المطبخ عـلى الطراز الأسـباني بنوافـذه التي تطـل عـلى حديقـة الفيـلا الخلابـة وأشـجارها الآسرة، بزخارف لبناتـه، ونمنـمات نجفاتـه، والآنيـة لم تكـن في مـصر وقتـذاك لقد تـم جلبهـا مـن الخـارج، الثلاجة مـلآى بطيبـات لم أرهـا من قبل ولا أعـرف لهـا اسـماً واسـتبد بهـا الوصف حتـى شـعرت أنها قد نسـيت عذابهـا وهوانهـا أو أنـه قـد انبعـث مـن الماضي عـلى نحو مرقـق فحتـى الشـقاء يرققـه الزمـن والتعاسـة يعالجهـا بحكمتـه فتنبعـث منـه بوقـار ويعـود الحـزن وقـد ارتـدى غلالة مـن مهابة وجـلال وغلـف بنـوع مـن حنـين يالفعـل الزمـن بنا، انسـحبت

من خواطري لأعود لنجلاء والتي لاتزال مستغرقة في ماضيها تحكيه وكأنها تتوسله أن يتوقف عند تلك اللحظة، نجلاء وماذا بعد، ابتسمت ثم قالت لو رأيت مارأيته، لمَ ضجرتِ الوصف ؟

لم أضجر لكن ادخلي في الأحداث .

حسناً أغلقت باب الثلاجة وقبل أن ينتهي الغلق فوجئت بطفل صغير وكأنه انبعث انبعاثاً يتأملني بخبث وذكاء كان جميلاً يميل للشكل الغربي بشعره الأشقر وعيناه الزرقاوتان ابتسم لي ابتسامة وعيد وذهب، وضعت قدراً على النار وشرعت في طهي الطعام وبينما أنا أقوم بنقل قدر الطعام الساخن من الموقد إلى الحوض إذ اقتحم كلبان شرسان كأنهما حصانان من ضخامتهما كانا تقريباً في طولي وهالني أنيابهما المشرعة المسننة وانتفض جسدي وارتعشت يدي فسقط القدر المغلي وأصاب الكلبان رذاذهما الحار فجنا فوق جنونها، تملكني رعب شديد وأنطلقت ساقاي يسابقان الريح بينما توقف عقلي وكل شئ آخر ولك أن تتخيلي كيف كان منظري وأنا اركض في الحديقة لاهثة أصرخ بفزع والكلاب ورائي والأطفال يقهقون من منظري وأخيراً دخلت الفيلا وسارعت بإغلاق الباب وغاب عن إدراكي أن للفيلا باب آخر وكاد جسدي يستند إلى الباب استعيد أنفاسي الضائعة فإذا بالكلاب أمامي فانتفض جسدي

مع صرخة مجنونة وعدت للركض وأخيراً دخلت غرفة ومن شدة إجهادي ورعبي تعذبت في غلق بابها بعد أن عانيت في استرداد أعصابي وقفت وراء الباب حوالي العشر دقائق ثم سارعت بإغلاق النوافذ وأشعلت المصابيح ويا لروعة ماشاهدت حتى إنني نسيت أمر الكلاب والأطفال وكل شئ فأنا بالتحديد في غرفة نوم السيد ماجد قلت بنفاذ صبر رجاء لا تعيديني لجنون الوصف ولحمأة الذكرى قاطعتني بل لفحش الثراء فجدران الغرفة مكسوة بالمخمل معلق عليها لوحات زيتية مرسومة وموسومة بتوقيع مبدعيها وعلى دولاب الزينة صندوق عاجي مكدس بمجوهرات وخواتم مزينة بأحجار كريمة هل رأيت الزمرد والروبي والياقوت أو حتى اللؤلؤ قلت بحدة لا أريد أن أرى فقالت باستياء لما لا تكفي عن التذمر ستندمين لو فاتك القادم .

إذن أكملي، بجانب المرآة علقت صورة لامرأة من جلستها الأكابرية تعرفين أنها هانم بل ولدت كذلك، خمنت أنها زوجته فهي تشبه الطفل الذي رأيته مسبقاً إنها رائعة الجمال بل فائقة أجمل من طفلها بكثير فالطفل يشبهها لكنه شبه ليس خالصاً مشوب بأبيه، وفي عمق اندهاشي وانبهاري فتح الباب فجأة ألتفت صارخة وابتلعت صرختي فورا فأمامي يقف السيد ماجد بكبريائه وغطرسته وعيناه تطلقان شرراً

مـا كل تلـك الفـوضى وأي جنـون هذا من سـمح لـك بالدخول هنـا وماحالـة المطبـخ المزريـة تلـك لقـد حرقـت القدر وسـكبت الطعـام شـمخ بأنفـه بعيـداً عنـي قائلاً غبيـة هيا لاترينـي وجهك كلماتـه تقطـر مقتًـا، خرجـت مـن الغرفـة وأنـا في أشـد حـالاتي هوانـاً تمـلأني صـورة المـرأة الهانـم وامتـلأت غـيرة وحقـداً بـل جنونـاً أتصديقـين أن صنـدوق المجوهـرات لم يحركنـي خطفنـي بريقـه لوهلـة ثـم أنسـتني صـورة المـرأة وجـوده، آه ياعزيـزتي صورتهـا أذابـت الأنثى بداخـلي سـحقتني بعنقها المترفـع الجميل واجترحـت مشـاعري بأنفها الحـاد كسـيف، وبنظراتها السـاخرة الهازئـة كشـفت روحي المشـوهة الممزقـة، وفمها المرسـوم المزموم وكأنهـا تقـول بقـرف لم أخلـق مثلكـم من طـين، وتكومـت حول نفـسي تحـت أقـصى شـجرة في الحديقة وبكيـت ولأول مرة أشـعر بحرقـة البـكاء، ولسـع الدمـوع، بالهـوان والضعـف بـل بالعدم، وبقيـت تلـك حالتـي قرابة السـاعة حتى سـمعت صـوت والدته تقـول بنبرات صوتهـا القوي نجـلاء اذهبي الآن للبيـت وفي الغد تعـالي في نفـس موعـد دوامـك إلى الشركـة .

قلت بفرحة لن أترك عملي .

بالطبع لا من قال هذا ؟

شكراً شكراً وانقلب حالي .

تجاهلت فرحتي قائلة اجعلي السائق يقلك .

***

أشارت نجلاء لتمناية (سوزوكي)قائلة سأركب تأخرت أما أنا فخرجت من القصة ودخلت شارع جانبي يؤدي إلى بيتي مباشرة .

في الحقيقة لم أستطع الخروج من القصة فوقعت فريسة الحيرة بين نجلاء الحرة ونجلاء المقيدة أو بالتحديد بين نجلاء العابثة وبين نجلاء المكبلة بإلتزاماتها .

جلست منهكة على الأريكة القطيفية ووقعت عيني على اللاب المغلق بدعة فتحته ووقعت في غواية الكتابة بعد خلوتي بالكلمات تسابقت الجمل في التراص وتدفقت الكنايات والتشبيهات واختبأ الغموض بينهن هازئاً بزهو وخيلاء وتراصت السطور مؤتلفة وتجسد البوح فانتظم نبضه ثم تهدجت أنفاسه وحلقت على الأوراق روحه .

***

اليوم هو الخميس وهو يوم له بهجة ومذاق خاص لا يعرفها إلا من يستغرقه العمل طوال الأسبوع ومن يتطلب منه العمل الإستيقاظ مبكراً وهو اليوم الذي ينكسر فيه روتين الأسبوع وينحسر فيه العمل .

الساعة قاربت العاشرة نزلت إلى مطعم المدرسة كي اطلب فنجان قهوة فالصداع يعيث في رأسي فساداً مُخلفاً فوضى وهرج شديدين .

جلست إلى المنضدة انتظر فنجاني وضعت رأسي في كتاب استعرته من حوالي أسبوع ولم يتسن لي الوقت لقراءته ففتحته وقد عزمت على قتل الانتظار .

لينة يا دودة الكتب .

باغتني الوصف وسألتها ماذا تفعلين هنا ؟

أَسِدُّ جوعي قاتل الله الشرح يستهلكني ثم ما تلك اللهجة على الأقل سلمي أو رحبي .

لابأس يانجلاء الصداع يقتلني لمَ عينك حمراء ولمَ الدموع ؟

ضغطي عالي .

ومادخل الضغط بالعين ؟

لإن الضغط في عيني وليس في قلبي .

اسمع عن ضغط القلب أما ضغط العين فجديد .

ضحكت وقالت متميزة حتى في مرضي .

كان شـكلها غريبـاً وهـي تضحـك بينـما الدمـوع تنسـاب من عينهـا ممـا جعلنـي أضحـك أنـا الأخرى .

عـادت تلتهـم طبقهـا بلـذة جائع ثـم قالـت وهي تمضـغ ماذا تقرأين ؟

ألم تنعتيني بالدودة إذن لا شأن لك بكتابي، اكملي كلامك .

قالـت وهـي تبلـع طعامهـا لا تكابـري وقـولي نجـلاء يقتلني الشـوق لحديثـك الآسر .

قلت وأنا أبطن الكلام بالسخرية احكي لأسيرة الشوق .

اتخـذت الهيئـة الجدية وقالـت في الصبـاح ذهبـت للمصنع في نفـس موعـدي فوجـدت المصنـع وقـد انقلـب رأسـاً عـلى عقب فقـد عـاد والـد ماجـد مـن السـفر وبـاشر المصنـع بنفسـه ومعـه زوجتـه وبدأ فصل الحسـاب والعتـاب لماجد وبعد أن كان السـيد رقـم واحـد في المصنع لـه الكلمـة الأولى والأخيرة أصبـح لوالده ثـم لوالدتـه هكذا تصورت لكـن لم يكن هذا صحيحـاً فالصحيح أن والدتـه هـي الرقـم واحـد، وبـدلاً مـن كـوني سـكرتيرة ماجد أصبحـت سـكرتيرة والـده والـذي كان مختلـف كليـاً عـن ابنـه كل يـوم يقلنـي بسـيارته المرسـيدس السـوداء الفخمـة ويقـرأ لي الجرائـد اصنـع لـه إفطـاراً شـهياً ويطلـب انضمامـي لـه، قاطعتها ومـا المقابل ؟

أجابت ببساطة ودون حرج التسلية .

فقلـت بقـرف يـا لــه مـن ضعيـف وضيـع، ولم انجرفـت وجاريتيـــه ؟

كنت افتقد الأب .

وهل تعامل معك كأب ؟

بالطبع لا، بل بجبن و خسة .

إذن كـوني صريحـة وقـولي كنـت ضعيفـة تابعـة لنفسي السـيئة وهــواي الضال .

لينة لا تحكمي علي لا أريد أن اسقط من عينك .

لــن تسـقطِ أنـا لا أحكم عليك بـل أحاول تفهمـك، ممن كنت تنتقمـين بالضبـط من الابـن في أبيه أم مـن المـرأة في زوجها أم من العائلـة كلهـا في سـمعتها أم مـن كرامتـك المهانـة أم مـن الصورة المعلقة ؟

بكـت نجـلاء وقالـت مـن كل شـئ، لقـد انتقـم الله منـي ولم أفلـت مـن عقابه لكـن كان انتقامي كـردة فعل داخلية غـير إرادية أي لم أخطـط لهـا فقـد كنـت فتـاة عابثـة حـد الجنـون، لاهيـة حد الإسـتهتار، اغـترف من الحيـاة غرفـات متتالية دون أن تشـبعني .

اقتربـت منـا العاملـة بفنجـان القهـوة فأخفت نجـلاء دموعها بسرعـة وصمـت أنا .

ابتعدت المرأة وعادت نجلاء للكلام .

اتخـذ ماجد سـكرتيرة جديـدة وتركني أنـا لوالـده لكنها كانت غيـور حقـودة فتربصت لنا ثم أشـاعت عنا الشـائعات .

صححت لها بل الحقائق .

قلبـت شـفتيها وأكملـت نفثـت فيهـا وضخمتهـا وحدثـت الفضيحـة وتكلـم العمال بـل وانتـشر في الصحف رجـل الأعمال الفـلاني مع سـكرتيرته في علاقـة مشـبوهة وزلزل المصنـع ولولا تدخـل زوجتـه أي أم ماجـد لانهـار المصنـع تماماً .

نظمـت اجتـماع فـوري واحتوى الإجتـماع كل فـرد في المصنع هـرب الـدم مـن كل أنحـاء جسـدي وشـعرت بـكل ذرة فيـه ترتعـش فالويـل والثبـور لي اليـوم وسـأصبح عبرة للمصنـع كله وودت لـو أهـرب مـن المصنـع لكـن لـو فعلـت سـتثبت التهمـة عـلي واضطـررت لحضـور الإجتـماع كنـت أجلس عـلي الكرسي وكأننـي جثة لا أسـمع ولا أتكلـم ولا أرى شُـغلت بنفسي عن ما حـولي وفجـأة قالـت كل من تكلـم عن نجلاء بكلام سـئ سـيتم رفـده فـوراً نجلاء ابنتنـا نحن من ربيناهـا وآويناهـا فكيف تخوننا اليـوم سـتكمل عامهـا السـادس معنـا وبتلـك المناسـبة سـننظم

احتفاليـة وسـيتم رفـد مـن تكلم عنهـا وعن سـيده بالسـوء ومن نفـخ في تلـك الشـائعات ومـن سربهـا للصحف .

هيا للعمل ...

وأوقفتنـي نجلاء انتظـري، اليوم ننظم عشـاءاً ضيقـاً في الفيلا وأنـت معزومـة معنا احضري أمـك معك.

قاطعتها أحقاً لم تشك بكِ ؟

امـرأة بنصف ذكائها سـتصدق وتشـك فـيما بالك بامـرأة مثلها حـادة الـذكاء، حكيمـة وقويـة بل هـي من تسـير العمـل كله ولم يكـن زوجها وابنها إلا الواجهة لكنها أرادت من كل هذا أن أكون نصـب عينيهـا وتحـت نظرها وإن كنت سـأخونها فلتكن مسـتعدة بـدلاً مـن أن تأتيهـا كطعنـة غـادرة في غفلـة منهـا هكـذا فكـرت وإلى هـذا الحـل قادتهـا حكمتها أن تقربنـي منها بل مـن مراقبتها .

عـدت للمقاطعـة تمـام فهمـت فلـماذا إذن لم ترفـد الأخـرى الحقـودة ؟

مـن مصلحتهـا أن تظـل في العمـل لإنهـا تمثـل تهديـد وعداوة لي وهـو مايشـكل تنغيـص حقيقـي لي هذا مـن زاوية ومـن زاوية أخـرى هـي عـين عـلي في المصنـع إنهـا بمثابـة عميلـة لصالـح أم ماجـد وبالفعـل نقلـت لهـا كل صغـيرة وكبـيرة عنـي بـل تحـصي أنفـاسي وترسـلها لهـا أمـا الزاويـة الثالثـة هـي أي السـيدة أم

ماجد كما أخبرتك تركتني في العمل ليس لإنها تحبني بل تخشى خيانتي لها وغدري بها فليس أمامها سوى أن تقربني من جانب ومن جانب آخر تجند الأخرى ضدي وأبعدت نجلاء عينها عني وتوقفت عن تناول طعامها وإكتسى صوتها بالأسى في الحقيقة وقتها لم أفهم كل هذا فقد ألهتني غفلتي عن الفهم وأشغلني عبثي مع سذاجتي عن هدنة تفكير.

ارتشفت من فنجاني رشفة ثم قلت نجلاء هيا ليس أمامي متسع من الوقت .

فأكملت وقد تملكتها غصة أفعالها الماضية فخرج الكلام من فمها مرتجفاً مهزوزاً أواه يالينة فلن تتوقف الدائرة عن الدوران يوماً فقد حان دوري لأذق نفس الخيانة وبنفس الطريقة بل ومن نفس الكأس بالنكهة نفسها وبالطعم ذاته .

ذهبت لحضور العشاء وقالت لي السيدة اذهبي واشوي اللحم مع ماجد وبالفعل رافقته سعيدة مبتهجة وكما أخبرتك كنت غافلة تماماً عن التخطيط حولي ساذجة عن فهم أفعالي وماينتج عنها، استبدت بي السعادة وعشت أجواء احتفالية وليس مجرد عشاء عابثة مع ماجد ومع والده ضاربة بكل شيء عرض الحائط وبينما نحن نتناول العشاء الفاخر على سفرة ضخمة مصنوعة من جذع شجرة الزان جذع حقيقي حتي الشجرة لم تقطع من الأرض بل نحتت سفرة قاطعتها

نجـلاء لايسـتبد بـك الوصف ورائـي حصـة لاامتلـك الوقت .

ابتسـمت ثـم اكملـت، قـال ماجـد وهو يمضـغ قطعـة لحم آه نسـيت سـاعتي نجـلاء هل يمكنـك إحضارهـا لي .

قلت ضاحكة طبعاً.

وذهبت وأنا اشعر بنظرات غيرة زوجته تلفح ظهري .

أوه نسـيت أن أخـبرك لم تكـن نفس تلك المـرأة المعلقة صورتها بجانـب المـرآه ولم تكـن أم الطفلـين بل كانـت الزوجـة الثانية بعد طلاقـه مـن الأولى هكـذا سـمعتهم يتهامسـون في تحضير العشـاء وكنـت أنـا أرعـى الأطفـال في الفـترة مابـين طلاقـه إلى زواجـه الثـاني في الحقيقـة لايحتاجـون رعايتـي لكنهـا محـاولات لإبعادي عـن المصنع ريثـما ينسـى العمال الشـائعات،

ذهبـت للغرفـة مهرولـة فقد اشـتقت للمـرأة المعلقـة صورتها أريـد أن أرى هـل أسـتمرت بنفـس قوتهـا وعنفوانهـا أم كسرهـا الطـلاق وعبـث زوجهـا، أنظراتهـا مازالـت هازئـة سـاخرة أم خفْـت طرفها مـن جـراء أفعـال زوجهـا، وفوجئت بالفـراغ فقد أزيلـت الصـورة بحثـت عنهـا وراء دولاب الزينة فربما سـقطت، تحـت السريـر، وراء البـاب اختفت تمامـاً وكأنها لم تكـن موجودة أصـلاً، تأملـت ماخلفتـه مـن فـراغ عـلى الحائـط وتخيـلي رحـت أبـوح لـه بصمـت حتـى أنتِ بـكل ماتمتلكـين من جمـال عصفت

بـك الخيانة، وبـكل قوتك لم تصمـدِ، أين اختفت الأمـيرة المتربعة عـلى عـرش هـذه الغرفـة، وكيـف انتهـى حكمـك يا أجمـل ملكة رأتهـا عينـى هـل تصدقـين يا لينـة لقـد شـعرت بالأسـى حيالها، إذا كان هـذا مصـير أمثالهـا فكيـف بي أنـا، نفضت عـن رأسي كل هـذا وقلـت عشـت لـك سـاعة في النعيـم يـا امـرأة وغُمسـت في الـترف فلاداعـي للطمـع وافسـحي المجـال لغـيرك علهـا تأخـذ سـاعتها هـي الأخرى وتغـادر مثلـك أف الـدور القـادم على من يـا تـرى؟ نظـرت لنفـسي في المـرآة ورحـت أواسـيها أوه لا يهـم الجـمال يـا نجـلاء، يامجنونـة أمامك كل مسـاحيق الزينـة وتبحثين عـن الجـمال وانطلقـت أضـع مـن كل شـئ عـلى الـدولاب مـن كحـل لبـودر لـروج لكريـمات لطـلاء ولم اشـعر بالوقـت ولم أفق مـن سـكرتي إلا عـلى صراخ زوجـة ماجـد ألحقـوا تلـك المجنونة إنهـا تضـع مـن مسـاحيقي إنهـا تسـتخدم أدواتي كيف تجـرؤ تلك الصعلوكـة عـلى اقتحـام غرفتـي بهـذا الشـكل ودججـت الغرفة بـكل أفـراد البيـت في ثـواني وكأنهـم كانـوا ينتظـرون مثـل هـذا الحـدث بفـارغ الصـبر بـل شـككت أنـه كمـين صنـع خصيصـاً للقبـض عـلي متلبسـة بجرمـي وقهقهـت نجـلاء ضاحكة .

وكعـادة الأم قالـت لا داعـي لتكبـير المسـألة لقـد جربت فقط بعـض المسـاحيق لم تـسرق البنت شـيئاً ثـم أمنحيهم لها واشـتري غيرهـم أو ببسـاطة تخلصي منهـم في سـلة المهملات .

ردت الزوجة بانفعال للنفايات طبعاً إياكي أن تدخلي غرفتي ثانية لا أريد أن أراكي في الفيلا أصلاً .

وفعلا ملها ماجد بسرعة رغم أنها لا تقل عن سابقتها في الجمال لكن تنقصها شخصيتها ولا تهم الشخصية كثيراً فلم تشفع لها بالذات عند رجل كماجد يمل النساء كما يمل ساعاته، يغيرهن كما يغير سياراته، ويبدلهن كتبديله لملابسه فتزوج ثالثة كانت ابنة رجل ثري صاحب مصنع للسيارات .

لنترك ماجد مع نسائه ونذهب لسكرتيرته الغيور .

ذات يوم زارني أخي في المصنع لم يكن أخي وحده بل اصطحب معه صديقاً سبب الزيارة لا تسألني عنه هززت رأسي لايهم اختصري يحاصرني الوقت، نجلاء لم تستاء من طريقتي فعيني المعلقة بخيط الحكي يجعل نظراتي لاهثة متحركة وكأنني أمام فيلم متحرك أتابع أحداثه بعيني لذا فإن مكمن إستيائي هو مقاطعتي عن مشاهدة الفيلم الذي تصنعه بحكيها وأشاهده بخيالي وهذا بالتحديد بالنسبة لي ذروة الغواية ومنتهى التشويق فخيالي مرتبط ببوحها أصنعه أنا بحرية لا يمليه على مخرج ولا يجبرني على مشاهدة تمثيل الممثلين وهذا بالتحديد مايجعلني أفضل القراءة عن المشاهدة القراءة لا تقيد خيالي، لذا فنجلاء تعلم بذكائها أنها لهفة مني لحكايتها أكثر منها إستياء .

لينة أين وصلت ؟

ماذا ؟

أين شردت ؟

أها اعتذر أكملي .

تمام

هذا صديقي عماد .

أهلاً وسهلاً

أختي نجلاء

ابتسم قائلا تشرفنا..

جالوا في المصنع قليلاً وحين عادوا كنت أقف مع ماجد نتحدث ونمزح وامتد مزاحنا إلى التلامس جسدياً كضرب كفي بكفه، أو أن يسمك ذراعي بغلظة من هذا القبيل، اندهش عماد من هذا المزاح وجذبته تلك المرأة المختلفة التي تضرب بالأصول، بالتقاليد، بالأعراف عرض الحائط أكملت لها بالدين قالت لا ليس بالدين فلم يكن الدين وقتذاك قد انتشر بين العامة ولم يكن هناك وعي ديني كما يحدث الآن أصلاً لم ينتشر الدين إلا بعد السماح لبعض القنوات الفضائية بذلك فتعددت القنوات الدينية وأختلط هدفها بربحها المادي

والجشـع المـالي، لايهمنـا مناقشـة هـذا الآن حتـى لا يتشـعب بنـا الحديـث كـما أن عـماد رجل صعيـدي سـافر للأسـكندرية لإكمال تعليمـه الجامعـي والحصول عـلى بكالوريـوس تجـارة، أواه يا لينة وقـت تزوجتـه وعـادت الغصة لبوحهـا كان يسـكن في غرفة على السـطح علـق عـلى إحـدى جدرانهـا ورقـة مكتـوب فيهـا قائمـة بأسـماء دائنيـه الـذي اقـترض منهـم المـال، المهـم، قـال لأخي كم أود العمـل محاسـب في مصنـع كهـذا،

رد أخي حقاً سأكلم لك أختى .

أختك ..

طبعاً لها وضعها .

معقول .

زرنا ليلاً لتقابلك .

ولمَ ليس عصراً لايسعني الصبر .

ريثما اتكلم معها وأفاتحها بالموضوع .

اتفقنا، إذن موعدنا ليلاً .

وبالفعـل حـوالي السـاعة الثامنة ليـلاً كان في بيتنـا وأنا اجلس أمامـه ارتـدي بنطـالاً مـن الحريـر أسـود مخططـاً وبلـوزة بيضـاء مـن الدانتيل والسـتان جلسـنا قرابة السـاعة نتحـدث وانتهينا إلى

موعـد غداً الساعة الواحدة ظهـراً في الشركة وسـأدبر لك مقابلة مـع السـيد ماجد احـضر معك أوراقـك وكاد عـماد أن يقبلني من السـعادة وهـو لايصـدق أن تلـك الفتـاة ضئيلة الحجـم بمقدرتها أن توظفه وباسـتطاعتها أن تفسـح لـه مجالاً،

آه يالينة آه، يحرقني خذلانه ونذالته معي بعد كل هذا .

قلـت مازحـة يمكنـك أن تكفـي عـن النـدب الآن لنؤجلـه لوقـت لاحـق فـلا وقـت لـدي .

تمـام وفي الغـد في تمـام الواحـدة كان يقـف في مكتـب السـيد ماجـد وقـد اسـتلم العمـل .

مـرت الأيـام وعـماد يتقـرب منـي مختلـف هـو عـن رجـال المصنـع لم يكن مبتذلاً مسـتغلاً كرجـال عائلة المصنـع ولا وضيعاً سـاذجاً كأغلـب العـمال، بـل شـاب صعيـدي يعـرف حـدوده مـع المـرأة تتحكـم بـه التقاليـد ويتبـع الأصـول في تعاملـه معـي ويشـتعل غـيرة لكـوني في هـذا الوسـط الذكـوري، أحببـت هـذا الإحـترام الجديد الـذي لم أخبره من قبـل وتلك الطبـاع الرجولية التـي لم أعهدهـا مـن رجال المصنـع لم يحدث قـط أن نظـر لي نظرة مشـتهية، لم يحـدث أن يسـلم عـلي باليـد أو يمسـكني مـن ذراعي بـل لم يمـزح معـي يومـاً مزاحـاً خارجـاً قط، مهـما أغلقـت علينا أبـواب ومهـما انفـرد بنـا المـكان لم يتعد حـدوده أبداً معـي ولأول

مـرة أعامـل كامـرأة لهـا كينونتهـا وخصوصيتهـا امـرأة كاملـة محرمـة جسـدياً ليسـت منتهكـة ولأول مـرة افهـم لم أكـن أعامـل مـن قبـل كأنثـى بل كرجـل بجسـد أنثـوي لذا كنـت متاحـة فلم يشـعر أحـد بتأنيـب الضمـير أو يطـرف لـه جفـن خجـلاً فهـم يتعاملـون مـع رجـل مبتـذل مثلهـم لكـن في هيئـة أنثويـة، إذن كنت مسـخ مشـوه ليس لي كيـان امرأة ولا جسـد رجـل، غيرتني هـذه المعاملـة بـل اكسـبتني الثقـة، الهيبـة، الرزانـة وبـدأ عقـلي يسـتعيد تفكـيره رويداً بعد انسـحاب الفتـاة الطائشـة العابثة وبدأ النبـض يتخلـق في روحـي والدم يتدفـق من قلبـي وكدت أصرخ أيهـا الكـون الكبـير فلتشـهد أني امـرأة كاملـة ولمعت عـين نجلاء بالدمـوع بـل بالعشـق، وباحـت بهمـس أحببـت الرجـل الـذي خلـق بداخلي تلـك المرأة الكاملـة وانتزع منـي المتهـورة الناقصة، لا لم أحبـه فقـط بـل تعلقت بـه وجننت بـه كنت اذهـب للمصنع مـن أجلـه رغـم أنـه لم يتفـوه بكلمـة إعجـاب واحـدة لم ينطـق بحـب أبـداً وكأن قاموسـه خـلا مـن تلك الكلـمات لكـن الغيرة المشـتعلة في عينيـه كانـت تحدثنـي بـكل شـئ وهو حديـث جديد لم اسـمعه مـن قبـل لا تسـمعه أذني لكـن تلتقطـه قرون استشـعار المـرأة الجديـدة بداخـلي، تحسـه الـروح بعـد أن اصبـح لهـا نبضـاً وعـادت لهـا أحاسـيس افهمـه بذكائـي بعـد انتحـار تلـك الغبية بربريـة العاطفـة، حمـرة وجهه المشـتعلة أشـعلت بداخـلي الخجل وقتـل الحيـاء الفتـاة العابثـة مسـتبدلاً بهـا امـرأة سـاحرة تحيطهـا

هالـة مـن بهـاء وغمـوض جميـل ورأيـت نفـسي جميلـة بـل أجمـل بكثـير مـن تلـك المـرأة المعلقـة صورتها علي الجـدار بجانـب المرآة وماعـدت أغـير منها بـل ماعدت أحقـد عليها و تملكتني الشـفقة عليهـا يـا لها مـن تعيسـة محرومـة ووقتهـا فقـط فهمـت سر فمها المزمـوم ليـس لإنهـا لم تخلـق من طين بـل لإنهـا لم تخلق أبدا فشـل ماجـد في خلـق المـرأة بداخلهـا فظلت مجـرد صورة جميلـة ولوحة نـادرة، فاشـل ذلـك الرجل لـذا لم تبـق معه أيـة امرأة واكتشـفت لم يكـن هـو الملول بـل هـن الضائقات ذرعـاً به، وتلبسـت نجلاء حالـة حـب غريبـة وشردت بعيـداً ولم اشـأ أن أوقظهـا مـن ذاك الطيـف الجميـل فتركتهـا تغـرق بـين جوانحـه وأفرغـت فنجاني دفعـة واحـدة ثـم هرولـت ركضـاً لحصتي .

***

كـدت اصطـدم بمس سـلام أيـن كنـت ياهانم الحصـة بدأت منـذ خمـس دقائق .

بلهاث وأنا اكمل هرولتي استغرقني فنجان القهوة .

ووقفـت عـلى السـبورة أعـدت للفصـل نظامـه وبسرعـة قلـت اليـوم سـنتكلم عـن الهيـكل العظمـي حـاشرة عقـلي عنوة في القفـص الصـدري ليخـرج مـن قصـة نجـلاء وتـم الفصـل وتخريـج عقـلي إلى واقـع الـشرح، ومـن حصـة لأخـرى، ومـن

فـوضى لنظـام، ومـن فـراغ لإمتـلاء، وأخـيراً انتهـى اليـوم .

اسـتندت إلى سـور الممـر استنشـق بعـض راحـة، نظـرت لسـاعتي تبقـى مـن الوقت ربـع السـاعة حتى ينتهـي اليـوم فعلياً ويتسـنى لي البصـم .

لم أطـق صـبراً فقـد بلـغ بي الإجهـاد مبلغـه فقـررت أن أبصم قبـل انتهـاء الوقت بعـشر دقائق وفي قـرارة نفـسي فليخصموا من الراتـب كيـف شـاؤوا لا يسـعني الانتظار .

وأخـيراً أصبحـت في الشـارع وانتقيـت طريقـاً هادئـاً أصفـي ذهنـي المشـحون وأخـرج فيـه شـحناتي السـلبية واسـتغرقني السـكون وعمنـي النظـام بعـد بعثـرة المشـاعر وصراع حاولـت إيقافـه أو عـلى الأقـل تهدئتـه .

انتصـف الطريـق وسـمعت مـن ينادي مـس لينة مـس لينة أنه صـوت نجـلاء، توقفـت انتظـر خطواتهـا تحـاذي خطـواتي وريثما انتظـم مشـينا قالـت لمَـهربتٍ بسرعـة لم تنتظـرِ الوقت .

يكاد ضغط العمل يقتلني اشعر بأني اختنق لذا اهرب .

لينة هل أنت بخير لا يعجبني حالك .

دعـك مني أنـا بخير الحمد لله، ثم سـألتها ما أخبار عاشـقتنا ؟

ومضـت عينهـا بابتسـامة وشـعت وجنتاهـا قائلة يـا للحب!، ثـم قالـت بجديـة وشـجن لينة لمَ لايـدوم الحـب لمَ ينتـهِ بسرعة ؟

أجبـت بصـوت يخفي نبرة بـكاء فقد تذكرت هجـران زوجي، لإن هـذا حال الدنيا ليسـت دائمة .

إذن لم يدوم الفقر أو التعاسة ويدوم الشقاء ؟

ليسـوا دائمـين بالتأكيـد لكننـا نسـتعيذ منهـم نكرههـم لـذا نسـتثقلهم ونشـعر بأنهـم اسـتمروا دهـراَ لكـن الحقيقـة أننـا قـد نعيـش عشر سـنوات مـن الحـب والهنـاء ونعيش ثلاث سـنوات بتعاسـة ونتسـاءل لمَ زال الحـب ولمَ طالـت التعاسـة ؟

فعـلاً يـا لينـة وهـذا مايحـدث لي لقد دامـت قصة الحـب تلك خمـس سـنوات وكللـت أخـيراً بالزواج،وأتذكـر جيـداً أنـه بعـد العقـد (كتـب الكتـاب) ذهبـت أنـا وعـماد إلى المصنع متشـابكي الأصابـع وقـد ارتديت حجابـاً ورديـاً ومعطفاً أبيـض، وافق يوم عقـدي ارتدائـي الحجـاب وتغيير طريقـة ملبـسي ودخلت لمكتب والـد ماجـد فلم أجـده فاتجهت لمكتـب ماجد وقدمت إسـتقالتي بـارك لي قابـلا الإسـتقالة ونظراتـه تتفحصنـي صعـوداً وهبوطـا وكأنـه يبحـث عـن ذلك الشـئ الـذي وجده عـماد ولم يجـده هو .

وقال بحزن ستتركينا يانجلاء ؟

فقلت بسعادة سأصنع أسرة وسأعمل من أجلها، لن تحتاج مني شيئاً أما يكفيك عماد؟

فابتسم مجاملة ولم يعلق .

مهلاً سأقاطعك ورفعت يدي كما يفعل الطلاب في الفصل، هل ارتديت الحجاب تديناً ؟

وقتها لم يكن تديناً لكن فلسفة قلت لنفسي أنك عشت حياتك كلها ثم كللت بزوج رائع فماذا تريدين أكثر من هذا ؟

أها فهمت إرتديتيه لإنك إكتفيت من العبث، اكملي .

هزت رأسها موافقة وقالت هكذا تركت العمل وتزوجت وكنت زوجة عاشقة مطيعة متفانية بل ضحيت بكل شئ كل شئ بما تعنيه الكلمة حرفياً عاملته كابني وليس مجرد زوج كنت أجلب له أغلى الهدايا واعتاد أن يأخذ أكثر مما يعطي فأخذ مني كل شئ حبي أولاً وقوتي ثانياً وسعادتي ثالثاً واستغنى على يدي وترقى ليصبح مستشاراً مالياً في المصنع كان هو يكبر في عمله وماله ومركزه ومكانته في قلبي بينما أنا اتضاءل في قلبه و انكمش في مكاني هذا جعلني أكمل تعليم في كلية التربية المفتوحة وأخذت كورسات كثيرة في التربية وإعداد المعلم وسلكت طريقاً آخر مختلف طريق التعلم والتعليم وعرفت كم كنت جاهلة .

لينـة أتذكريـن السـكرتيرة التـي أججـت نـار الشـائعات عني تلـك الحقـود التـي أخبرتـك عنهـا هـل تذكرينها ؟

نعم اذكرها .

لقـد هجـرني زوجـي بسـببها وتزوجهـا لقـد قـال لي بالحـرف الواحـد إني أعشـقها وأكرهـك ودونـما سـبب فلا تسـأليني سـبباً لقـد وجـدت أخـيراً حبي .

قلـت هازئـة على الأقـل تعرفـين لهجرانه سـبباً أمـا أنا..أقصد هنـاك من يهجـرن دونما سـبب.

لابد أن يكون هناك سبب لكن هي لم تصل بعد للسر .

نجلاء هل دائماً الهجر سببه امرأة جديدة ؟

لا ربما الكراهية

قاطعتهـا ربـما تحملـت امـرأة جديدة لكـن إلا الكـره إنه مخيف لاحـل له .

نجلاء هل الهجر أنواع ؟

طبعاً بداية بالصمت نهاية بالجسد .

ياللهول إذن أنا ...أقصد

قاطعتني ما دخلك أنت بتلك الترهات لِمَ تسألين كل تلك الأسئلة ليعينك الله على عقلك أنه لا يكف عن التفكير لحظة واحدة ستتلف خلاياه باكراً، لينة إفهميني بعاطفتك لا بعقلك غص صوتها لكنها عادت للكلام ليست مشكلتي في زواجه الثاني إنما أشكو ظلمه لي وامتناعه عن النفقة أو عن العدل بيننا إنه لم يعد يطيق رؤيتي، لينة تعرفين أعطي طالب درس خصوصي والده متزوج من ثلاث يعامل الأولى أرقى معاملة يحفظ لها هيبتها وكرامتها وكبريائها أنه يعاملها بأنها الأكبر قامة ومقاماً وكأنها ملكة وسط وصيفاتها أما أنا فقد دأب زوجي على إهانتي وكسري بل إنه لا يراني أصلاً و كأنني لم أعد موجودة أو عدم، حتى النفقة منعها ليس عدم استطاعة وإنما إذلالاً، جرجرني في المحاكم للإمعان في إهانتي، شوه صورتي أمام المحامي الموكل لقضيتي قال إني مجنونة سيئة الخلق، حتى أمام أولادي حاول تنقيصي، حاول منعهم عني وأخذهم مني، أتراه اكتشف أنني لم أكن امرأة مختلفة بل مجرد طائشة ؟أتراه ندم الآن بعد مرور عشر سنوات على زواجنا؟ أهي مراهقة متأخرة ؟وبتوسل سألت لينة أتعتقدين أنه سيعود لي ؟

لينة هل أنت معي ؟

يابنت أين ذهبت ...

لقد كنت فعلاً شاردة في نفسي وبالكاد أسمع ما تقول ..

لكن قلت بسرعة لاشئ مستحيل .

سألت نجلاء بتبرم ماهو الغير مستحيل ؟

لا أعلم المهم لاشئ مستحيل .

توسلتني نجلاء قائلة لكنه يعشقها لقد كان يبكي لكي يكون معها .

نفضت رأسي مبعدة تلك الخواطر اليائسة عنها فقد بدأت نجلاء تشك بأمري لذا شاغلتها عني بسؤالها هل هي جميلة ؟

عينها خضراء، وجهها ملئ بالنمش وبصفة عامة عادية لكنها ناعمة الطباع .

لينة ما بكِ ؟

لاشئ، بصراحة بدأت أفكر بخبث أريد أن ألهي نجلاء عني ولايلهي المرأة سوى ذكر امرأة أخرى أمامها وبخاصة إن كانت غريمتها، ثم إن نجلاء ليست سهلة أخاف أن تطلب بوحاً مني مقابل بوح ألسنا نساء عاملات ونعرف جيداً كيف نبادل خدمة بخدمة ونقايض مصلحة بمصلحة ونرهن منفعة على حساب أخرى نسدد دين بدين فلمَ ل ايكون مقابل البوح بوح وعند هذا الخاطر

المخيف وجدتني أسأل بسرعة قبل أن تعمل نجلاء عقلها .

هل هي صغيرة ؟

أكبر مني بعامين .

تخيلي هي من تنفق عليه ببذخ وإسراف .

الحمد لله نجلاء تفكر بها، أنا في مأمن من عقلها،

هززت رأسي وقلت مؤكد عودتيه أن يأخذ وحين أفلست من كل منح ذهب لمن بمقدرتها المنح .

هل يعاقبني الله ؟

ربما، وأنت غاضبة لإنك في مرحلة العقاب وليس كونك مذنبة .

أنا لست غاضبة بل أتمنى أن يمرض عماد مرضاً خبيثاً فلا يجد أمامه غيري أحلم به يتوسلني أتمنى إذلاله كما فعل بي .

ما كل ذلك الانتقام الذي تحمليه بداخلك كيف تعيشين بكل تلك الطاقة الإنتقامية أنت تحملين بداخلك قنبلة وستنفجر فيك أنتِ، أخرجيه من حياتك تماماً بعقابه بانتقامه بذله بجرحه تجاهلي وجوده وكأنه لم يكن عيشي تلك اللحظة واستمتعي بهذا اليوم تجاهلي الماضي أجمل انتقام هو تجاهله تناسيه،هو يريدك أن تستمري في الإنتقام

والحرب لتنهكي نفسك وتستنزفي قواك، وأنت تجعليه ينجح .

هطلت دموعها غزيرة .

فقلت نجلاء هل فكرت أن الله يحبك لإنه أراد لك التغيير لو كان يعاقبك لعاقبك وأنت على حالك القديمة لكنه أنعم عليك بالتغيير ثم منحك امتحان لينظر أتستحقي هذا التغيير أم لا، أستنجحين في الاختبار أم لا .

أنت معلمة ناجحة متميزة وأم جيدة وامرأة محترمة كسبت استقلالها بتعبها وكدها وجهدها بفضل الله، كل هذه النعم حولك وتغرقك وتصرين على تجاهلها ومازلت غاضبة حانقة .

قولي الحمد لله وارضي،

الحمد لله سأركب الآن .

في أمان الله أراكِ غداً .

وحطت رحالي في أرض الوطن ووطأت قدمي سجاد الوطن وصلت بيتي وأدخلت المفتاح في الباب أية موسيقى عذبة أجمل من صوت المفتاح يدور في الباب وأية سيمفونية رائعة يعزفها هذا المفتاح، وأي عبق أجمل من رائحة بيتي، جلست على الأريكة ممدة الساق مفتوحة الذراعين وكأنني احتضن جنتي،

خلوت إلى جهازي وأخذت امزج الواقع بالخيال، اخلط البوح والاصغاء، اصهر الضعف في القوة، يتعاقب الغضب والرضا، يتعانق الانتقام والتسامح، أخلط نوازع النفس بين نفور وانجذاب، يتفاعل الكره مع الحب، اتأرجح بين علو التبسيط واهبط إلى عمق التعقيد،تتجاذب الصور إلى الكلمات، وتزقزق الأحرف على السطور، وترتصف الأوراق متحدة مترابطة .

***

بسبب أن تعاملاتي كلها تقريباً مع نساء عاملات فطنت لنظرية غريبة، نظرية وليست فروض أعي ما أكتبه جيداً فأنا معلمة علوم وأفهم الفرق بين النظرية والفرض فالفرض قد يحتمل الخطأ والصواب أنه في طور التجربة بعد،أما النظرية فهي صحيحة لإنها نتاج التجارب وقد أثبتت صحتها المهم خلصت إلى أن النساء خلقن للوقر فهن صاحبات كلمة (وقرن)، جُعل لهن البيت وطناً، كل خلية من خلاياهن تحب المكث فيه والسكنى إليه، جدرانه جنتنهن وغرفه آمانهن، إن أي امرأة في الكون تحمل في روحها طفل وترأس بعقلها بيت و في قلبها تخفي رجل هذا هو الثالوث السري والمفتاح الأزلي لأي امرأة مُوَقرة، ولو سألتها صفي لي وطنك لقالت ببساطة ودون عناء تفكير سقف يظلني ورجل آوي إليه وأطفال

يتقافـزن حـولي، لكـن وككل جميـل هنـاك قبيح يسـعى لتشـويهه فـلا يتفضـل الجميل عـلي القبيح، ولا يُسـتهجن على القبـح قبحه، هكـذا نُغـص علي المـرأة وطنهـا وانتُزِع منـه الأمان وشـنت عليه حرب شـعواء تحت شـعارات براقـة، وهمية، مزيفـة أو حتي بريئة وتـم زعزعـة اسـتقرارها وتلويـث وقارها.

وإن كان ذلـك ماجُبلـت عليـه المـرأة فالشـوارع والضجيـج والركـض للمواصـلات أو الحـشر فيهـا وصراعـات العمـل وضغوطاتـه لاتليـق بطبيعتهـا .

فهـل انتـصرت النسـاء لأوطانهن أم خـسرن في المعركـة ؟ هل انقسـمن وعاشـت بينهـن الفتـن لزعزعتهـن ؟هل بدلن مـا آمنت بـه أسـلافهن طواعيـة واقتناعـاً أم أنهـن أجـبرن ؟هل تـم التغرير بهـن أم هـن مـن سـهلن السـبل لذلـك ؟ هـل اخترن الهـرب من أوطانهـن أم أُجـبرن ؟ وهـل هـن سـعيدات بالهـروب أم يتُّقـن لأوطانهـن ويتلهفـن لوقارهـن ؟ هـل حققـت المـرأة أنوثتهـا وأنجـزت مـا تريـد أم تاهـت في دروب اللجـوء وفي غياهـب ذاتهـا الضائعـة ؟ أحقـاً ارتفعـت حتـى وصلـت لطموحهـا أم ضيعـت نفسـها وقـد ألتبس عليهـا ما تريـد ؟ هل أبيـدت الهوانم وخرجـت مـن رفـات قبورهـن النسـاء العامـلات ؟

بالمناسـبة لسـت ضـد عمل المـرأة ولا ضـد تعليمهـا وتنويرها أنـا امـرأة عاملـة ومتعلمـة ولسـت بصـدد الحديـث بشـأن تلـك

القضايـا التـي أعـرف أنهـا سـتفتح أبـواب الجـدال العقيـم واللغـط العجيجـي وأنهـا قُتلـت كلامـاً وتنظـيراً كـما أنني لسـت في موقـع يخولنـي للفُتيـا فأفتـي بتحليـل الأمـر من تحريمـه لكني فقـط أؤمـن بـأن عمـل المـرأة حالـة اضطراريـة وليسـت وضـع طبيعـي وأن وجودهـا في العمـل ماهـو إلا نـوع مـن اللجـوء لاجئـة الاضطـرار كلاجئ الحـرب وإيماني هـذا ليس مـن منطلق عقـدي أو دينـي وليـس مـن منطلق إصلاحـي نضـالي أو حقوقي ولا مـن منطلـق مصلحـة مـا أنشـدها فأخلق لهـا قوانـين توافقها ولا حتـى مـن منطلـق مزاجـي وهـوى شـخصي كل مـا في الأمر أن هنـاك قاعـدة تربويـة تقـول إن التربيـة ماهـي إلا مجموعـة من خـبرات متراكمـة ومواقـف متراكبة وحزمـة من قـرارات خاطئة أوصائبـة وعـادة تكـون موجهـة مقيـدة و نتائجهـا تتحكـم بنـا ومـن نتـاج هـذا يصبـح لدينا بشر أو إنسـان لـذا نحن متشـابهون في إنسـانيتنا مختلفـين كل الإختـلاف في خلفياتنـا التربويـة أو الخبراتيـة، ربـما نحـن متشـابهين في انتسـابنا لنفـس الديانـة لكـن نظـل مختلفـين في أخلاقنـا ومعتقداتنا،لـذا كتابتـي في عمـل المرأة ليسـت مجـرد وجهة نظـر سأسـميها تجربة مـررت بهـا وأحب أن اشـارككم نتائجهـا ويناسـبني هـذا المسـمى كـوني معلمـة علوم، أو ربـما هـي حيـاة كاملة لامـرأة عاملـة وأحببـت أن أسردها عبر روايـة ويناسـبني هـذا أيضـاً لإني احيا تحـت ضغط مـروادة حلم الكتابـة، وربـما هـي مجـرد محطـة هـروب وحالة لجـوء ويناسـبني

هـذا المسـمى أيضـاً لكـن لـن أقـدم تفسـيراً فهـو موجـود بـين طيـات السـطور وتقلبـات الأوراق، وكل يتخـير مـن المسـميات مـا يروقـه ويناسـب هـواه، سـأكتب عـن هـذه التجربـة بحيادية وأحـاول أن أكـون منطقيـة ولك أن تؤمن بما سـأ كتـب أو ترفض لسـت مجـبراً على الاقتنـاع بهـا في النهاية يسـعدني أنك تقـرأني ...

لجـأت لمدرسـة خاصـة أعمل بهـا معلمـة باختصار أنـا امتهن التدريـس حصلـت عـلي بكالوريـوس يؤهلنـي لتلـك الوظفيـة التـي لم أحلـم بهـا يومـاً وإن كنـت بحكـم التقليـد احيانـاً أري نفسي معلمـة بخاصـة أنني تلقيت كل سـنين دراسـتي المدرسـية في السـعودية وتربيـت عـلى يـد معلـمات سـعوديات و المعلمـة هنـاك لهـا هيبتهـا ومكانتها التي تشـبه مكانـة الدكتـورة عندنا لذا لم أمانـع أن أراني وقـد اعتليـت تلـك المكانـة بخاصـة وأن هنـاك معلـمات سـعوديات أحببتهـن وكـن يمثلـن تلـك المكانـة خـير تمثيـل بشـخصياتهن الراقيـة وملابسـهن الفخمـة وسـلوكياتهن المهذبـة ورواتبهـن العاليـة، وربـما بحكـم الوراثـة كـما سـأوضح هـذا لاحقـاً أو ربـما بحكـم القـدر أضحيـت معلمـة واكتشـفت مؤخـراً أن أقدارنـا أكثـر مصداقية وتفهـماً من أحلامنـا والأخيرة كثـيرًا مـا تتعـارض مـع الأولى، وحـده المحظـوظ من وافـق وقع قـدره مـع هوى حلمـه، في أواخر مراهقتـي كنت دائمـة العند مع قـدري كثـيرة الهروب منـه لكنني قـد تصالحت معه واستسـلمت

لـه لـذا آمنـت بكـوني معلمة بـل وأحببـت ذلك وظهـرت بجلاء إمكانيـات المعلمـة البارعـة التـي حاولـت قتلهـا كثـيراً في حـربي الخـاسرة مع قـدري.

لم يكـن عمـلي إثبـات للـذات أصـلاً نحـن نعمل لنهـرب من ذواتنـا، وليسـت الحاجـة الماديـة هـي السـبب فهنـاك حاجـات أخـرى نأمـل تحقيقهـا مـن خـلال العمـل أكثـر إلحاحاً مـن مجرد الحاجـة للمادة،كـما أن الحصول على إسـتقلال مادي لم يكـن وارداً في ذهنـي ولا أعلـم لم الإسـتقلال دائـماً مرافقـاً مع المال لمـاذا ليس اسـتقلال نفـسي، أسري، تعليمي، ذهني أو حتـى عاطفي، كما أن قضـاء وتزجيـة الوقـت ليـس هـدفي مـن العمل فـلا أمتلـك كثير مـن الوقـت فأقـضي عليـه، ولم يكـن العمـل مـن أجـل تحصيـل خـبرة أو الاسـتفادة مـن سـنوات تعليمـي الطويلـة كل تلـك الأسـباب لم تـرد في خاطـري وقـت أن سـاقتني قدمـاي لتقديـم أوراقـي في مدرسـة السـلطان الخاصة بل كنـت مطـاردة والمُطارِد هـو حلمـي طالمـا حلمـت أن أكتـب، وبالفعـل كتبـت مقـالات ونُـشرت ولكـن لسـبب ليس المقـام مناسـباً لذكـره توقفـت وقد تملكنـي إحبـاط ويـأس بيـد أن الكلـمات ظلـت تتأجـج بداخـلي وتحرقنـي الحـروف علّهـا بإيلامـي تتحـرر، كنـت أتـألم وأردت وضـع حـد لآلامي ولما لم أجد سـبيلاً لخلاصي مـن الحلم المجنون إلا الإنهـماك في عمـل (أي عمـل)لجـأت لـه، و بالفعـل انتهـي بي

المطـاف لدوامـة وطاحونـة العمـل آملة في أن ضجيجـه وضغطه سـيلهيني عـن تزاحـم الكلـمات وصراعهـا بداخـلي لكنـه عـاود إشـعال الحلـم الـذي حاولـت إخمـاده بـل أصبحـت الكلـمات أكثـر شراسـة وبـتُ اكتـب كل يـوم أفـرغ شـحنات العمـل في الكلـمات حتـى أنني حـين ابتعد عـن الكتابـة أفقد اتـزاني وثباتي، ربـما هـذه هـي الضريبـة التـي يعانيهـا مـن يسـتطيع أن يكتب أن يظـل مطـارداً مـن الكلـمات لا يهـدأ لـه بـال حتـي يسـطرها على الـورق تقـض مضجعه ليحررهـا، ترهقـه وتجرحـه وإذا ماحاول حبسـها بداخـل صـدره وإغتيالهـا فيـه انتقمـت منـه بمطاردتـه كشـبح لايعـرف الموت وبينـما أعـدو في طريقي الهـارب تعرقلني جثـة حلمـي فتُدمـي روحـي حنينـاً لـه ويشـتعل قلبـي شـوقاً ويصرعقـلي عـلى إحيائـه، ويفشـل العمـل في إغراقـي وأفشـل في هـربي فالكاتـب ليـس مـن حقـه الهـرب يعجـز عـن الخضـوع لهدنـة الإحبـاط واليـأس فالكلـمات لن توقع لـه تلـك الهدنة، ولم أكـن الوحيـدة الهاربـة في العمـل بـل وجدت كثـيراً مـن هاربات ولاجئـات العمـل مثـلي مـن مشـاكلهن، أقدارهـن، وحدتهـن، آمالهـن، ذواتهن،خيباتهـن لكنـي الوحيدة الهاربة بسـبب حلم ...

وليـس معنـى هـذا أنهـن ضعيفـات فالهـرب قـد يكـون قـوة في كثـير مـن الأحيـان ولا أبالـغ إن كتبـت أن الهـرب في أغلـب الأحيـان شـجاعة لايمتلكهـا الـكل جـرأة لايقـدم عليهـا إلا

المضطر فإن كان حُكم القدر قد نفذ فمن العبث الوقوف في وجهه ومن الجنون التصدي له ولا ضير بشئ من مكر وحيلة نرواغ بها أقدارنا ونهرب منها فالحياة ماهي إلا ساحة متاعب ونحن منها بين كر وفر لم نخلق للمتعة والراحة بل خلقنا لنكد ونشقى، ولم نخلق لنستسلم فالإستسلام جبن بل خلقنا لنحاول والحياة مجرد سلسلة من المحاولات ومن الطبيعي ألا تنجح المحاولات دائماً، الهزيمة هي التوقف عن المحاولة، ربما أكتب هذا لإني امرأة ورثت القوة وتحمل جيناتي طباع العنفوان والكبرياء فجدتي آسية التي رفضت الفرعونية وهربت منها إلى الإيمان رغم علمها التام بنتيجة قرارها، هربت حاملة الإيمان بقرارها نِبراساً يضئ طريقها الوعر،مولية ظهرها لقصر وفرعون، رافعة يدها بطلب أنثوي خالص (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) البيت المطلب الأنثوي الأبدي ترى لمَ لم تطلب قصراً؟

لا أحب أن تُفهم كلماتي بأنها دفاع عن المرأة أو تحشر في زاوية هجوم على الرجل إنما هي قلق وهموم امرأة بثتها على الورق وعذابات وآلام أم تحلم بتعليم أفضل لأولادها وتطالب لهم بحياة، وأخيراً إرهاق معلمة عاملة أرهقها العمل وأنهكها واقع مخز للتعليم فقد أضحى معول إفساد وسيف مُسلّط على الرؤوس وأداة للتعذيب،

مدرسة السلطان الخاصة...

إنها كأي مدرسة خاصة في مصر أو كأي قطاع خاص هدفها تجاري ومسعاها ربح مادي بحت، مشروع استثماري بالدرجة الأولى لذا فإن المدارس الخاصة لم ولن تقدم للتعليم شئ يذكر أو قيمة مضافة بل كل ما تفعله هو بعض الحماية التي توهم بها أولياء الأمور والتي لا يستطيع التعليم الحكومي توفيرها فقد عجز عن حماية مكانته وسمعته مسبقاً فكيف بحماية التلاميذ بعكس المدارس الخاصة التي تعي تماماً ما تعنيه كلمة سمعة فهي رقم واحد لجلب الزبون وهي المعول الرئيسي لإرضائه حتى لو كانت سمعة ساهم التزييف والتمثيل كثيراً في صناعتها ولا ضير في ذلك فالمهرجين والممثلين كُثر فلمَ لا يتم استغلالهم عبر حاجتهم لوظيفة يشبعون بها رمق برستيجهم أو مظهرهم الإجتماعي بعد أن خذلتهم الحكومة في توفير حق العمل لهم وحمايتهم من غول البطالة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تستنزف الناس مادياً عبر استغلال حاجتهم التعليمية والتي تقاعست أيضاً الحكومة في توفيرها فما كان منهم إلا كالمستجير بالرمضاء من النار يتناوب في افتراسهم فكي تمساح بين الإهمال الحكومي أو الابتزاز الخاص وفي كلتا الحالتين لا يدفع الضريبة سوى المواطن وأبنائه فهو يدفع من جيبه وينفق من راحته وأبنائه يدفعون من تحصيلهم

الـدراسي وحاجتهـم التعليميـة وحقهـم مـن التربيـة لإن تلـك المـدراس لا تقـدم حتـى تعليم جيـد إذا قورن هـذا بالمَبالـغ المُبالغ فيهـا التـي تسـحبها من جيـب ولي الأمر والـذي غالبـاً يضطر في النهايـة إلي سـلك طريـق الـدروس الخصوصيـة بعد أن يكتشـف عـدم جـدوى أو نتيجـة مـن المدرسـة علّـه بذلـك يواجه الحشـو المتعمـد للمناهـج وعـدم اسـتيعاب ابنائـه أو ربـما خُيـل لأوليـاء الأمـور أنهـا (أي المـدارس الخاصـة) الحـل السـحري لنجـاح باهر،والأدهـى مـن ذلـك أنهـم يعلمون جيـداً إمكانيـات أبنائهم فيدفعـون ثمـن لإنجاحهـم ولا أقتنـع بنجـاح دُفـع ثمنـه، و ربما يُسـكتوا بهـا ضمائرهـم الأبويـة ناحيـة أولادهـم متبعـين مقولـة اسـتثمر في ابنـك رغـم عـدم قناعتـي بتلـك المقولـة فهـي تجعـل الإسـتثمار حكـراً في المـال أو المـادة وهـذا هـو الـسر الحقيقـي في فسـاد الأخـلاق واهتراء هـذا الجيل الـذي أفرزته تلـك المقولة أو بالأحـرى تلـك القناعـة فالتربيـة بحـد ذاتها اسـتثمار والمـادة هي جزء أو مجرد سـبب من ضمن أسـباب كثيرة ولا ينجح الاسـتثمار بالجانـب المـادي وحـده بـل لا تنجـح التربيـة بالجانـب التعليمي وحـده وهـذا مـا يفسر الإهمـال الفظيـع الـذي عانيـت منـه مـن تلاميـذ المـدارس الخاصـة المُسـتثمر بهـم وعـلى كل الأصعدة تجلى هـذا الإهمـال سـلوكياً، أخلاقيـاً، دينيـاً، بـل حتـى عـلى مستوى النظافـة الشـخصية، ويصبـح التعبـير الأصـدق لأربـاب تلـك المـدارس لنسـتغلك مـن أضعـف موطـن وهـو ابنـك، وأوليـاء

الأمــور في أغلــب المــدارس الخاصــة لا يدفعــون ثمــن تعليــم أبنائهــم بــل ثمــن فشــلهم فهــم (الطلاب)أصــلاً متــدني الكفاءة العقليــة فهكــذا الطلاب في مدرســتي وصلــوا للإعدادية ولاتفهم لهــم خطــاً وكتاباتهــم تعــج بأخطــاء إملائية فادحــة، كــما أن المعلم في كثــير مــن الأحيــان ليــس مؤهــلاً تعليميــاً فمثل تلــك المدارس تقبــل خريجــي حقوق وتجــارة (مــع احترامي)بل ربــما أحياناً تقبل معهــد عــالي لإن تلكــم الفئــات تــرضى بالراتــب القليــل معتمدة عــلى الوجاهــة الاجتماعيــة التــي تحصلهــا مــن وراء هــذه المهنــة والمــال الــذي تجنيه من الــدروس الخصوصية التــي تغض الطرف عنهــا المدرســة وهــذا من مصلحتهــا حتــى لا يُطالب المعلــم برفع أجــره فهــو وبالرغم مــن أنه العــماد إلا أنــه الأبخس حقــاً والأقل راتبــاً وكأنــه شــحاذ لأنــه يأخــذ دون أن يعطــي والأخــذ والعطاء تبعــاً للــمال طبعــاً، أليســت هــذه الغاية من تلكم المشــاريع المســماه مــدارس فالمعلــم خســارة لتلك المــدارس فهو يأخــذ وهي تفضل مــن يعطــي ولذا فهــي تنهــك المعلم تأخــذ منه أضعــاف أضعاف الفتــات المُســمى مجازاً راتــب ولــك أن تتخيــل أن راتــب المعلــم يبــدأ مــن ستمائة جنيــه في المــدارس المحترمــة وبأقل مــن ذلك في الأغلــب ولا يصــل لألــف جنيــه إلا بطلــوع الروح وبعدد ســنين طويلــة والــشرط الأخــير لايتوفــر كثــيراً لإن أصحــاب المــدارس يتحكمــون بمصائــر المعلمــين فالرفــد يتــم لأتفــه الأســباب والأســباب التافهــة كثيرة ومتعــددة وبالتالي فبدلاً مــن أن يطالب

المعلـم بحقـه مـن صاحـب المدرسـة والـذي قـد يرفـده ينهـش في ولي الأمـر عـبر الـدروس الخصوصيـة بأرقامهـا الفلكيـة فهو الآخـر يزرح تحـت عبء الحيـاة ومتطلباتهـا فالمعلم بـشر من لحم ودم يعيـش في نفـس ظـروف الحيـاة التـي نعيشـها ليـس كائنـاً مـن المريخ ثـم تتفضـل عليه تلـك المشـاريع الربحية بأنهـا وظفته ولهـم بعض الحق أليسـت هـذه الوظيفـة تضمـن إعلانـاً مجانياً له وتمنحـه الحظـوة بثقـة أولياء الأمـور ؟ إنهـا دائرة مغلقـة محصلتها صفريـة، وإن كان الكيـل قد فاض بي إلا أننـي كنت أواسي نفسي كاذبـة بـأني في حاجـة للممارسـة أولاً والخـبرة ثانيـاً فهـما عاملان مهـمان بجانـب الشـهادة الجامعيـة بل همـا مـن يعززانها..

وللحياديـة فالمـدارس الخاصـة أيضاً ضحية نظـام تعليمي، إن النظـام التعليمي في مصر يشـبه مبنـى متهالك متداعـي بينما هناك أنـاس يحفـرون تحته، فلا يُهـدم ولا يُبنى بـل يُخرب وهنـاك قاعدة تقـول إن أردت أن تبنـي فأهـدم أولاً ولا أعلـم مـا سر كل هـذا التعقيـد، إن أي منظومـة تعليميـة في العـالم أساسـها جملـة واحدة (أهـداف يحتويهـا منهـج يحققهـا معلمـون مؤمنـون بهـا) إنتهينـا حقـاً الأمـر بهذه البسـاطة ثـلاث كلمات هـم دعائم نظـام التعليم أهـداف «منهـج» معلـم، الأهـداف تقسـم إلى نوعـين قصـيرة وطويلـة فمثـلاً تحدد أهـداف للصـف الأول الإبتدائـي وأهداف للمرحلـة الإبتدائيـة ككل الأولى قصـيرة والثانيـة طويلـة، وأيضاً

وضعها في غاية البساطة هدفك من تلميذ الأول الإبتدائي معرفة الحروف العربية بحركاتها القصيرة وبضع كلمات، إتقان أرقام الحساب مع القدرة على القيام بعملية جمع وطرح بسيطة، وتحتاج منه أيضاً معرفة دينه ولإن الطفل سريع الحفظ طيع الإمتلاء بالمعلومات لذا ضع هدف أن يحفظ نصف جزء عم لو هو مسيحي يحفظ أجزاء من دينه، انتهينا من الأهداف القصيرة نأتي للطويلة الهدف من المرحلة الإبتدائية إتقان القراءة والكتابة والعمليات الحسابية وحفظ أجزاء من الكتاب المقدس وما كانت أهداف إبتدائية العقاد بأكثر تعقيداً مما كتبت وأنتجت عبقرية العقاد مذ زمن ونحن نخرج أجيالاً وأجيالاً من الإبتدائية وعجزنا عن تخريج عقاد ثاني،

نأتي للكلمة الثانية المنهج، المنهج أيضاً يقسم لمنهجين قيمي أخلاقي عقدي اختر ماشئت من المُسميات ومنهج تعليمي الأول يتلخص في الدين والثاني يتلخص في المعلومات كالعربي والحساب والعلوم والتاريخ، ولابد أن يكون المنهج متكافئ مع العقلية التي وضع لها وأن يخلو تماماً من الحشو فكما أن البدعة في الدين تمحي سنة في مقابل وجودها أيضاً الحشو يهدم الأساسيات فليس من المنطق أن يدرس تلميذ الثاني إبتدائي في منهج الحساب أو الرياضيات الوحدات القياسية وكيفية تحويلها ومن ضمن الوحدات التي يدرسها

الباونـد والبوصـة وهـي في النظام الأمريكـي لا المصري لا أعرف مـا لهـدف مـن هـذه المعلومـة لطفـل لايتجـاوز عمـر عقله سـبع أعـوام ولا أظـن أنـه سـيتعامل مـع سـائح أمريكي ليعـرف تلك المعلومـة والمنهـج ملـئ بتلـك الترهـات التافهـات ولـو تكلمـت عنهـا وأفـردت لهـا مسـاحة مـا وسـعني لا الـورق ولا الجهـد ولاصـبر القـارئ سـأختصر وأقـول مناهجنـا التعليميـة تحتـاج إبـادة، هـدم وبنـاء مـن جديد .

ثالـث كلمـة المعلـم ومـا أدراك مـا لمعلـم لـن أتكلـم كثـيراً حتـى لا أُحـشر في زاويـة الإنشـاء المكرر وأقـع في فخ المُحسـنات البلاغيـة البديعـة بـل سـأختصره في جملتـين ليعطـى المعلـم حقـه المـادي، وليخلـص المعلـم ضمـيره لله .

هـذا ببسـاطة ملخـص النظـم التعليميـة وليـس الأمـر صعباً وأنـا أستسـهله وليـس عظيماً وأنـا أسـتصغره بل هو فعـلاً هكذا بوضـوح وشـفافية أمـا الغمـوض والمتاهـة والدوامة التـي نعيش فيهـا ونعـاني ويلاتهـا كل يـوم ماهـي إلا مخطـط وخدعـة لايعلم مـاوراءه إلا الله عـز وجل .

أعود لمدرسة السلطان ...

تقع مدرسـة السـلطان التـي أعمل بهـا في مكان نائـي بمنطقة العجمـي والعجمـي هـذه ليسـت كـما تصورهـا الأفـلام بأنهـا

مجـرد قطعـة اسـكندرانية سـاحلية تتراص عـلى سـاحلها الأزرق الخـلاب فلـل أنيقـة بـل العجمـي أعقـد وأعمـق من مجـرد كونها سـاحل، فهـي أرض عربيـة احتلهـا الإسـكندرانيون بمعنـى أن قاطنيهـا الأصليـون هـم مـن البـدو الرحـل، مـن أيـن رحلوا بالتحديـد تتضـارب في إجابـة هـذا السـؤال الروايـات بعضهـم رحلـوا مـن ليبيـا وبـلاد المغـرب العـربي واسـتقروا عـلى طـول سـاحل الأبيض المتوسـط من مطـروح إلى الأسـكندرية بالتحديد غـرب الأسـكندرية وبعضهـم رحـل من فلسـطين وبلاد الشـام ومـروا بسـيناء راحلـين إلى الأسـكندرية ماريـن بالشرقيـة، لـذا تجـد بعضهـم ببـشرة سـمراء وعيـون سـوداء كحيلـة وحواجـب عريضـة وأنـف معقوفة قليلاً كالشـكل النمطي للعـربي وبعضهم أشـقر ملـون العينـين تتوهـج بشرتـه بحمـرة خمريـة جميلـة لكـن الفريقـين يشـتركان في الطبـاع فهـم قـوم متطرفـون في الغضـب ويغضبـون لأتفـه أتفه الأسـباب لـذا لا عجب أن تشـتعل حرب داحـس والغـبراء لسـبب مـن تفاهتـه يُتنـدر بـه وإذا غضبـوا اشـتعلت معـارك بالأيـدي والأصـوات والألفـاظ، تتحكـم بهم العنصريـة فهـم عظيمـوا المفاخـرة والمباهـاة وحتـى إن كان الأمر لايسـتدعي الكثـير مـن المفخـرة وتولـد معهـا الغـيرة فتجري في دمائهـم فـلا أحّـد مـن غـيرة العـربي، يلتجـؤون للقـوة كحمايـة لهـم وبالرغـم مـن هـذا لا يجـدون أنفسـهم أقليـة بـل يفرضـون نفسـهم فرضـاً في المجتمـع فهم يحبـون البلطجـة واقتناء السـلاح

فـإن كان مسـيحيو مـصر يعشـقون التعليـم لإنه الحامـي الأوحد لأقليتهـم فالعـرب يحمـون أقليتهم بالقـوة وفرض السـلاح وربما هـي سـجايا وجينـات أكثـر مـن كونهـا مجـرد أقليـة أو حمايـة لذا لايخلـوا لهـم بيـت أو محـل أو أرض مـن سـلاح بداية مـن المطواة نهايـة بالكلاشـينكوف، جُبِلـوا عـلى الترحـال والترحـال لسـت أقصـد بـه التنقـل مـن مـكان لمـكان بـل مـن حـال لحـال فهـم كثـيرو التملمـل لا يحبـون الخضـوع لنظـام فـلا تجدهـم يعملـون في المؤسسـات النظاميـة لـذا فإن الطـلاب العرب كثـيروا التغيب عـن المدرسـة تحكمهـم الأصـول والعـادات أو التقاليـد، وإذا احتاجـوا باعـوا الأرض أو ربـما لإن التجـارة تجـري في دم العربي فـإن لم يجـد مـا يتاجـر بـه فليتاجر بأرضـه لـذا لا عجـب أن تكثر المـدارس الخاصـة في منطقـة العجمـي بـل أن جـل مـدارس الأسـكندرية الخاصـة تقـع في منطقـة العجمـي مـن البيطـاش ثم الهانوفيـل امتـداداً للكيلـو الواحـد والعشريـن لتنتهـي في منطقـة أبـو تـلات أو بـرج العـرب فـالأرض كانـت تبـاع رخيصـة لـذا لا عجـب أن تكـون مدرسـتي التـي أعمـل بهـا في هـذا الموقـع النائـي لـذا لابـد لها مـن ميـزة أو أثر خاص وسياسـة مميـزة تجعل الأهـالي تُقبـل عليهـا ثـم أن لكل مدرسـة خاصـة زبونهـا وزبائن مدرسـتنا متدينـين لـذا تـم إلباسـها زيـاً دينيـاً وقبلوا بهـا معلمات يرتديـن النقـاب ليكتمـل الديكور الإسـلامي لها مما جعل معظم مـن ينتسـبون لهـا مـن التلاميـذ أوليـاء أمورهـم مـن المتدينـين

مطمئنين أن أولادهم لن يتعرضوا لما يخالف الدين في شئ، الموسيقى ممنوعة ليست بالكلية، الأعياد البدعية ممنوعة كعيد الأم وشم النسيم والموالد وأعياد الميلاد ورأس السنة رغم أنه تم الإحتفال بأعياد ميلاد بل حتى المدير احتفل بعيد ميلاد ابنته لكن هذه أشياء تحدث في الكواليس فقط دون السماح لها بالظهور، الألفاظ السيئة والشتائم البذيئة يرفد صاحبها فوراً وكل ماكتبته آنفاً مميزات وليست عيوب لكن للأسف هذا لايعدو كونه ظاهرياً فقط أما الداخل فوحده الله العالم بخبثه ولولا عقيدة قوية ألتجئت إليها لسقطت في بحر لجي من الفتن والاضطراب بل قد وصل بي الأمر أن كدت أفقد الثقة في كل من يظهر بمظهر إسلامي رغم أنني أرتدي زياً إسلامياً خالصاً ولكي أحمي نفسي الفتنة كنت أعريهم من هذا المظهر وأتعامل معهم كبشر تعتريهم عوامل النقص والخطأ وأنه لا كامل إلا الله وأننا جميعاً بشر فينا الخيّر ومنا الشر، نمتلك الرحمة وتتملكنا القسوة وتتحكم بنا الأنا، نهتدي أو نضل، نخطئ ونصيب، وبسبب احتكاكي بأصناف من البشر في العمل ومتناقضات عجيبة وازدواجية غريبة، وصلت لنضج في فهم البشر فأصبحت أتفهمهم بدلاً من أن احكم عليهم، أنظر إلي دواخلهم دون أن تخدعني مظاهرهم، اسمعهم بدلاً من التنظير عليهم، إلا الظلم لم أستطع أن اتفهمه حاولت بكل طاقاتي أن أعذر وأغفر لصاحبه فلم أقدر على ذلك اجتهدت

في فهمـه والغـوص بدواخـل مرتكبه فلـم أنجح في تغيـير عقيدتي في أننـي لن أسـامح الظـالم مهما كان حجـم ظلمه صغـيراً أو كبيراً فالظلـم لايخضـع لقانـون الحجـم ولذا كنـت أتحسـس في تعاملي مـع طـلابي كنـت أتلمـس العـدل في الدرجـة، المعلومـة، الكلمة بـل والنظـرة حتي الإبتسـامة واللمسـة،

يبـدو أن الكتابـة اسـتغرقتني أو الثرثـرة فنحـن معـشر النسـاء تغرقنـا الثرثـرة دون أن نشـعر ضـف إلى ذلـك أني معلمـة وكل مهنـة تـترك طابعهـا الخاص عـلى ممتهنهـا ونحن معـاشر المعلمين نتكلـم كثـيراً كثـيراً (نرغي) فنحـن أربـاب المقولة التكـرار يعلم الحـمار لـذا لا مانـع إن ظللنـا نعيـد المعلومـة ونزيـد في الـشرح ونفيـض في التوضيـح دون أن نمـل آملـين أن نصـل لبغيتنـا إمـا الفهـم أو الحفـظ فلتتحمل ألسـنتنا وليعـين الله مـن صديقه معلم وليكـن الصـبر حليف قارئـي ...

***

اليـوم هـو يـوم الأحـد أنه أشـق أيـام الأسـبوع على نفـسي أنه بدايـة الشـقاء بدايـة أسـبوع غيبـي يعلـم الله وحـده مـا يخبئـه من أحـداث كـما أن هـذا اليـوم أبـدؤه بحصتـين متتاليتـين للصـف الثالــث الإعــدادي وهتفــت بداخــلي يــارب ليكــن إبراهيــم غائبـاً اليـوم لكـن للأسـف لم يسـتجب دعائـي لكنـه ظـل طوال الحصتـان صامتـاً لم يكـن صمتـه أدبـاً بقـدر ماهـو حزنـاً ربـما

تعترضـه مشـكلة مـا، شـعرت أنـه ينتظـرني اسـأله عن مـا حل به فليـس مـن الطبيعـي حالتـه تلـك، لكننـي تجاهلـت عـن قصد لا أعلـم لمَ أردت إذلالـه وكأننـي أنتقـم بداخـلي عـن تلـك الإهانـة السـابقة التـي وجههـا لي.

في نهايـة الـدرس طلبـت منهـم إخـراج الكتـاب المـدرسي والـشروع في حـل التماريـن ذاتيـاً وسـأقيمها بالدرجـات تحمـس الطـلاب وبـدأوا في الحـل، جلسـت عـلى المكتـب بصمـت أراقبهـم متحاشـية أن تسـقط عينـي عـلى إبراهيـم فهـو يحاصرني بطلبـه وسـؤاله الإسـتفهامي إسـألي عن حـالي، أنا هـو الرجل هنا أنـا مـن حقـي أن أتدلـل وأطالـب وإنتـي تنفـذي،

قلـت بصـوت عـالي وبصيغـة الأمـر هيـا مـن انتهى مـن الحل أريـد أن أرى عبقـري الفصـل .

نظر إبراهيم للكتاب أمامه .

وقفت أتمشي بينهم ثم أقتربت من إحدهم أفسر له شيئاً .

ناداني إبراهيم مس لينة .

ينطـق إسـمي بطريقـة مثـيرة ناعمـة تجعلني أخشـى ما سـيأتي بعده .

نعم .

هل حلي صحيح .

انحنيـت على الكتـاب أرى حله لكـن نفس النظرات المشـتهية إخترقتنـي فاشـتعل وجهـي إعتدلت سريعـاً وأنـا أكاد ألطمه على وجهـه لكننـي رفعـت الكتـاب إلى وجهـي بدلاً مـن أنحنـي إليه وأخفيـت وجهـي أنظـر لحلـه وعقـلي كـما الدينامـو يبحـث عـن طريقـة لكنـه توقـف فجـأة حـين قـال إبراهيـم بصـوت خفيض كأنـه يحـدث إحـدى فتياتـه وهـو يغازلهـن، مـاذا تريديـن مني ؟

أجبـت بسرعـة وكأننـي أنتظـر السـؤال أكـما تريـد أي معلمـة مـن طالب .

وماذا تريد المعلمة من الطالب ؟سأل مدعياً الغباء .

أن تهتـم بدروسـك، تحـل واجباتـك بانتظـام، باختصـار أن تذاكـر .

عاد لنفس نبرته أتتوقعين مني أن استجيب لما تقولين ؟

كرجل لا أتوقع منك عكس ذلك .

أنا رجل قالها بحدة ولا أحد باستطاعته نفي ذلك .

الرجولة تحمل مسؤولية وليس مجرد انتماء .

وماهي مسؤولياتي ؟

دراستك هي مسؤوليتك .

قال ساخراً بخبث أها تقصدين أن الرجولة أفعال لاأقوال وضحك .

تجاهلت ما قال رغم أني عدت للأشتعال وقلت بهدوء وأنا أنظر للكتاب إجابتك خاطئة حلك للمسألة ناقص أعد قراءة التمرين بتركيز وانسحبت سريعاً إلى الطالب التالي طلبت منه أن يريني ماحل لأوقف على إبراهيم الطريق إلى المزيد .

رن الجرس حملت دفتر تحضيري وفتحت الباب وأنا أكاد أختنق باحثة عن شهيق .

يارب العالمين كيف أخبره أني لست أنثى وهو ليس ذكر بل هو طالب وأنا معلمة ما هي تلك الوسيلة التعليمية التي أوصل له بها، اللعنة على كتب التربية، في الدول الأجنبية هناك مدربين متخصصين في ترويض الكلاب وتدريبهم وتخفيف حدة شراستهم ونحن نحتاج أن نكون مروضين نحتاج كتب في فن الترويض وأساليبه تدرس في كليات التربية بصراحة كلية التربية في وادٍ وواقع التدريس في وادٍ مختلف، وكأن كلية التربية في المريخ وواقع التدريس على الأرض وما يُدرس في المريخ لا يصلح تطبيقه على الأرض .

وقفـت مسـتندة إلى بـاب الفصـل منتظـرة رن الجرس فسـيرن بعـد دقيقـة بالتحديـد، كنـت أقـف منهكـة فسـاعتين إلا ربـع في فصـل الصـف الثالث الإعـدادي أنهكتنـي تماماً ولا أعلـم إلي أين شرد عقلي،

بعـد إذنـك يـا مس هـل يمكننـي الدخـول، كان هذا الأسـتاذ هشـام معلـم اللغـة العربية .

جفلـتُ وكأنه أمسـكني بجـرم ووقعت عيني في عينـه بطريقة غـير مقصـودة فوجـدت فيها بريـق غريـب لم أفهمه شـئ غامض لا أصـل إليه .

قلت بتلعثم تاركة مكاني تفضل .

وهرعـت هربـاً إلى كهفـي المنعـزل المعمـل .نظـرت للسـاعة المتحلقـة حـول معصمـي تسـع وأربعـين دقيقـة إذن تأخـر عـن حصتـه خمـس دقائق وأسـتغرقني عقلي تفكـيراً إن هـذه ثالث مرة ينظـر لي ذات النظـرة الغامضـة المُبهمـة التـي لا أفهمهـا في البداية لم تُعنينـي تلـك النظـرات أمـا وقـد تكـررت فأصبحـت تلفـت إنتباهـي إنـه وكمن يتسـاءل هـل ستسـمرين في العمل هنـا إنه لا يناسـب رقتـك وذلك الترفـع المتأصل فيـك إنه يتسـاءل ويبحث عـن إجابـات وتزداد أسـئلته شراسـة ونهـماً وإلحاحاً حينما يتسـلم منـي فصـل إبراهيـم يبـدو أنـه يفهمـه في النهايـة هـم رجـال

يفهمـون بعضهـم جيـداً ربما يشـعر بـما أعانيـه ونظراتـه اللحوح تسـأليني ألم تتعبـي بعـد هـل تصريـن عـلى خـوض غـمار الحرب حتـى النهايـة أنـه ببسـاطة ينتظر إستسـلامي ربـما ليس تشـفياً أو شـماتة أو عـداوة عمـل بـل مجرد توقـع ينتظـر حدوثه فمـن يصبر مثـلي عـلى مدرسـة تحـوي بلطجيـة في هيئـة تلاميـذ وعصابـات تختفـي في سـتار الفصـول بخاصة أننـي أدرس تلاميـذ عرب وفي مرحلـة الإعداديـة وهـي مرحلـة ليسـت سـهلة إنهـا تحـدي لأي معلمـة بخاصـة لتقـارب الأعـمار بينهـا وبـين طلابهـا، في الحقيقة لم يكـن عمري سـببًا بـل وجهي الصغـير وملامحـي الطفولية مع ذلك الجسـد المحتفظ بتناسـقه سـاهموا في الخديعة فأنا ثلاثينية وأم لكـن هـذه الحقيقـة أخفيت ببراعـة تحت مظهـري الصغـير الذي منحـه الله لي، كـما أن سـلوكياتي وتصرفـاتي وملابـسي لم يتغيرا مذ كنـت طالبـة في الجامعة، معاطفـي الكلاسـيكية الطويلة، قمصاني البسـيطة، أحذيتـي الرياضيـة، حجـابي بألوانـه الهادئـة، وعـدم وضعـي لأي مسـاحيق عـلى وجهـي بل حتـى حاجبـاي لم أطلهما بشـئ بـل ظـلا عـلى عهدهمـا الطفـولي وربـما هـذه هي الأسـباب التـي جعلت كل من يتعامـل معي يسـتغرب أني متزوجة وأم ....

وحتـى لا أُجـن مـن التفكيرغرقـت في الكتـب كنـت أملأ بها مكتبـي في المعمـل، فتحـت رواية امرأة مـن روما لألبرتـو مورافيا في الصفحـة الخامسـة والسـبعين بالتحديـد وقـد اسـتطاعت أن

تخرجني مما أنا فيه يا للكتب تسكرنا عن الواقع تبعدنا عنه بلذة خمر معتقة وجلست بهدوء أسكر من كتابي أرتشف منه على مهل رشفات محمومة أخرج من عبث التفكير إلى أمان القراءة .

***

أشارت عقارب الساعة للرابعة عصراً حينما رن هاتفي المحمول وقد تداعيت على الأريكة بدعة، تجاهلت رنينه فمن ذا الذي سيتصل بي في هذا الوقت لا لم يكن هذا هو السبب الحقيقي لكن أنا انتظر مكالمة منه وهو أعلن المقاطعة وما فائدة الهاتف إن لم ينتقل عبر أثيره همسات المحبين وأحزنني أن هاتفي بعد المقاطعة تحول لأداة لإنهاء المهام أو إبرام مصالح أف تلك الحياة المادية بوتيرتها الجافة السريعة لا تُناسبني، يا للهول أشعر أن كل ذرة في تشتاق إليه لا ليس مجرد إليه بل لكل ذرة فيه لكل تفاصيله بالأخص تلك التفاصيل المتعلقة بصوته، سعاله، نحنحته، زعيقه، شخيره، ضحكاته، ندائه، أوامره، تحكماته، أوه أي جنون هذا أكره زعيقه وتحكماته وأوامره والآن أحن إليها وأتلهف عليها وهتفت إنه الشوق ياعزيزتي لايعرف للمحب عيوباً، عاد الهاتف للرنين يا لك من جهاز مزعج لن تكف ما بال الحياة بدونك وقمت بتكاسل إلى الهاتف نظرت بلا مبالاة للشاشة واتسعت عيني

وأرتجفت كل ذرة في جسدي وارتعشت أصابعي وألصقته بأذني ...

وسمعت صوته القوي أخيراً ..

قائلاً أهلاً ...

وعاد لساني لخرسه ...

لما لا تردين ؟

وكادت الدموع تخنقني أكتم صوتها بداخلي ...

لينة هل أنتِ بخير ؟

أنهيت المكالمة مسحت الدموع من صوتي وأعدت للساني إتزانه بسرعة وقبل أن أنتهي من هندمة مشاعري ارتفع الرنين العذب مرة أخرى ...

وعاد صوته لينة لقد ...

قاطعته بسرعة فقد استرد صوتي قوته وثباته، وقلت بمقدرتي أن أبرر قسوتك وأتفهم ظروفها لكن ثق تماماً أن غفرانها خارج حدود مقدرتي ليس بوسعي غفران هجرانك المذل لي.

ضحك بلا مبالاة لا يهم أن تغفري الآن، أعرف أن الزمان كفيل بأن يغير من موقفك العنيد هذا .

جرحت لا مبالاته كبريائي فسألت ساخرة ومن أين لك بكل هذه الثقة ؟

لإنك تفهمتي من البداية، العاجزون عن الغفران هم الذين يعجزهم الفهم وينقصهم التفهم أما أنت فلا ينقصك ذلك، وأكمل ساخراً ثقي في الزمن سيغير هذا على الأقل سيذيب عنادك في عدم المغفرة .

قاطعته باستنكار ولمَ أنا من يقع على عاتقي الغفران لمَ لا تغفر لي أنت ؟

ليس من شيمي، لينة سأتركك الآن المدير يريدنا وأغلق بسرعة .

أف وكدت أن ألقي بالهاتف ليصطدم بالحائط وتهالكت على الأريكة أبكي ضعفي المكبوت ..

بعد ساعة جلست إلى جهازي أكتب ..

***

مس سارة...

اللاجئة الرابعة ...

بينـما أشرع في فـض بوحهـا بالكلمات تخيلـت أن لهـا أنيناً وأن للأحـرف نحيبـاً وأن للجمـل أصواتـاً وأن أسـطري لـن تتحمل كل هـذا الكـم المجنـون مـن الألم،السـخي من الشـجن ...

في البدايـة لم أكـن أعـرف سر ذلـك الخيـط الحريـري الرفيـع الـذي يربط بـين روحينا، ليسـت الأرواح المتآلفة هي السـبب،ولم يكـن التشـابه وحـده كافيـاً لهـذا الانسـجام الغريب الـذي يلوح بـين روحينـا وإن آمنـا بالقاعـدة العلميـة التـي يخضـع لهـا الكون والتـي تقـول أن كل متنافـر متشـابه وكل مختلـف متجـاذب وأن كل متنافـر كـي يتجـاذب لابـد مـن قـوة أخـرى تعاكسـه فتجبره عـلى هـذا التقـارب فالإلكترونـات السـالبة التـي تـدور حـول النـواة في مسـارات إهليليجيـة بينهـا قـوة تنافـر هائلـة والتـي من قوتهـا بمقدرتهـا بعثـرة الإلكترونـات خـارج مسـاراتها وإشـاعة فـوضى هائلـة داخـل نـواة الـذرة ولـذا لابـد مـن وجـود قـوة أخـرى تخضعهـا فكانـت القوة الطـاردة المركزيـة والتي تنشـأ من الـدوران، وحتـى الكهربائيـة الجويـة إنـما السـبب فيها يعـزو لهذا التجـاذب والتنافر بـين الأيونـات، الأرض وأخواتها الكواكب في رحلـة دورانهـا حول الشـمس أيضاً تخضـع لهذا القانـون العظيم،

يـارب الأربـاب لا أعرف لمَ أعجـز عن التحكـم بثرثرتي ولمَ لا أكف عـن التحدث كمعلمـة علوم ..

المهـم شـعرت أن بيني وبين سـارة قـوة خفية تقتـل ذاك التنافر بيننـا الناشـئ من تشـابهنا ربما لـذا اتخذتها صديقـة نتـزاور ونتواد ولم أعلـم ماهيـة تلـك القـوة إلا حـين بثـت لي جوانـح روحهـا وفتحـت لي مغاليـق قلبها ...

فقالت ..

أنـا خريجـة حقـوق دعمتـه بدبلومـة في التربيـة لتسـمح لي بالعمـل معلمـة في المدرسـة، نشـأت في السـعودية وبالتحديـد في مدينـة الريـاض وكادت تفلـت مـن فمـي صيحـة تعجـب لكني كتمتهـا حتـى لا أقطـع حبـل الـسرد، بـل ولـدت فيهـا وهنـاك تربيـت في مجتمـع بـدوي أولاً عـربي ثانيـاً مسـلم ثالثـاً لايعي من الصراعـات شـيئاً تاركهـا عـلى الله فهو ولـد يرعى الغنـم ويعيش كراحـل في الصحـراء الجـرداء فنزلـت مـن السـماء عليـه رسـالة الاسـلام ومعهـا الكتـاب ومـن الأرض تفجرت تحت قدمـه آبار النفـط فأصبـح البـدوي الأمـي صاحـب كتـاب وعلـم وانقلـب الفقـير الأشـعث بفعـل البترول إلى غنـي مـترف دون جهد جهيد منـه لـذا فهـو مؤمـن بالفطـرة تـاركاً بلاءاتـه ومصائبه بـل وحتى أفراحـه للقـدر لا يحمـل هما لها ولايغتـم منها إلا بالقدر الإنسـاني الـذي جُبـل عليـه البـشر، وبسـبب النفط وفـد لهـم الوافدين من

كل أنحـاء الكـرة، بعضهم لخدمتهم كل أنـواع الخدمات بداية من الخدمـة المنزلية نهايـة إلى الخدمات الإنشـائية العمرانيـة، والبعض الآخـر يعلمهـم كمعلمـين مـن كل أنحـاء العـالم بداية مـن معلم المدرسـة نهاية بمعلـم الجامعة، والبعـض الثالث لمدواتهـم كأطباء وصيادلـة ولقـاء هـذه الخدمـات كانـوا أي الوافدين لتلـك البلاد يتكسـبون لقمـة عيشـهم ويعيشـون حيـاة كريمـة لـن توفرها لهم بلادهـم فهـي تلفظهـم فيبحثـون عـن أخـرى حتى لـو لم ترحب بهـم فهي ستفسـح لهـم مجالاً وكـما يقـول القائـل رزقنـا ورزقكم عـلى الله، ثـم أنـه مجتمـع عـربي أصيـل يحمـل في جيناتـه الصفات والخصـال العربيـة التـي لم تهجـن بهجـين أجنبي فظلـوا على تلك الطبـاع مـن غـيرة ونخـوة وكـرم وتكتم وتحفـظ شـديدين بل قد تصـل للغمـوض يحترمـون خصوصيـات بعضهـم بعضـاً برغـم أنهـم بـدو إلا أن الأصول والخصوصيات لا يقبـل أن تنتهك تحت أي ظـرف ولأي مسـمى ومـن هنا تربيـت على تلـك الخصال، ثم إنهم شـعب مسـلم لكنه مسـلم موجـه متحكـم به فهـم يأخذون الديـن كمنهج نظـري لا فعلي، كنـصي لاتطبيقـي أو تطبيقي الجزء لا الـكل، والـدي أحسـن تربيتنـا أو اجتهـد بقـدر طاقتـه وفهمـه أن يحسـن تربيتنـا لكنهـا تربيـة بعيـدة عـن الواقـع بـل انعزاليـة تمامـاً عنـه، أخـي الأكبر رجـل ديـن أو كما نطلـق نحن المسـلمين عـلى رجـال الديـن شـيخ أو داعيـة نـال شـهرة واسـعة حقيقيـة لم تكـن للسوشـيال ميديـا يـد فيهـا فقـد حظـى بالشـهرة وهـي

نفسـها لم تـزل مغمـورة فلـم تشـع الشـهرة إلا مؤخـراً فكانت له برامـج تليفزيونيـة، سـفريات في مؤتمـرات اسـلامية، نـدوات في جاليـات مسـلمة في بـلاد المهجر، وخطـب في مسـاجد، وأشرطة وفيديوهـات مسـجل عليهـا صوته الرخيـم العذب للقـرآن حتى أصبـح النـاس يتهافتـون للصـلاة في المسـجد الـذي يصـلي فيـه، ويتزاحـم الشـباب في رمضـان لإقامـة التروايح ورائـه، ويعتكف النـاس عـلى سـؤاله فتواهـم وهكـذا ذاع صيتـه وتعـدت شـهرته واشـتهرنا معـه فأصبحنا أخـوات الداعيـة حتى كنـت إذا عرفني أحـد لا يقول اسـمي بل أخت رجـل الدين الفـلاني، وإن كان لنا حظـوة في حـرم المصـون المسـماة شـهرة فأيضـاً لنا نصيب الأسـد مـن متاعبهـا وبلاءتهـا، المهـم تقـدم لي أحدهـم ولأننا نؤمـن بأن كتـب الكتـاب (العقد)أوثق مـن الخطوبة حيـث أن الخطوبة وعد ويتلاعـب بالوعـود كثيراً في زماننـا هذا ولكي نثـق في الوعد فإننا نحولـه لعقـد وهكذا تـم العقـد وبسـذاجة أن البنت تحـل للعاقد عليهـا فقـد سـمح لنـا والـداي بالخلـوة معـاً دون أن يطـرأ عـلى بالهـم ماقـد يحـدث جـراء هـذا وبغفلـة مني وعـدم فهـم صحيح للأمـور تـم الدخـول دخـولاً كامـلاً دون إقامة عـرس أو زواج كنـت صغـيرة وقتهـا بالكاد أبلـغ الثامنـة عشر لم أكـن ناضجة ولم تكـن لي تجـارب بالحيـاة ولا حتـى ثقافـة تعينني على فهـم دواخل البـشر وحـين انتهى منـي قـال الحمد لله،

سألتها لمَ يحمد الله ؟

زوت بين حاجبيها مجيبة لإنه تأكد إني بكر،

قاطعتها وقد استفزتني الإجابة هل أنت مجنونة أعدم وسيلة للتأكد بها سوى تلك.

بل لقد فهمت مؤخراً أنه قد خطط لكل هذا .

أتقصدين تبعاً لنظرية المؤامرة؟ ألإنه حاقد على أخيك فانتقم منه فيك ؟

هزت رأسها نافية لا ليس تبعاً لنظريتك تلك، أخبرتك أننا عشنا شطراً كبيراً من حياتنا في السعودية والمرء على من يعاشر لذا فقد كانت أسرتنا شديدة الإنغلاق، متحفظة حد الغموض،شديدة التدين لا تقبل فيه تهاون وكنت أنا وقتذاك أخطو أعتاب السابعة عشر وأتوا بشاب قالوا لي هذا حِل لكِ ففجرت فيه كل طاقاتي المكبوتة وكل عواطفي المغلقة وكل تهوري الملجم وانتقمت من التكتم والتحفظ وكأنني سجينة فكت من سلاسلها حرة من الأرسنة والأسرجة وتبعاً للعقيدة التي أعتقدتها وللتربية الخاطئة أن الزوجة لابد أن تكون مطيعة خاضعة لزوجها فلم أرد له طلب بل تفننت في إغوائه واستعراض أنوثتي وكان هو يصر على استغلالي متهيباً من تلك الزهرة المتفتحة التي نبتت في هذه التربة المقيدة المنغلقة

كيـف لهـا أن تجمع كل هـذا التناقض، لذا فإنه بجانب الاسـتغلال قـد تآكلـه الشـك أكيـد أننـي معيوبـة كيـف لـكل هـذه الفتنـة والإثـارة و الغوايـة أن تجتمعـا مـع الانغـلاق والكتـمان والتحفظ ؟وبحـث عن إجابـة لسـؤاله بتلك الطريقـة، مع الوقت تكشـف لي صفـات أخـرى غير الشـك الاسـتغلال الأنانية واللـؤم أو ربما كـما يقولـون حـين انجلـت الغشـاوة ظهـرت الحقيقـة وانتهـى فصـل الغوايـة وبـدأت نـيران الكراهيـة تلتهمني طلبـت الطلاق وأصررت عليـه في ذلـك الوقـت كان لي صديقـة لهـا أخ وكلمنـي مـرة عـبر المحمـول وسـمع أبي المكالمة فظـن أني أريـد طلاقاً لإني أحـب أحدهـم فرفض الطـلاق وأبرحـت ضربـاً تقريبـاً من كل رجـال العائلـة من أعمامـي وأخوالي وأخـواني الذكـور وقوطعت تمامـاً وضحكـت سـارة حتـى أغرورقـت عيناهـا بالدمـوع فـما كـدت أعـرف أهـي دمـوع فـرح أم حزن ثم عـادت للـكلام دون هدنـة وكأنهـا تلفظـه لفظـاً مـن داخلهـا، ومـع إصراري وعندي خضـع أبي لكنـي فوجئـت أن الرجـل لايريـد طلاقـا فتنازلت له عـن كل شـئ وتـم الخلع،

إذن لم تأخذِ شيئاً لا نصف المهر ولا كله ؟

فأكملـت ولا حتـى ثمنـه أواه يـا لينـة كانت مجرد نـزوة حلال وانتهـت تلـك النـزوة أو الفضيحـة وبـدأ الزمـن يحـاول طيها في تجاعيـده وإخفائهـا في طياتـه لكـن كلـما تقـدم عريـس عـادت

الفضيحـة تلـوح في الأفـق، والداي يطلبـون منـي أن اكتفي بقول مطلقـة لكننـي أقول وتـم الدخول دخـولاً كاملاً فيجـن والداي ويهـرب الرجـل دون عـودة وتكـرر السـيناريو الصراحـة التامـة مـن جهتـي والتقريـظ مـن أهـلي والفـرار مـن جانـب المتقـدم، حتـى أحـضر لي أخي عريسـاً بـل الصحيـح أن أخـي أحضرني له فلسـطيني الجنسـية سـعودي المولد والمنشـأ مثلي فأبوه فلسـطيني وأمـه مصريـة وكان زواجي منه غريبـاً زواج عبر البريـد أو النت فهـو في السـعودية أرسـل لـه أخـي صـوري وأرسـل لي صورتـه أعجبنـا ببعضنـا وتمـت الموافقـة مبدئيـاً ثـم تمـت خطوبـة أيضـاً بنفـس الطريقـة، قاطعتهـا أيـة طريقة ؟

يعنـي كنـا نتعـارف عـلى بعضنـا عـن طريـق الحديـث في الانسـتجرام أو الواتسـاب بـشرط أن يكـون أبي أو أخـي بجانبي وأضافـت لـزوم وجود المحـرم واتفقنا علي ميعـاد للعقد حضرت والدتـه إلينـا في مصر وحـين علمت بقصتي جنـت وكاد الموضوع ينتهـي لكـن ابنها رفـض قائلاً أنـا راضي ولا يهمني المـاضي برمته يعجبنـي حاضرهـا ولا آبـه بماضيهـا فاحتـدت والدتـه وكيـف سـتثق في مسـتقبلها ؟ أتركـي موضـوع الثقـة لي أنا مـن أقرره وفي النهايـة بعـد مشـادات ومهاتـرات ومـداولات وافقـت أمـه على مضـض وتكشـف لي لمـا وافقـت، لقد كان الـزواج حفـرة وقعت فيهـا ولا مخرج .

مس لينة هل أكملت كتابة بوكليت العلوم ؟

كانت تلك مس سلام المشرفة .

تبقـى لي درس الجهـاز الـدوري رسـم القلـب عـلى برنامـج الـوورد يعجـزني ...

والشيتات هل انتهيت منها .

نعم .

أحضري لي الفلاشة أريد مراجعة البوكليت .

حاضر .

سـارة مس سـلام تخـبرني ببسـاطة لاتثرثري وعلي شـغلك لذا سـأنطلق الآن وذهبت إليها.

جلسـنا أمـام الكمبيوترأنـا ومـس سـلام نراجـع البوكليـت محاولـة اسـترداد شـتات عقـلي الشـارد .

قالـت مـس سـلام كريـات الـدم الحمـراء ليسـت مرسـومة بشـكل جيـد،

أجبـت نعـم مشـكلتها لم تـرص جيـدا بجانـب الكريـات البيضـاء والبلازمـا وبـدأت مـس سـلام تعيـد ترتيبهـا ورصهـا،

أحب فكرة الرص رص الحجر ليصبح جدارا منيعا، رص الغرز لتنسج ثوبا، رص الكلمات لتخلق جملا، ورص الجمل لتبدع سردا، رص التلاميذ ليكتمل تابورا، رص المعلومات لتنشأ ثقافة .

لينة هل لديك مشكلة مع الحياة ؟

لما ؟

أنت ذكية وقوية في الخارج لكن هناك شئ يتآكلك من الداخل .

وذعرت لا أحب لأحد أن يتفرسني .

صمتنا حينما دخل الأستاذ هشام الغرفة حاولت أن أمنع توهج عيني واشتعال وجهي حينما تفحصني بعينه وتجول بنظراته على وجهي تجاهلت نظراته برغم أن داخلي يحترق ويفهم هو ذلك و يؤلمني هذا الفهم حتى مس سلام شعرت بنظراته وكدت أقول احترم عينك وغض طرفك لكن الكلمات جفلت على شفتاي واختنقت الحروف في فمي فهربت بروحي من الغرفة وهربت لأجالس روح سارة .

أنها من تلك النوعية من البشر التي تخرج أسوء الظروف وأقسى الأقدار منهم أنفس الطباع وكأنها ذهب لا يلمع إلا بشدة إحتراقه وقوة النار المسلطة عليه واستبد بي الجنون

فسارة من النساء صاحبات الشخصية القوية ليس من السهل إقناعها، من الصعوبة إخضاعها،كيف استغفلها هذا الرجل وكيف له إحكام خيوط جريمته دون أن تفطن هي لمخططه فلا ينقصها الذكاء، أعرف سارة جيداً ثم إنها جميلة فهي فارعة الطول، رشيقة القوام، متناسقة الملامح، خمرية اللون يمتزج توهجه القاني بدفئه الهادي، أنيقة الملبس، راقية الذوق بل المدرسات يسمينها الكوافيرة لشدة اعتنائها بنفسها واعتزازها بقدراتها هي لم تخطأ في ميزان الشرع لكنها أخطأت بميزان العرف وهو يعلم أن العرف لن يغفر لها إيذائه وبرغم من هذا فهي قاومت الخطأ ولم تستمر رغم إلحاح والدها تزوجيها لأسبوع واحد أو لشهر ثم الطلاق قائلاً أعدك بأني سأكون عوناً فمطلقة بعد الزفاف أهون من مطلقة بعد العقد وهذا لا ينطبق إلا في حالات الاستثنائية كحالة سارة، ماالذي جعلها تكرهه كل هذا الكره لدرجة أن تخسر سمعتها وحقها المادي بخلعة ثم مستقبلها، ووجدتني أتحامل على الرجل بل على أهل سارة لم يؤدوا واجبهم في حماية ابنتهم في النهاية هي صغيرة قليلة خبرة وحنكة فأين قوامة والدها المتمثلة في حكمته وقوامة أخيها رجل الدين المتمثلة في توعية أخته وتثقيفها ...

لينة تعريف القلب ناقص ...

تمام سأعيد كتابة الجهاز الدوري ..

تمام غداً سأستلم منك البوكليت .

أمهليني أسبوع .

لك أسبوع لكن سأخذه على الطباعة فوراً .

اتفقنا ...

وخرجت من الغرفة كانت سارة لا تزال تقف على سور الممر تتفرج على الباحة هذا هو الظاهر أما الواقع أنها غائبة في دهاليز الماضي واجترار ذكرياته لإني حين اقترحت عليها أن نشرب فنجان قهوة لم ترد إلا حين حركت يدي وهززت ذراعها وسألتها أين هربت ؟

فأجابت في غرابة الحياة كُتب علينا التيه في دروبها ودواماتها أتراها تسمح لنا بإلتقاط أنفاسنا وتلميم بقايا شعثنا ؟

أتركينا منها ودعينا نرتشف فنجان قهوة ...

في طريقنا للمطبخ رأيت هشام يقف مع إحدى طالبات الصف الثالث الإعدادي في الحقيقة أجملهن لا أعلم لمَ شعرت بالغيرة إن كان ينظر لي فلا داعي أن يتحدث مع أحد غيري أو ينظر لأحد غيري لا أعلم كنه المشاعر التي انتابتني أهي غيرة نتاج حب أم تملك أو احتكار أو غيرة تحيز وفرض سيطرة أم

غـيرة خـوف مـن أن ينسـحب البسـاط من تحـت قدمـي ويفرش معطـراً مزينـاً لأخـرى أهـو تنافـس وليـس مجـرد غـيرة هوجـاء، وتأكـد لي فيـما بعد حقيقـة عجيبة ولا أعلم كيـف تقبلتها آنذاك...

طلبنا من العاملة فنجاني قهوة وجلسنا على الطاولة ..

ماذا تريد منك مس سلام ؟

البوكليت، الانتهاء منه .

ألم تنتهِ منه بعد ؟

يقاتلنـي الوقـت، امتحـان ابنتـي الأسـبوع القـادم وواجبـات البيـت مـع إنهـاك العمـل لا وقـت لـدي اشـعر وكأننـي مُقطعـة لأجـزاء .

غمغمت سارة أفضل من الجلوس في البيت ...

بصراحة أوافقك ماعدت أطيق الجلوس في البيت ..

قاطعتني أو ربما هو ماعاد يطيقك فتهربين منه ..

هزرت رأسي ربما ..

أكملي ...

وقبـل أن تفتـح فمهـا جـاءت مس ربـوة (سـوبر فيـزر أيضاً) وقالـت لي مـس لينة أنـتِ اليوم لديـك الحصة السـابعة إحتياطي

للصف الثالث الإعدادي امتعضت ملامحي حقاً الموت أهون علي من تلك الحصة الاحتياطية بالكاد أتحملهم في حصة العلوم من غاب اليوم ؟

ليس غياب بل إستئذان .

من طلب الإذن .

مستر هشام

الغريب أني شعرت بالحزن بداخلي عليه وكأنني لا أحتمل فكرة وجودي في المدرسة إلا بوجوده بل لا أحتمل وجود المدرسة من دون وجوده، و لعنت نفسي ما لذي يحدث لي، بداخلي شئ يتغير لست أعي مايحدث لكن حقاً أشعر كأن شئ غامض يتكون في روحي ويتخلق بفؤادي دون وعي مني شئ يحدث في غفلة تامة مني.

ضرب الجرس فقمت متنهدة تاركة فنجاني في الحقيقة لا أريد أن أجلس مع سارة بمشاعري تلك أشعر أن عيني تفضح ما يعتمل في صدري وأنها تكشف إضطرابي وإنفعالات جوانحي، حبست دموع حاولت تتصاعد من شدة ضغط الإنفعالات المتضاربة المتنافرة الفائرة بداخلي وطوال مشي في الردهة الطويلة المؤدية للفصل وأنا أحاول السيطرة على مشاعري، منظر الطلاب المتكومين أمام الباب أخرجني

سريعـاً مـن دهاليـز ذاتي المضطربـة، وفـور أن لمحـوني صـاح بدر(مسـاعد القائـد) البرنسيسـة قادمـة وبحركـة مسرحيـة مـن يـده قـال تفضـلي يـا أمـيرة .

لاأعلـم كيـف بـدل إسـتقبالهم مشـاعري وحلـت محلهـا إبتسـامة خجـلي ووجنتـان ورديتـان وشـعور غريـب بالعظمـة شـعبي يريـدني .

حـين دخلت الفصـل كانت المفاجـأة إبراهيم غائب فاتسـعت إبتسامتي،

جلسـت عـلى الطاولـة الأولى متجنبـة الجلـوس عـلى مكتـب المعلم لأرسـل لهم رسـالة ضمنيـة أنا في هذه الحصة لسـت معلمة بقـدر مـا أنا أريـد الحديـث إليكـم وبالفعـل بـدأوا يحدثونني عن جامعتـي ولمـا أخترت أن أكـون بالـذات مُعلمة علـوم لما إخترت دراسـة العلـوم وتشـعب الحديـث بنـا حتـى الجامعة وأية أقسـام فيهـا يطمحـون إليهـا وأخبرتهـم بمقتبسـات عـن مجتمـع الجامعة وسـمعت أمنياتهـم كان بـدر أكثرهـم حماسـة لكنـه محبطـاً قائـلاً أتمنـى أنـا أدرس في إحدى البـلاد الأجنبية لا أريـد العيش في هذه البلـد صدمنـي إحباطـه في النهايـة هو مـازال طفـلاً في الإعدادية وإحباطـه رجوليـاً جـداً، فقلـت أنـت أمامـك المسـتقبل متسـع ومازلـت خاليـاً مـن المسـؤوليات فـما الـذي يضايقـك ويحبطـك لهـذا الحد ؟

ابتسم بمرارة وقال يامس ألا تري مايحدث من حولك ؟

أدار وجهـه وصمـت أفكـر في سـؤاله ولسـت وحـدي الذي إسـتغرقني التفكـير بـل عم الفصـل هدوء قلـق مسـتغرق لكنني قلـت لأخـرج التلاميـذ مـن حالتهـم تلـك، ياه مـا أجمـل الفصل دون إبراهيـم كنـت أقولهـا مـن قلبـي فقـد شـعرت إني وطـدت حكمـي وأنـه بوجـوده يعيـث في مملكتي إفسـاداً .

وتنهـدت بغبطـة وسـعادة فقـد نصبـت أمـيرة اليوم لـن أنسَ يـوم تنصيبـي مـا حييت .

***

مـا توقفـت الأرض قط عـن دورانها حول محورها وباسـتمرار دورانهـا مـا توقف، تعاقـب الليل والنهـار وتوالت الأيـام وحان دور الخميس ...

وأكملت سارة قصتها ...

تزوجـت مـن سـامر وسـافرت إليـه دون زفاف ودون فسـتان أبيـض مطلقـة تتـزوج مـرة ثانيـة فـلا داعـي للمظاهـر والبهرجة كان هـذا رأي أهـلي واكتفيت بفسـتان سـهرة من الحريـر الأزرق المطعـم بالدانتيل كان بسـيطاً أنيقاً وارتديت فوقه عباءتي السـوداء وسـافرت استـقبلني في مطـار الملك خالـد الدولي بالرياض شـئ مـا في قلبـي ارتجـف أنـه الوحيـد مـن يسـتقبلني بعـد أن أغلـق

الجميع أبوابهم في وجهي حتى أهلي لم يصدقوا أن يخلصوا من عاري، غريبة وهو أهلي، تائهة وهو ملاذي، تلك الأجزاء المهشمة من روحي وجدت من يجمع شتاتها ويجبر كسرها، كل تلك المشاعر تكومت في روحي لحظة أن رأيته في المطار كان هو يشعر بالزهو والخيلاء إنه يستقبل أنثاه شئ ما تحرك فيه شئ في المطار له وحده، أستطيع أن أخبرك أن لحظة المطار هي بداية حبي له، ذهبت إلى أهله في الفيلا عشنا معهم حوالي ستة أشهر لكنني لم أستطع إكمال الحياة مع أهله، ليسوا مثلنا أنهم مختلفون لذا لم أستطع التأقلم معهم وعجزت أمه عن تقبلي لذا قررنا استئجار شقة مفروشة والعيش بها، هنا بدأت اكتشف أن زوجي ليس مجرد مدخن عادي بل مدمن .

أف مدمن بالتدخين قاطعتها متعجبة .

بل يتعاطى بكل شئ بالإبر،بالبودر، بالحبوب كل شئ تقريباً أشفقت عليه وحاولت مساعدته بكل شئ تجود به طاقاتي فعلت كل ما بوسعي كل شئ قد يطرأ في مخيلتك اتصلت بهيئة مكافحة المخدرات في السعودية وطلبت منهم أن يساعدوني بعلاجه لكنهم أخبروني أنه مادام لايتطور الوضع لإيذائك أو التعدي عليك أو السرقة ومادام منتظم لعمله فلاداعي لتدخلنا لإن الأمر يعتبر شخصي لكن إن تطور وخرج إلى إطار ايذاء من حوله هنا يمكننا التدخل، باءت

محاولتـي بالفشـل عـدت للمحاولة معـه لكنه يأبى الاعـتراف أنه مدمـن إن الاعـتراف هـو أول مراحل العلاج وهـو لا يريد علاجاً بـل يريـد التعاطـي، وقتهـا كنت حامـل في شـهري الثامـن تقريباً واضطـررت للعـودة لمـصر للولادة وبعـد أن عدت انتكـس كثيراً وبـاع شـبكتي ليشـتري بهـا عقاقـيره لمَ لم تأخذيـه معـكِ ؟

لينـة ومـن تلـك التـي سـتفكر أن زوجهـا قـد يفعـل هـذا بخاصـة إن كانـت تحبـه؟

لكـن زوجـك ليـس رجـلاً عاديـاً أنه مدمـن مـال الأرض لن يكفيه . . .

أواه فعـلا لقـد اقـترض مـن البنـك، ومـن أمـه أخـذ المـال الكثـير، مـن أصدقائـه تدايـن كثـيراً، بـل حتـى تجـار المخدرات عليهـم مؤخـرات لم يسـدها لهـم وبسـبب تلـك المشـاكل بـدأت الشركـة تفكر في فصله مـن العمل أولاً بسـبب القضايا الأخلاقية المتـورط فيهـا ثانيـاً إدمانـه ثالثاً إفلاسـه وعدم سـداده السـلفات والقـروض رابعاً إنه يسـيئ لسـمعة الشركة ولا تنقصهم مشـاكل وبالتـالي فلـن يرسـل لي نفقتـي الشـهرية لإن الشركـة هـي التـي ترسـلها لي عـبر البنـك بعـد أن افهمناهـم وضعـه فكانـت تأخـذ جـزء مـن القروض والسـلفات ونفقتـي وتعطيه باقـي الراتب، آه لقـد فـاض بي الكيـل ومـا عـادت لـدي القـدرة على تحمـل المزيد إننـي لا أسـتطيع النـوم ثـم إننـي أعيـش في بيـت أهـلي وظروفنـا

الإجتماعيـة والماديـة صعبـة يـاه كـم أتمنـى مـن الله لحظة اسـتقرار لـذا أخـرج مـن ذلـك السـعير المحمـوم بالعمـل أنهك نفـسي فيه كـم أتمنـى أن تكون سـاعات الدوام مـن الثامنة صباحاً للسادسـة بعد المغــرب ...

وما ذنب من هم أمثالي ...

أه ياصديقتـي ما أجمـل العمل وحـده يقتل التفاهات وينسـينا الآلام يمنحنـا هدنة مـع الآهات .

هـززت رأسي إنـه مجرد مسـكن وحين ينتهي مفعوله سـنصرخ ألماً ولـن تُجدي معنا المسـكنات ...

لا يهـم إن كان ولابـد مـن قـدوم الألم فلنؤجلـه قليلاً لنسـتغل أن بأيدينـا تأجيله .

سارة هل فكرت في الطلاق ؟

لست أنا بل أهلي ..

ولما لم تخضعي لرغبتهم ؟

لم أكن لأفعلها...

سألت بتعجب لمَ؟

الطـلاق يـا صديقتـي طريـق تسـلكه الضعيفـات، ماكنـت لأخـسر في حـربي مـع الإدمـان، قـررت أن أسـاعده وسـأفعل، ثـم خفضـت صوتهـا فخـرج مخملياً قويـاً لينـة أنـت امـرأة مثـلي وتفهمـين أن المـرأة لـن تعـدم الحيلـة سـتصل لمـا تريـد بالكيـد، بالـذكاء، بالتفكـير، بالإصرار، ليسـت كائن ضعيـف هش يهرب عنـد أي مشـكلة بخاصـة إن كانـت المشـكلة تخـص أسرتهـا فلن تعـدم حيلـة وأكاد أجـزم أن معظم النسـاء الـلاتي تطلقـن طُلقوا بإرادتهـن ولقلـة حيلتهـن وحكمتهـن، هي حيـاتي و أنا لـن أتخلَ عنهـا بتلـك السـهولة ولـن أعـدم طريقـة للإسـتمرار ولـن أترك طريـق الـزواج أبداً

أتحبينه ؟

أحب كوني امرأة متزوجة ولا أريد لنفسي لقب مطلقة ..

لكـن الطـلاق هـو الحـل في حالتـك زوجـك مدمـن مـاذا لـو تعـدى عليـك ؟مـاذا لـو سرقـك كيـف سـيربي ابنـك ؟

آه ابنـي ثـم ابتسـمت قائلـة أخـيراً حصلت عـلى أوراقـه لكي اسـتخرج لـه شـهادة الميـلاد سـأحارب كـي اسـتخرجها واثبـت وجـوده ..

وشردت بعيـداً وتنفسـت فنجـاني العبـق برائحـة القهـوة وكـدت أغـوص في القهـوة وانسـى كل شـئ ...

إلا أن سارة هزت رأسها قائلة بصوت خافت وكأنها تحدث نفسها أو تفكر بصوت عالي ربما يوماً سأفكر في الطلاق ...

أكملت وهي تتحدث بنفس ذلك الصوت الغامض وكأنه لا يصدر من فمها وإنما يخرج من قعر روحها العميق أتعلمين ياصديقتي ليس الطلاق ما يؤرقني بل تلك الأشياء الصغيرة التي لم تكن لتلفت انتباهي أو لأعيرها اهتمام أصبحت أفكر فيها وتؤلمني بل وينهكني الحنين لها كتماسك الأيادي وتشابك الأصابع التي يفعلها الأزواج المحبين، ذلك الحنين لنظرة تكتنز عشقاً إلا أن مرآة العين تأبى إلا أن تعكسه أشعر كأنني لصة تنظر لذاك الكنز الذي تعجز العين عن إخفائه بنهم شديد أواه ياصديقتي أتعرفين ذاك الحنين أنه الاستجداء المنهك والذل المُضني أكاد أجن من نظرة شوق، ذاك الاحتماء الداخلي الذي كنت ألتجئ إليه انتهى مخزونه ماعدت قوية في داخلي ماعدت قوية ...

نظرت إليها وأنا اشعر أن التي تتكلم تلك عجوز مغضنة وليست شابة لم تتجاوز الخامسة والعشرين وأنني أنا من أتكلم لكن عبر لسانها ...

وأخيراً انتهى يومي الدراسي خرجت من المدرسة و الهواء هاجعاً والغيم رابياً حتى الجو رمادياً كئيباً أشعر بأنفاسي تضيق وكأن السماء تطبق على روحي فتخنقها لقد آلمني الأسى الذي

يعـاني منـه البـشر لم أعد أتحمـل لم أشـعر بـذاك الغـم والضيق إلا مـن قصـة سـارة فهي صديقـة قديمـة لي أعرفهـا جيداً إنهـا رائعة خلوقـة متدينة ليـس ذاك التديـن الظاهري بل تشـعر وكأن الدين يجـري في عروقهـا في دمهـا الدين فطـري في حياتها كما أنهـا بيضاء نقيـة لم اسـمعها تغتـب أحـد أو تحقـد عـلى أحـد بـل دائـما لديهـا أعـذار لهـم ودائماً لها أسـباب لتسـامح وتغفـر، لقد تعلمـت منها الكثـير ووجدتنـي أرفع عيني للسـماء يـا مالك الملكـوت خلصها ممـا هي فيـه وامنحهـا صـبراً أو حريـة وبمشـيئتك وقدرتك هون عليهـا مـا تجد مـن عسر الحيـاة ...

وأخيراً حلت رحالي في موطني ..

***

يوم أحد جديد ...

دخلـت فصـل الثالـث الإعـدادي لأمكـث فيـه حصتـين متتاليتـين في السـابق كانتـا من أثقـل الحصص على قلبـي أما وبعد حصـة الإحتياطـي فقـد خف هـذا الثقـل قليـلاً بالتأكيـد مازلت أخشـى أحـداث هـذا الفصـل فربـما يعـزو نجاحـي في حصـة الإحتياطـي إلى غيـاب إبراهيـم غيـاب الزعيـم ومـا أنـا إلا الذي حلـت محلـه وأقتنصـت مـكان فراغـه، لايهـم لا أريد أن أشـحن نفـسي بالأفكار السـلبية فأنا بالـكاد أتحمل الفصـل لا أريد مزيد،

دخلت الفصل ألقيت التحية بتأفف من إبراهيم ورفع حاجبه ونظراته وقبل أن أفتح فمي بالشرح قاطعني مس لينة ألن تقولي سلامتك ياإبراهيم ألن تسألي عن سبب غيابي ألست معلمة ومن حقي عليك أن تعرفي سبب تخلفي عن الدراسة ؟.

ابتسمت ابتسامة هازئة أهلاً بك يا إبراهيم حمدلله على سلامتك .

اكتسى وجهه بغلالة الجدية والحزن وقال بأسى شديد، مس لينة أنت سيدة راقية هكذا يدل مظهرك وغرورك، حركاتك ابتسامتك بل حتى نبرة صوتك لست فتاة مراهقة من تلك اللواتي تعج بهن الشوارع ولست مستنسخ من تلكم السيدات التي تراها عيوننا كل يوم أنتي غريبة متميزة، ليس السر في مظهرك كما تحاولين إظهار هذا وتدليس الحقيقة، بل عيناك وتلعثمت الكلمات على شفتيه متزاحمات خجولات لكنه عاد لإطلاقهن بحماسة عيناك متقدة بالعبث، بالجنون بالنظرات الساخرة الهازئة المتعالية، أنتِ ذكية متقدة بأحلامك وغرورك لست امرأة عادية، تخفين تميزك هذا لكنني أراه جيداً لي خبرة بالنساء لاتخطئك عيني ..

وفجر الكلمات قائلاً أنت لست مجرد مس لينة ...

قاطعته إبراهيم إلزم حدودك ..

قـال بحـدة بـل إسـمعيني أنـت هـل مـن شـيم سـيدة نبيلـة وراقيـة أن تتكلـم في غيـاب أحدهـم ليـس مـن النبـل الحديـث مـن الظهـر، المواجهـة قـوة، حـين غبـت أخـبرتي أصدقائـي في الفصـل أنه مـن غيري هـادئ وجميـل راق لك الفصـل دوني قالها بانكسـار .

عتابـه قاسـياً ناضجـاً وهـو محـق فيـه ولأول مـرة أشـعر أننـي الطالبـة التـي مازالـت تلقـن دروس في التربيـة .

سألته هل تجند الطلاب مخبرين لصالحك ؟

بـل هم إخـوتي لم يرضوا غيبتـي والكلام عني بعـدم وجودي، حـين تتكلمـين في غيبـة أحدهـم تقطعـين أمامـه السبل في الـرد، تحرمينـه حـق الدفـاع عن نفسـه هذا مـا فعلتيـه في غيابي .

رفعـت حاجبـي هكـذا إذن وألتفـت للسـبورة انتبهـوا معـي سـنحكي عـن الحركـة النسـبية.

عـاد لمقاطعتـي مس لينـة بعد ذلك قـولي في وجهي مـا تريدين وسـأتفهمك كرجـل لاتخشي شـيئاً أمـا أن تتكلمي في غيـابي فهذا لـن أغفـره، لا أحـب الحـروب الخلفيـة لا يليـق بـك إلا الخـط الأمامي .

إحمـر وجهـي وأكملـت نظريـة أينشـتين وبداخـلي أشـعر بالخجـل الشـديد ...

رن الجـرس فتحـت البـاب فإذا مسـتر هشـام في وجهـي تطل مـن عينيـه نظراتهـا المعهـودة بغموضها ...

***

مـر قرابة الشـهر عـن آخر مكالمـة بينـي وبين زوجـي لم يتصل بعدهـا وحين اتصـل أنا لايرد وقـض الهجـران مضجعي وحرت في أمـري ولأول مـرة في حيـاتي لا أعـرف هـل أبـوح أم اسـتمر في تحمـل الصمـت ؟عجـزت عـن التفكـير أنـا التـي لا يعجزهـا التفكـير لم يكـن كذلـك في بدايـة زواجنا لقد تغـير تمامـاً أو ربما لم أكـن أفهمـه لكنـه توغل في بعـاده وهجرانـه بعد سـفره ولا أعلم مـا حـل لغـزه مـا سر هـذا الرجـل وأسـلمت تفكـيري العاجـز لغريـزة العاطفـة الأنثويـة بداخلي فأجابـت ربما تزوج مـن أجنبية تفوقـك جمـالاً وأنوثة فـصرخ عقلي يائسـاً فليتـزوج نسـاء الكون كلهـن ما دخـل ذلـك بالهجـران المقيـت هذا ؟

فأجابت الأنثى لإنه أصبح يكرهك .

سأل عقلي حقاً ؟

قهقهت الأنثى أصبحت مهجورة ومكروهة .

أخرسها عقلي لمَ لا تصمتي .

أتريـد مزيـداً مـن الصمت ألم تمـل تعذيبـه أيها العقـل المجنون لمـا لا تتنحـى وتتركنـي أعمل اعـترف بهزيمتك وعجزك وأفسـح الطريق لي .

صرخ عقـلي باسـتحقار الطريـق لمـن ؟لك أنـتِ أيتهـا الأنوثة الحمقـاء المتهـورة مـا أورد النسـاء المهالك إلا وجـودك داخلهن .

بـل أنـتِ من قويتهـن عـلى أزواجهن فما عرفـوا أتزوجـوا إناثاً أم رجـالاً مثلهم ...

وإحتد صراخهما فقمت إلى مطبخي أفرغ ثورتهما فيه ..

***

اليـوم هـو السـبت ذهبت لإيصـال ابنتـي إلى مدرسـتها فلديها امتحـان اليـوم وبعد أن اسـتقرت في لجنتها وليت شـطري للعودة إلى البيـت لكـن مـا أشـق المكـث في البيـت وابنتـي في الإمتحـان ولا أريـد أن أختـلي بنفسـي وحـدي أصبحـت أخـاف مـن مجـرد التفكـير في زوجـي فقـررت البقاء لانتظـار ابنتي ولأتحمـل إهانة الانتظـار، والحمـد لله لم يطـل بي الانتظـار فقـد جلسـت بجانبـي امـرأة حدسـت أنهـا وليـة أمـر مثـلي بدأتنـي بالـكلام ببسـاطة شـديدة أنـا أم عـماد والحمـد لله أنهـا من النـوع الثرثار أنا في أشـد

الحاجـة لهـذا النـوع ليلهينـي عـن الصمـت المعاقبـة بـه المتسـائلة بشـأن أسـبابه الحائـرة مـن وجوده،

لم تلجـأ أم عـماد إلى الشـارع تحتمـي بـه لإنـه موطنهـا رميـت فيـه ودفعـت إليـه فلـم تعـرف غـيره موطنـاً ربـما هـذا مـا دفعني للكتابـة عنهـا، أعلـم أنـه بسـبب تلـك المقدمـة التعيسـة والحياة البائسـة التـي تحياهـا تلك المـرأة فإن الخيال يرسـم لها صـورة رثة بخلفيـة قبيحـة وربـما رائحـة كريهـة ولذا فـإني مجبرة عـلى وصفها لأعـارض هـذا الخيـال الواهـم وأنفـي عنهـا تلـك الصـورة النمطيـة للشريـدات، جميلـة ذلـك الجـمال الذي تشـتهر به نسـاء القسـم البحـري أو الجـزء العلـوي مـن مـصر مـدن السـاحل المتوسـط، بيضـاء البـشرة مشربـة بحمـرة هادئـة قمريـة الوجـه قويـة الملامـح فعيناهـا واسـعتان متوهجتـان بلون زيتـوني عميق شـفتاها ممتلئتـان أنفها أشـم تخطو ربيعهـا الثالث، ترتـدي بنطالاً مـن الجينـز الضيق فاتـح اللون وبلـوزة صوفية إلى ما فـوق الركبة بقليـل تلـف وجههـا القمـري بسـكارف أو إيشـارب ورغـم أن الحجـاب يفـرض عـلى النسـاء التشـابه فيظهـرن بـه متشـابهات وكأنهـن امـرأة واحـدة بنسـخ متكررة لكنهـا لم تخضـع لفرضه بل تميـزت فيه،

وجدتها ببساطة ودون مقدمات تحكي،

أنـا من المنصـورة كتب الله عـلي اليتم توفى والـدي وأنا لا أكاد أعي شـيئاً مـن الحياة وحـين بلغت العـاشرة تبعته أمـي، فلطّمني اليتـم في أمـواج الحيـاة لي أربـع أخـوة مـن الذكـور وفي تلاهيهـم بدوامـة الحيـاة الروتينيـة تـم نسـيان أمـري فـما وجـدت مخرجـاً لهـذا الهجـران المتعمـد أو الغـير متعمـد إلا بالـزواج ووافقـت بـأول طـارق، شـاب جميـل وسـيم وتزوجنـا ومـر عـام كنـت خلالـه حامـلاً وبعـد أن افقـت مـن غيبوبـة الهـروب اكتشـفت الكارثـة زوجي مدمـن كان يمتلك محـل لتجارة أجهـزة المحمول والجـوالات لايفتـح المحـل إلا عقـب صـلاة المغـرب ويعـود للبيـت الثالثـة فجـراً فاقـداً للوعـي تقريبـاً وينـام طـوال اليـوم وهكـذا لايـكاد يفيـق مـن إدمانـه أو نومـه ولأول مـرة في حيـاتي رغـم اعتيـادي قسـاوتها أجـوع لقـد جعت حقـاً وقاسـيت آلامه المبرحـة في معـدتي ولمعـت عيناهـا بالدمـوع فتجاهلتهـا تجاهـل المعتـاد، وأكملـت لـو أن انسـان ربى كلباً لـكان سـيهتم بإطعامه أمـا هذا لم يهتم بشـئ سـوى بـأن يظل فاقـداً للوعي طـول الوقت وقـررت أن أعمـل، طوال حيـاتي أحلم بـأن أكون ممرضـة وفعلاً كـدت ألتحـق بمعهـد التمريـض لكـن أخـوتي رفضوا لإنـه لابد مـن السـفر للألتحـاق بـه، لا أعلم أرفضـوا من أجـل الرفض أم خوفـاً عـلي كـما يقولـون أو ربـما خوفـاً منـي حتـى لا أجلـب لهم عـاراً وضحكـت وهـي تعقـب وكأني زواجـي مـن ذاك الذكـر ليـس عـاراً عليهـم، المهـم عملـت في صيدليـة لكي أسـد جوعي

وجـوع الجنين بأحشـائي الـذي يحيا غافـلاً لا يعلـم ماتعانيه تلك التـي تحملـه، حـين وجدت أنـه لا فائـدة من هـذا الـزواج طلبت الطـلاق وبالفعـل حـدث وأقمـت عنـد أخي بعـد شـهرين اثنين أرجعنـي بنفسـه لزوجـي المدمـن وكما هـو لم يتعدل حالـه وكما أنا خصيمـة الراحـة ولـو في أدنـى درجاتها .

وفي يوم ...

قاطعهـا صـوت سـيارات الشرطـة القادمـين لحملـة إزالـة ومعهـم أسـطول كامـل مـن سـيارات ترحيـل وإعتقـال إلى سـيارات نصـف نقـل لتحمل البضائـع إلى بلطجية لمسـاعدتهم في إزالـة أي تعنـت قـد يقابلهم، تقترب عقارب السـاعة مـن الثانية، تبقـى سـاعتين عـلى انتهـاء امتحـان ابنتي وبسـبب الفـوضى التي أحدثتهـا المداهمـة فالمدرسـة يزدحـم حولها بمثـل هـؤلاء الباعة، تفرقنـا أنـا وأم عـماد واضطـررت للتجـول في مـول بالقـرب منـا علّنـي أضيـع فيـه بقيـة هـذا الوقـت وهربني الخيـال مـن واقعي العبثـي الفوضـوي، وأخـذت أسـئلة حائـرة تتقافز في عقـلي ماذا لـو كانـت هنا مكتبـة عامـة أو مقهى للمثقفـين فهـذه المنطقة تعج بالمقاهـي مـاذا لو تحـول واحداً لمكتبـة لأحط رحالي فيها ارتشـف الكلـمات عـلى مهل فيتعـدل مزاجي وأريـح قدمي التـي تصطرخ تحتـي وعبـث شـيطاني بعقـلي يمكنـك أن تقترحـي مثـل هـذا الاقـتراح على رجـال الشرطة فالتفـت يميناً لتصطـدم عيني بعربة

للجيش من تلك التي تبيع السلع الغذائية كاللحوم والمكرونة والبيض إذاً لماذا لا تداهمها حملات الازالة فهي أيضاً تعترض الطريق وكدت أذهب لأخبرهم بما يجول بخاطري لكن نفسي الطيبة أو ربما الخبيثة لم أعد أعرف عرقلت شيطاني قائلة ماذا لو تم شتمك وإهانتك بل وربما اعتقالك لمثل هذا الرأي، اعترض الشيطان قائلاً لكنه مجرد رأي مسالم ليس فيه من العدوانية والكراهية شيء، اسكتته نفسي أتتكلم بصدق ماهم هم ومكتبتك تلك لهم وظائف محددة ما دخل الكتب فيها، عاد الشيطان يقترح تمام لن أخبرهم ببناء مكتبة ما لمشكلة أن يحولوا عربة من عرباتهم التي تبيع السلع الغذائية إلى مكتبة متنقلة فقط يلزمهم رفوف وبعض الكتب ويسمحوا للناس بالجلوس على الرصيف والقراءة أو الاستعارة أوالقراءة في تلك المقاهي التي تعج بها المنطقة ورحت أتخيل منظر الناس وهم يتراصون على الرصيف يقرأون أو على المقاهي مشغولين بكتبهم وأيقظتني ضحكة صاخبة نابعة من داخلي أمصدرها نفسي الطيبة أم شيطاني لا يهم ..

لامست يد كتفي،

فألتفت بسرعة،

ابتسمت حين رأيتها وسألت ماذا تفعلين هنا ؟

أتبضع ...

سألتني بدورها وأنت ؟

هاربة من الضجيج في الخارج كانت هذه أم عماد وقد ألتقيتها قدراً في المول ..

وبين رفوف البضائع كانت تكمل بثها ...

في يوم ...

حكيت لصديقة لي مشكلتي فسألتني أفضفضة كلامك أم حقاً تودين طلاقاً ؟

طبعا أبحث عن طلاق ...

باستطاعتي مساعدتك ...

صدقاً ...

ستجاريني في كل شئ ولا تحزني مما سأفعل ولاتؤاخذيني ...

اتفقنا ...

ثم ابتسمت أم عماد وغمزت بعينها الزيتونية حتى الشيطان لا يستطيع مساعدة امرأة تنشد طلاقاً كما تفعل هي، وكما تتدفق المكائد والحيل إلى عقلها، آه من المرأة التي تكره، إبليس نفسه يعجز عن منعها ..

وفي غيـابي للعمـل ذهبت صديقتـي لزوجي وهـي تحمل معها طعامـاً، جهـزت السـفرة ونادتـه ليفطـر معهـا وحكـت لـه إنهـا تحبـه مـذ زمن بعيـد لكـن لا يأبه بهـا ولم يهتـم لأمرهـا فاضطرت للـزواج مـن غـيره تحـت ضغـط أهلهـا ولم تسـتطع الانتظـار، ومثلـت أم عـماد طريقـة صديقتهـا مغـيرة نـبرات صوتهـا يـاه لـو أننـي زوجتـك لمـا تركتـك دقيقـة ولمـا ذهبـت للعمـل أي عمـل ذاك بمقدرتـه إبعـادي عنـك أيها الجميـل ولعبت بعقلـه، كل يوم تذهـب إليـه وكلما هـم بلمسـها قالت إلا هـذا انتظر حتـى أتطلق مـن زوجـي وأنت أيضاً طلـق زوجتك ولنتزوج وعشـقها الرجل وجـن بهـا وبعـد أن كان يرفض عمـلي فـأدوام غصباً عنـه بعد أن أسـترضيته بجـزء مـن راتبـي، أصبـح هـو يطلـب منـي الذهاب والمداومـة لأفسـح لـه مجـالاً لملاقتهـا وبالتأكيـد أعـرف السـبب فابتسـم بداخـلي رثـاء لحـالي وحالـه أو ربـما سـعادة لأنـه اقـترب فـك قيـدي وإفـلات وثاقـي، واتفقـت معـي أن أدخـل عليهـم وافتعـل الصدمـة وبالفعـل فعلت كـما أخبرتني وطلبـت الطلاق وقـد جـن جنـوني وعـادت أم عـماد لتغـير نـبرات صوتهـا أيهـا الخائـن هـو وصـل بـك الانحطـاط أن تفعـل هـذا مـع صديقتي أريـد طلاقـاً وفي الحـال، لكـن زوجي خـاف إن طلقتـه أن تنكث المـرأة عـن وعودها لـه فطلب منهـا الطـلاق أولاً، فقالـت له أواه ياحبيبـي أنـا لا أطيـق فراقـك ولا الابتعـاد عنـك وانـت تقول لا أفعـل حتـي تبـدأى أنـت مـاذا لـو ماطـل زوجـي وأنـا لا أمتلك

الصبر لأكون بجانبك لدي فكرة مجنونة فقال لها ولعابه يسيل ماهي ؟ أن تجعل زوجتك توقع على ورقة زواج عرفي فإذا ماطلقتها بالزواج الرسمي ظلت زوجتك بالزواج العرفي ...

قهقه وهو يقول أيتها الشيطانة الصغيرة إذن اتفقنا ...

وتنهدت أم عماد وأخيراً طلقت من زوجي ..

ومر شهر على طلاقي حين اكتشف خداع الأخرى جن جنونه وحاول إعادتي وبالتأكيد رفضت فخطف ابني كان وقتها يبلغ ثلاث أعوام وانهار كل شئ وشعرت بأني فارغة من كل شئ إلا من ابني وسيطر على روحي واذهب بعقلي فما أسطعت تفكيراً ولا تصرفاً ولاحتى ثباتاً وكدت أن أعود جاثية إليه وهرعت لصديقتي لقد خطف ابني ماذا أفعل فقالت لي أنا سأراقبه أين يذهب بالطفل واذهبي لبيت أخوك كما أنت ولاتظهري شيئاً وبالفعل راقبته وأتتني بالخبرابنك عند أخيه الأكبر وبالفعل كان لدى أخوه ابن بعمر ابني، راقبتهما وعرفت متى يخرجون للشارع ومتى يلعبون ومتى يبتعدون عن البيت ...

وفي ساعة أحكمت الترتيب لها جيداً كنا في وقت ظهيرة وتخلو الشوارع في هذا الوقت تقريباً فالناس إما في بيوتهم للقيلولة أو في أعمالهم وخرج الطفلان للعب وتربصت لابني وحين غفل الطفل الآخر عنه وابتعد خطفت ابني ..

وأخـيراً تدفقـت الدمـوع مـن عينهـا وأكاد اسـمع لروحهـا نشـيجاً، كان طفـلي البائـس يرتـدي بنطالاً ملوثـاً بالقـذارة، يداه وقدمـاه متسـختان أيـما اتسـاخ وجهـه مغـبر معفـر حتـي تـكاد ملامحـه الجميلـة الغضة تختفـي وتمحى، حين حملـت طفلي ودقات قلبـه البريئـة تتحد مـع دقات قلبـي اللاهثـة التي تعتـصره الدماء مـا عـادت قدمـاي بمقدرتهـا حمـلي فاسـتندت إلى جـدار قديـم واحتضنـت طفـلي وأخذتنـي نوبـة بـكاء مريـرة وبيـده المتسـخة الصغـيرة أخـذ يمسـح وجهـي ويغمـس أناملـه في شـعري لبثت حـوالي الربع سـاعة لا أسـتطع حـراكاً وكأن جسـدي تيبس حول طفـلي، أفقـت مـن نوبتي وحـرت من أمـري أين اذهـب وتراءى لي الهـرب مخرجـاً ودون تفكـير أو تريـث هربـت إلى الأسـكندرية لصديقـة قديمـة كانت تعمل في محـل كوافير مكثـت عندها أعمل وفي نفـس الوقـت وجدت مـكان يأويني ومكثت عـلى هذه الحال لمـدة سـتة أشـهر كان يلاحـق صديقتـي رجـل خمسـيني يعمل في شركـة الكهربـاء راتبه كبير ويمتلك شـقة وسـيارة فارهـة ويبعثر أموالـه على النسـاء يلـح عليها فتتعنـت في رفضه وفي يـوم جاءها إلى الكوافـير فـرآني فأعجـب بجـمالي وخلبت لبه فنسـى صديقتي وطلـب منهـا أن تخـبرني بطلبـه فأخبرتنـي ووافقـت فـوراً بشرط أن يكـون ابنـي معـي وافق عـلى شرطـي وتزوجته بحضـور أحد أخوتي ..

أخـي الكبير مهاجـر منذ فترة طويلـة إلى انجلـترا ومتزوج من انجليزيـة حاولـت مـراراً وتكـراراً الإتصـال بـه وإخبـاره بحالي لكنـه كان دائـم الصد، شـديد النكـران لي وأحزننـي نفيانه لي من حياتـه بهـذا الشـكل، كان ثريـاً فاحش الثـراء يمتلـك في قريتنا في المنصـورة مسـجداً ضخماً وبنـى فيها مشـفى خيريا كبـيراً، وحين مللـت مـن عقوقـه اتصلـت بشـيخ في القريـة كنـت ألجـأ إليـه في شـدتي وكربتـي وأخبرته بصـدود أخـي ونكرانه وبحـالي فوعدني خـيراً وأنـا أعلـم في قرارة نفـسي أنه لن يسـتطع مسـاعدتي،

وظللـت عنـد زوجي الكبـير هذا صحيـح إنـه آواني وجعلني أتـرك العمـل وكنـت ممتنـة لذلـك لكنـه كان بخيلاً شـديد البخل وبخلـه غريـب فباسـتطاعته أن يلتهـم كيلـو مـن اللحـم في وجبة واحـدة يلفـه في قطعـة خبـز علي هيئـة شـطيرة ويأكل كان شـكله مخيفـاً وهـو يأكل أسـنانه كبـيرة وفمه كبـير وكأنه أسـد ويتذمر إن وجـد ابنـي يـأكل معنـا فكنـت أطعم ابنـي قبـل مجيئه مـن العمل وإن سـأل عنـه اخـبره بأنـه أكل مسـبقاً حتـى لا يضايقـك وأنت تـأكل، الغريـب وبرغـم راتبـه الكبـير الـذي يبعثـره هنـا وهنـاك كانـت لديـه أسرة مكونـة مـن خمـس أولاد أكبرهـم في عمـري خريـج دار علـوم ويعمـل مُعلـماً بإحـدى المـدارس وبرغـم هـذا كنـت أسـمع زوجتـه تتوسـله ليرسـل لها راتـب تعيش منـه فكان يرسـل لهـا ألـف جنيـه في الشـهر ولا أعرف كيـف كانـت تنفقها

مـع خمـس أولاد ولايذهب إليهـا أبداً رغـم أنها ماتـزال على ذمته لم يطلقهـا أو رفضـت هي الطـلاق فأين تذهـب بخمس فرضيت بحالهـا وبمالـه القليـل وتقتـيره عليها وشـحه عـلى أولاده،

لكـن ماعـاد بمقـدرتي التحمـل فتمزقنـي معاملتـه الجافـة لابنـي وبخلـه عليـه و ماعـدت أتحمـل رائحتـه، شـكله وهـو يـأكل أصبحـت حيـاتي معـه تعذيبـاً لكـن عاهـدت نفـسي عـلى التحمـل وحـين فاقتنـي القـدرة وطلقـت للمـرة الثانيـة وعـدت اتصـل بالشـيخ كانـت المفاجأة بـأن اخبرني أن أخـوك هنا في مصر في إجـازة وسـيذهب مـع أخـوك الثـاني وأسرتهـما لـشرم الشـيخ الأسـبوع القـادم وكـدت أجـن هـل أسـافر إليـه ؟ ربما يحـن قلبه ويذيـب حـالي عقلـه، وبينـما أعتزم السـفر اتصـل بي الشـيخ قائلاً أخـوك مـات ..

وسافرت لأحضر العزاء ...

كانـوا يريـدون التخلـص منـي حتـى لا أحصـل عـلى حقـي الشرعـي مـن أخـي لكني رفضـت أن اتزحـزح إلا وحقـي بيدي يحاولـون، سنرسـله في البنـك، عـن طريـق المحكمـة، سنشـتري بـه قطعـة أرض لـك وأنـا أرفـض رفضـاً تامـاً لـن أسـافر إلا بمالي وبالفعـل حكمـت لي المحكمـة بمبلـغ كبـير أخذتـه وسـافرت اشـتريت شـقة وأثثتهـا وأودعـت الباقـي في البنـك عـلى شـكل سـندات تخـرج لي فائدة شـهرية أعيـش منها كراتـب منتظم والآن

هـزت رأسـها الجميل بغرور أعيش سـلطانة زمـاني دون مؤجرين يقفـون ببـابي كل شـهر أو رجـل يتحكـم بي يذيقنـي العـذاب أو أخـوة يرمونـي في جـب الهجـران والإهمـال أو زوج أم يعـذب ابنـي، أنـا الآن أم وابنـي لي هـو الحيـاة كلهـا أوقفتهـا عليـه ..

كـدت أخبرهـا أن تلك الفائـدة تعتبر ربا وهو حـرام في شرعنا أنـت بهذا تأكلـين حرام لكننـي تراجعـت أو ليس مافعلـه أخوتها بهـا حـرام، أزوجهـا المدمـن لم يكن حرامـاً وكبير السـن هذا ليس حـرام، أمبيتهـا في محـل كوافـير لم يكـن حـرام، أعتزامهـم لأكل ميراثهـا ليـس حـرام، أعدم سـؤالهم عليهـا وكأنها ليسـت أختهم وارتياحهـم منهـا بعـد أن هربت منهـم ليس حرامـاً ...

وعـدت أرادد نفـسي لكـن الحـرام لا يعالـج بحـرام وحقهـا عليـكِ بعـد أن آمنتـك عـلى بوحهـا أن تخبريهـا بالأفضـل، أن تقترحـي فقـط عـلى الأقـل ...

فقلـت لهـا ألم تفكـري في العمـل لديـك وقـت فـراغ وابـن واحـد صغـير وأنـت تحبـين مجـال الطـب لمَ لم تفكـري في العمـل بصيدليـة، سـتملأين فراغـك وتتكسـبين بحلال جهـدك وبعرق جبينـك مارأيـك ؟

هزت رأسها نعم أفكر في العمل بجدية ...

وتذكـرت بيتـي كـم أتمنى غمسـة فيه كم أحلـم بالدقيقـة التي سـتجمعني بـه فنظرت للسـاعة لاتـزال الثالثـة والنصف لأذهب للمدرسة ...

فأستأذنتها وانصرفت للمدرسة ..

كانـت حملـة الإزالـة لا تـزال تسـحق الشـوراع تفرغهـا مـن باعتهـا، كنـت سـعيدة بداخـلي وكأن تلك المـرأة أخـيراً ارتاحت وأخـذت حقهـا مـن الحيـاة التعسـة أصبحـت سـلطانة بعـد أن كانـت لطيمـة ...

وأحسسـت بغبطـة غريبـة تـسري في روحـي وكأننـي راهـب يسـتمع لاعترافـات رعايـاه المخلصين، أنهـم يخلصـون أرواحهم بالاعـتراف والحكـي وأنـا أُخلص روحـي بالتدوين، وتسـاءلت لمَ لا يسـمعني أحـد ربـما أنـا لسـت مـن ذلك النـوع الـذي يهوي الحكـي ربـما لم أجـد بعـد مـن أحكـي لـه يـا لهـم مـن محظوظـين وجـدوا مـن يحكـون لـه ربـما مـن أريـد أن أحكـي لـه يـصر على صـدي عنـه بالهجـران فالهـوة السـحيقة تتسـع بيننـا ونحـن نقف عـلى حافتهـا ويـكاد أحدنـا من السـقوط فيهـا ..

أن تجـد مـن تقـص أمامـه وجعـك وتبـث لـه ألمك لهـو وجود رائع...

وقفـزت إلى خيـالي صـورة مسـتر هشـام بنظراتـه الغامضـة اللحـوح ...

***

كنـت في الصـف الخامـس الإبتدائـي أنـا اسـتلم هـذه الحصـة بعـد مسـتر هشـام وبينـما أضع كتبـي ودفـتري أمامي عـلى مكتب المعلـم إذ وجـدت أمامـي محفظة نقـود رجاليـة سـوداء اللون من مظهرهـا الجلـدي خمنـت أهـي غاليـة أم عاديـة تقليديـة وتجاذب شـيطاني العابـث أفـكاري المـترددة هـل أفتحهـا ؟هل أردهـا إليه الآن أم بعـد الحصـة وصرخ شـيطاني بعـد الحصـة سـلميها يـداً بيـد فربـما في هـذا إفسـاح المجـال لـه ليفسر لـك نظراته أفسـحي المجـال للرجـل المحفظـة هـي الضـوء الأخـضر الـذي تمرين من خلالـه هيـا يا امـرأة لا تكـوني جبانـة، وأطلـت أفكاري برأسـها ألا تحتاجـين لرجـل أيتهـا المـرأة المتآكلـة مـن الداخـل المهملـة الـروح المهجـورة الفؤاد لما تسـتغلين هـذا الظرف منهـا إنتقام من زوجـك المغـرور، ومنهـا الإتغماس في لـذة الإهتمام التـي أفتقدها بشـدة، وافقهـا شـيطاني صدقينـي إنـه مجـرد زميـل في المدرسـة إعادتـك لمحفظتـه ليسـت جريمـة وحديثـك العابـر معـه حـول نسـيانه للمحفظـة ليسـت كبـيرة هيـا لا تكـوني معقـدة متزمتـة إنفتحـي قليـلا وبـدون إرادة منـي أشرت لطالبة تجلـس في المقعد الأول وقلـت لها أعطي هذه لمسـتر هشـام يبدو أنه نسـيها عندكم،

وشرحت درسي وأنا أشعر بزهو الإنتصار حمداً لله فمبادئي مازالت تتحكم بشيطاني وتتسلط على أفكاري العابثة وآلامي المبرحة بعد لم يصل نزيفها ليلوث مبادئ وما أؤمن به،

لكن شيطاني ظل يصرخ بداخلي لقد أفلت الفرصة منك وصدقيني لن تعود ستظلين هكذا مجرد امرأة تافهة لا تقتنص الفرص، الحياة تحتاج لخوض غمار صراعها وأنت مزهوة لمبادئ بالية تتمسكين بها أي جنون ذلك وكيف تعتنقين تلك المعتقدات القديمة أنت امرأة عاملة من المفترض أن تكونِ قوية وليست مجرد أنثى خجول بعد لم تخرج من شرنقتها، الحياة قاسية لن تواجهيها بشرنقتك تلك أما ترين المعلمات من حولك كيف يصارعن الرجال وأنت هكذا ستبقين محلك لن تتزحِ منه لن تتنصرِ في حربك مع الحياة تحتاجين لخشونة لا للخجل، لقوة لا لتلك الرقة الأنثوية، لمرونة في المبادئ لا ذاك التحجر أنت لست امرأة أنت حجر أصم صدقيني هذا ما سيورد في خاطر المستر أنك مجرد حجر لن يعود لطرقه ...

هيا التزموا الصمت والهدوء كان هذا صراخي في الفصل أو ربما لأخرس شيطاني اللحوح ....

وانتهـت الحصـة في الردهـة بـين الفصـول إلتقيت قدراً مسـتر هشـام تشـاغلت بالنظـر في جـدولي ولم أنظـر إليه .

***

تتـوالى الذكريـات، تتراكـم الأحـداث، يُـركل القديـم في طي النسـيان فـلا متسـع له في زحـام الجديـد ولا مكان لـه في فوضاه، أحـداث جديـدة بـلا قيمة وقديمـة بلا هويـة وقادمة بـلا وجود، أيـام تتواتر ربـما بلا لون باهتـة رغـم تفاصيلها الكثـيرة والمعقدة، سـاعات تتراكـض ودقائـق تمـر وعقـود وسـنين في عجالـة مـن أمرها .

كل شـئ أصبح متشـابه رغـم الإختلاف، منعـدم الذوق رغم التعـدد، حتـى المشـاعر اختلطـت وتخالطـت الحقائـق فتغـيرت الثوابـت، حـرب تخوضهـا بـلا هدنـة بـلا استسـلام بـلا انتصار سـاحة حـرب وفقـط هكـذا هـي حيـاتي ومـا أصبحـت عليـه أنهكـت قـوتي فهـي حرب بـلا خيـارات تسـتنزفني وتسـتهلكني عـلى مهل تسـتقطر مـن عزمـي وثبـاتي ...

وبدأت أضعف ..

مس سلام ...

اللاجئة الخامسة ...

التدريس نوع من أنواع التعذيب الذي أعانيه كل يوم ولست وحدي فالمعلم يحيا حياة المقارنة فهو دائم المقارنة بين طلابه وأولاده يعيش في صراع دائم بين إحتكار التفوق على أبنائه وحدهم وبين رغبته في حصول طلابه عليه، كنت أرى في كل طفل أعلمه ابنتي كم أحلم أن تكون معي في المدرسة تحت عيني، أما كان لها الأحقية في كرسي في هذه المدرسة وحتى حين قرر أصحاب تلك المدارس إكرامنا معاشر المعلمين وضعوا لأبنائنا خصم خمسة بالمائة من المصروفات الإجمالية ما كان سيضيرهم لو خصموا لابن المعلم النصف أي خمسين بالمائة اذكر أن إحدى الدول العربية كانت تفعل ذلك مع المعلم وهو مصري ليس من أبنائها فما بالنا نحن لا نفعل ؟

ما لمشكلة أن تعطينا المدرسة مثلما تأخذ منا بل حتى لو منحت أولادنا تعليماً مجانياً لما كان أمراً يذكر لإننا في المقابل من نعلي شأن المدرسة ومن نرفع اسمها ونحن من نروج لها بعملنا وشرحنا وليس هذا مجرد كلاماً إنشائياً فالمدارس الخاصة ما هي إلا جيب ولي أمر وعرق معلم، ثم إن كان لابد لنجاح أي عمل خاص وجود مبدأ أوعقيدة من أجلها يؤسس هذا العمل بخاصة المدارس ولإن المدارس الخاصة انتشرت كالنار في الهشيم فلا يكاد شارع يخلو من مدرسة

خاصـة فتوجـب عليهـم أن يبحثوا عن هـدف يعملون مـن أجله فمثـلاً مدرسـة أزهريـة، مدرسـة للراهبـات، مدرسـة أمريكيـة، بريطانيـة، فرنسـية، ذات خلفيـة إسـلامية كأن تخـدم حـزب ما أو حتـى طائفـة مـا كأن تؤسـس لخدمـة التشـيع مثـلاً فالتعليـم هـو الدعايـة المثلى للمبـادئ والمـروج المطيـع للمعتقـدات والمرسـخ الأوحـد للأفـكار، آمـن بفكرة شـيد لها مدرسـة إغـرس فكرتك في عقـول تلاميـذك بـأي طريقة كانـت بالتلقين بالإقناع بالمناقشـة بالتحليـل بالتجربـة لا تقلـق فلـن تعجـز عـن إيجـاد طريقـة كرر فكرتـك بأسـاليب مختلفـة وطورهـا لتناسـب نمـو تلاميـذك في النهايـة سـتخرج جيـل مؤمـن بفكرتـك مستنسـخ لما تريـد تهانينا لـك لقـد نجحت هكـذا الأمـر ببسـاطة أمـا التعقيـد والغموض والصعوبـات الـذي نعانيـه في منظومـة التربيـة والتعليـم صدقني مقصـود ومـدروس ومخطط لـه، أحيانا تؤسـس المـدارس وليس لهـا هـدف سـوى المـادة لا ليـس أحيانـاً بـل كثـيراً مـا تؤسـس المـدارس عـلى أنهـا مجـرد مـشروع مـادي اسـتثماري لسـت ضـد هـذا ولا أعارضـه لكـن لزامـاً في هـذه الحالـة مـن انتفـاء المبـدأ التربـوي المعنـوي الأخلاقـي الإنسـاني أن يتـم اشـباع معلميهـا ماديـاً وزيـادة علاوتهـم ومكانتهـم هكـذا تقتـضي حسـبة تجارية بسـيطة فإنـك إن منحـت المعلم راتبـاً جيداً وابنه كـرسي مجاني في المدرسـة سـيمنحك المعلـم أضعـاف أضعـاف عمله بل سـيتفنن تفننـاً فيـه سـيبتكر ويبـدع لإيصـال المعلومـة لطلابـه، في المقابل

سـيذيع سـيط المدرسـة وسـيتهافت عليهـا النـاس فالطالـب الـذي قبلتـه مجانـاً سـيأتيك مقابلـه عـشرات، ولكـن أصحـاب المـدارس الخاصـة يسـيطر عليهـم العقليـة الرأسـمالية يعتنقونهـا وينقـادون لمبادئهـا ويـا ليتهـا الرأسـمالية بنسـختها الأجنبيـة بـل بنسـختها العربيـة المقيتة والمتخلفة ولا أشـعر بالذنب أو الأسـف وأنـا أكتـب هـذا لإن العقليـة سـبب التخلـف وليسـت العروبـة فالتخلـف ألصـق إلصاقـاً بالعروبـة كما الإرهـاب ألصـق بالدين والتطـرف ملصـق بالمسـلم، لنتفـق أن التخلـف سـببه انعـدام المنطـق وغيـاب التفكـير وإيقـاف العقـل وهي نفسـها الأسـباب لتخلـف العـربي والأجنبـي عـلى حـد سـواء ولإننـي معلمـة في مؤسسـة رأسـمالية عربية فقـد فهمت بعـض من سـماتهم البغيضة أول سـمة وأبرزها اسـتغلال البشر وإمتصاصهـم كمثل مصاصي الدمـاء يمتصـون قوتـك، مجهـودك، جسـدك، عقلـك، تفكـيرك فيخرجـون أفضـل ما لديـك أو أسـوء ماتخبـئ، يصهرونك تحت ضغوطـات متطلباتـك وصراعـات مطامعهـم وإهانـات نفوذهم وليـس العامـل فقط المسـتغل بل والزبـون كذلك، ثانيـاً المصلحة هـي معبودة الرأسـمالي وربه وأفـكاره واعتناقاتـه ومجموعة مبادئه بـل هـي عقيدتـه وفلسـفته وفلكـه الـذي يـدور فيـه ولا يقـوى عـلى السـير بغـير هديـه، مصلحتـه أولاً وثانيـاً وثالثاً وأخـيراً أما مصلحتـك بالإمـكان تأجيلهـا، لا يهـم تلبيتهـا فهـي شـئ تافـه بالنسـبة لمصالحـه العظيمـة أو ربـما هـي ليسـت أصلاً في حسـبانه

وإن كان ذلـك الرأسـمالي الوغـد نبيـلاً بمحض القـدر فربما جعل مـن تبـادل المصالـح ديدن يخفـف به حمـأة أنانيتـه لكـن لا تتفاءل كثـيراً ففـي النهاية سـترجح كفـة مصالحه وسـتميل كفتـك أنت، ثالثـاً الرأسـمالي يحـب أن يكـون صاحـب الفضـل والمنـة يحب أن يكـون متفضـلاً حتـى لـو كانـت أفضالـه تلـك تافهـة هـو يراها عظيمـة فمثـلاً أن تخـرج من المدرسـة السـاعة الواحـدة والنصف بـدلاً مـن الثانيـة في يوم قـد يكـون واحد في الـترم كله هـو فضل عظيـم يظـل يذكـرك بـه بسـبب أو بـدون سـبب بمناسـبة أو بغيرهـا، أن يعطيـك حافـز عشريـن جنيـه لإنـك لم تتغيـب طوال الـترم هـو فضـل عظيم أيضـاً يظـل يلح في تذكـيرك بـه ولا أعلم مـا سـبب حبهـم أن يكونـوا أصحـاب فضـل أعتقـد أن المسـألة خـارج النطـاق الديني وليسـت مسـألة أخلاقيـة أعتقـد أنه يحب أن يفعـل لكـي يضمـن ولاءك وإنكسـارك بين يديه ربـما يجد لذته في خضوعـك ثـم إن هـذه المنـح التافهـة التـي تفضـل بهـا عليك ليسـت لله والوطـن بـل هي مجـرد قـرض أو دين تسـدده أضعاف مضاعفـة بفوائـد فادحـة فذلـك اليـوم الـذي خرجـت فيـه باكراً بنصـف سـاعة ستسـدده أيامـاً سـتخرج الثالثـة عـصراً أو الرابعة والسـبب ظـروف العمـل وظـروف العمـل لا تقبـل التأجيـل أو النقـاش، بـل يطالبـك أن تداوم يـوم الوقفـة (اليوم الذي يسـبق عيـد الفطـر وعيـد الأضحـى) لإن يوم عيـد العمال إجـازة رغم أنـه فرض هـو يحولهـا لفضل يسـترده باهظـاً وقت حاجتـه فليس

لله شيئاً في أعمالهم وفضائلهم ما أنت إلا عبد يتفضلون عليك وقتما شاؤوا ويستردون ماتفضلوا به ساعة شاؤوا .

السمة الرابعة لهم يعشقون النبش في المعلومات الشخصية وتتضاعف النشوة مع المرأة وليست أية معلومة ما يريدون بل الزلات، الأخطاء، الفشل في العلاقات كطلاق وانفصال أو خلع أو ترمل كل شئ يحبون أن يعرفونه عنك ليست بالأسئلة المباشرة بل باللف والدوران أو تجنيد أحد المخلصين لهم أو عملائهم ليحضر لهم مايريدون من معلومات وهؤلاء العملاء لهم وسائلهم وطرائقهم ويفعلون هذا لسببين أولاً لإن حيازة المعلومة سلطة وثانياً لإن الإبتزاز يتغذى بإمتلاك الذلة بهذا هم تملكوك بسلطتهم وبخضوعك لإبتزازهم أخامساً حكمتهم المفضلة فرق تسد، سادساً الجاسوس أو العميل هو موظف لا غنى عنه لديهم أنه الجندي الخفي الذي يبذل أخلاقه فداهم، سابعاً أنت المخطئ المذنب، عديم الفهم، المهمل والمغفل دائماً أما هم فملائكة لا تخطئ حتى وإن اخطأوا لايهم لإنك أنت كبش الفداء ومادامت الأكباش المفدى بهم موجودة بوفرة فأيضاً الأخطاء التي لا يُحاسب أصحابها تتكاثر بجنون وصك الغفران ممهور بعرقك والمذبح غاص بالقرابين والآلهة الرأسمالية لا يشبع نهمها ولايرتوي ظمأها، وأخيراً وليس آخراً الراتب الضئيل يرونه عظيماً ضخماً ولا أعلم أي

ميكرسكوب هذا الذي يرون من خلاله الراتب وكأنه آلافاً مؤلفة وهو لايتجاوز الألف حتى لو انقلبت قرداً، كل ماسبق لا يهم المهم أنهم يحبون المنافقين المتملقين من العمال والموظفين ولا أعلم ما سر تلك العلاقة المشبوهة بين هؤلاء وهؤلاء ربما بسبب تلك العلاقة الأزلية بين التملق والسلطة كمثل الزواج الكاثوليكي الذي لا يحتمل الطلاق أو الفراق، هذه أبرز صفات الرأسماليين أصحاب المدارس الخاصة ربما هم متشابهين مع الرأسماليين أصحاب الشركات والمصانع في أن سخرة البشر دينهم والمصلحة محرابهم والفضل هم أربابه ومانحوه وأنت لست سوى العبد المخلص الذليل الذي تتلو كل يوم صلوات خضوعك أمام أوامرهم المبجلة، لكن مع فارق خطر أن منتج الشركات بضاعة لا عقل لها ولا يُخشى خطرها أما بضاعة المدارس الخاصة أجيالاً وبشراً ومواطنين وهذا هو الوبال والكارثة الحقة ...

نعود لمس سلام، لم أعاني وأنا أكتب عنها في الحقيقة كنت أكتب عنها كل يوم لإنها تمثل لي ضغطاً رهيباً فأفرغه في الكتابة بل أنني أسخر منها بداخلي أعلم أن جل ما تخشاه هو أن تلتقي بمن يفهم، وألتقتني دون أن تشعر أوألتقيت بها لأعود لحلم الكتابة لإنها الوسيلة الوحيدة التي أفرغ بها ما أعانيه منها لا أستطيع الشكوى لأحد فهي تجند أغلب المعلمين

لحسابها ينقلون لها الشاردة والواردة، الصغيرة قبل الكبيرة والتافه قبل العظيم، فهي بارعة في صناعة مخلصين لها والذين سرعان مايندمون بعد اكتشاف مصيبة إخلاصهم لها لكنهم لا يستطيعون فكاكاً من عقدة إخلاصهم تلك لإنها تمسك لكل منهم زلة وعلى كل منهم مصيبة قد فعلها، وفي الوقت الذي يفكر فيه بالإنسحاب من جحيم الإخلاص تبرز له ما اقترف من آثام ككارت أخير للترهيب أو التهديد فيعود لرشده أو لتبعيته لها حاولت أن تستخلصني لنفسها لكنها لم تفلح حاولت مرار وتكرار لكن محاولاتها باءت كلها بالفشل فلم تستطع إلا أن تظهر لي إكباراً وإجلالاً مخفيان ببراعة، ينتابني وأنا أكتب عنها احساس العميلة السرية بالذات حين اختلي ليلاً برواياتي أدون ما تفعله بنا مس سلام من نفاق وظلم وضغط ومجاملات ومحسوبيات وكثيراً ماكنت اسأل نفسي سؤال ترى لو علمت أني اكتبها ماذا ستفعل كنت أشبه من يعيش في دولة ديكتاتورية لا يملك إلا قلمه ليشهره أمامها كوسيلة من وسائل المعارضة أو ربما ليتنفس فيه من كبته المستمر،

ومن أول أسبوع استلمت فيه العمل ...

لينة أحضري لي دفترين علوم واثنين أيضاً من البوكليت ...

تمام ..

اخـترت بطريقـة عشـوائية دون أن يطـرأ عـلى خاطري سـبب لذلـك الطلـب المفاجـئ إلا أنهـا تريـد التأكـد مـن تعليمـي لهـم وأنهـم مكتملـين مـن ناحيـة وجـود التاريـخ، تعليمهـم باللـون الأحمـر، تصويـب أخطائهـم أو تدويـن الملاحظـات ...

أحضرت لها طلبها ..

شكراً أدخلي حصتك ...

وبعـد ربع سـاعة وجـدت العاملـة تطرق بـاب الفصـل قائلة مس سـلام تريـدك ...

ذهبـت وكـما يقولون واثـق الخطا يمشي ملـكاً فواثقـة أنا بعدم وجود أخطـاء لدي ...

وفـور دخـولي للغرفـة انفجـرت بوجهـي قائلـة كيـف لك أن تخطئـي بكلمـة إملائيـة تكتبـين (بوركـت وجوزيـت)بمـد الواو الصحيـح أنهـا تكتـب هكـذا بُركـت وجُزيـت وتكتفـين بوضـع الضمـة فوقهـا ..

لكنني واثقة من كتابتي إنها صحيحة بالمد ...

لا يهمنـي بـماذا تثقين اتصلـت بي وليـة أمر تخـبرني أن احذري لديـك معلمـة تكتـب إمـلاء بطريقـة خاطئـة وهي خريجـة آداب لغـة عربية ...

إذن فاسألي معلمة لغة عربية لدينا في المدرسة فآكدة أني كتبتها بطريقة صحيحة .

احتد صوتها سألت أوتظنين أنني لن أفعل قبل كتابة أي كلمة في كراسة الطالب لابد من التأكد من كتابتها بالطريقة الصحيحة أو اسأليني أنا كيف اكتب تلك الكلمة، عيب كبير أن تخطئ المعلمة في إملاء كلمة ودعمتها مدرسة انجليزي تجلس بالقرب منا متدخلة في الكلام أنا قبل أن اكتب شئ في كراسة المتابعة أراجع إملاء الكلمات من القاموس فعلاً عيب شنيع أن تخطئ معلمة في الاملاء صرخت مس سلام بالطبع كيف تفعلين هذا يوم الأحد القادم (لإننا كنا يوم خميس وفي نهايته)تمسحين بالقلم المصحح (بالكريكتور)كل الدفاتر والكتب،

إذن جريمتي ستظهر للعلن وسيراها كل ولي أمر ...

خرجت من غرفتها والأرض تميد بي يا للعار أنا اكتب إملاء خاطئ واصطرخت نفسي بداخلي تلومني أنت يا لينة تفعلينها لقد كنت تحصلين في مادة اللغة العربية على الدرجات كاملة نعم نعم أنا لا أخطئ في الاملاء قاطعتني نفسي ثم ياغبية اكتبي بارك الله فيك وانتهينا لا داعي للفلسفة بوركت، لكنني اختصرها لا وجود لوقت اكتب فيه بارك الله فيك في خمس وعشرون كراسة وخمس وعشرون كتاب ..

الكلمـة صحيحـة أنهـا حقـاً تكتـب بمـد الـواو أنـا متأكـدة وكـدت أجـن أنا متأكدة من كتابتها بشـكل صحيـح ونفسي تقول يـا لعارك معلمـة وتكتب خطـأ ...وذهبت للحـمام وانخرطت في البـكاء فقد شـعرت بذل شـديد وتملكتنـي الإهانة، لقد مسـكت عـلى مـس سـلام غلطـة وسـتذلني بهفـوتي تلـك طـوال العـام الـدراسي هـي تعلم جيـداً أنهـا ستفشـل في خلقي مخلصـة لها إذن فلتذلني ...

مضـت حـوالي العـشر دقائـق عـلى جلـوسي في الحـمام باكيـة ورن الجـرس هندمت مشـاعري ومسـحت عينـي إلا أن احمرارها مـع احمـرار وجهـي ظـل ظاهـراً فاضطـررت لغسـلهما بـماء بارد وخرجـت ...

لمَ كانت تريدك مس سلام ؟

لاشئ فقط تراجع معي الكتب ..

كانـت تلـك المعلمـة في الحصـة التاليـة تسـألني حـين دخلـت لأعيـد الكتـب لأصحابهـا ...

وأخـيراً انتهـى اليـوم الـدراسي وأنـا في حالة لايعلمهـا إلا الله وتخيلـت الآن مـس سـلام في غرفتهـا وهـي تخـبر كل المدرسـين والمدرسـات قائلـة أرأيتـم مـس لينـة تكتـب أخطـاء املائيـة يـا للهـول ياللعـار وسـتفتعل الحـزن والدهشـة ...

وكـدت أجـن، وأخيرا خرجـت إلى الشـارع في طريقي لموطني لم أكـن أنـا مـن أمـشي بـل ديناصـوراً يلتهـم الشـارع بخطواتـه الغاضبـة ويـكاد الـشرر يتطايـر مـن عينه ذهبـت إلى البيـت وكل ذرة مـن ذرات دمـي تغـلي حتى أننـي عجزت عـن الجلوس كنت أذرع البيـت ذهابـاً وإيابـاً ويـكاد عقـلي يفلـت من معقلـه وفجأة سـمعت هاتـف داخـلي ابحثـي في النـت وفتحتـه قاعـدة المبنـي للمجهـول يـا مالك الملـك الحق معـي بوركت وجوزيـت يكتبان مـد بالـواو لإنهـما مـن الفعـل بـارك وجـازاك فيقلب مـد الألف إلى مـد بالـواو عنـد بنائهـما للمجهـول هكـذا تقـول القاعـدة أين كنـت أيهـا القانـون أعـرف أننـي عـلى صـواب لكـن القاعـدة لم تكـن متضحـة في ذهنـي وفـار الـدم أكثر بداخـلي آه كيـف تهينني بهـذا الشـكل، لا لا ربـما يكـون النـت خطـأ سـأكلم استاذ عربي لـه بـاع طويـل أعرفـه معلـم أخـي في الثانويـة واتصلـت وكانت المفاجـأة الحـق معـي تكتـب بمد الـواو ...

وليـة الأمـر اخطـأت ومـس سـلام اخطأت لـك الحمـد ياالله أنـك انصفتنـي، يـارب لـك وافـر الشـكر وتحـول غبـن الظلـم إلى فرحـة عارمـة واجتاحتنـي موجـة سـعادة بـدلاً مـن فقاعـات الإهانـة التـي انفجـرت بداخـلي ...

وقــررت أن اطبــع القاعــدة مــن النــت وأصورهــا خمــس وعشريــن نســخة وأوزعهــا عــلى الطــلاب ...

وعلى آذان المغرب ...

وجـدت مس سـلام تتصل بي وتعتـذر مني أفهـم أن اعتذارها من أجـل سـقوطها أمامي وليس لخطأهـا في حقي لكنـي أفهمتها أني أخـذت الاتصـال عـلى عواهنـه يـروق لي لعـب دور المغفلـة التـي لا تصـل للأعـماق أو التـي لا تفهم مايـدور حولها ...

كانت حين تمسـك هفوة عـلى معلمة تبتزها بتلـك الهفوة فمثلاً مـس منـال معلمة الانجليـزي تعاملها معاملة البيبي سـيتر املأي لي زجاجـة الطفـل بالحليـب، امـلأي زجاجتي من الفلـتر، اذهبي بالطفـل إلى البيبـي روم فقد كان لها طفل لا يتجاوز السـنة وكانت تفعـل المعلمة دون نقاش لإنها قد مسـكت عليهـا حادثة سرقة ...

معلمة أخرى مشـكوك في شـهادتها الجامعية لكـن أبيها يمتلك محـل جـزارة وكانت تجامل مس سـلام بين وقت وآخـر بكيلو من اللحـم وكان هـذا عربـون محبـة بينهـما فهكـذا مس سـلام تقرب البعـض منهـا ليـس حبـاً واسـتحقاقاً لكن مصلحـة أو ابتـزازاً أو لتشـيع الكـره والغـل في نفـوس المبعدين وتشـعل فتيـل الغيرة في نفوسـهن ولإن معظمنـا نسـاء وهي تعلـم جيـداً أن أضعف نقطة في المـرأة هـي غيرتهـا فتـضرب دائمـة عـلى هـذا الوتـر اللهيبـي ففـي كل اجتـماع تحـرص عـلى امتـداح معلمـة فمثلاً انظـروا لمس زهـرة أنها رائعـة تشرح بطريقة سـهلة ميسرة وبارعـة في توصيل المعلومـة، مـس فلانـة أوليـاء الأمـور يمتدحونهـا وهكـذا لم يكن

الامتـداح بريئـاً بـل لـه مغـزى بـين السـطور ورسـائل موجهـة مخفيـة في تجاعيـد الكلـمات وكنـا نفهمها دون عنـاء ...

كنـت أتعجـب مـن طريقتهـا بخاصـة حـين دخلـت عليهـا الغرفـة مـرة فوجدتهـا تكلـم زوجهـا ثم قالـت اخـبري المعلمات بتجهيـز دفاتـر تحضيرهن فـوراً لأوقعهـا وجهزنا الدفاتـر وظللنا ننتظـر أن تمـر علينـا أو تطلبهـا لكنهـا لم تفعـل وفهمنا أنها ترسـم نفسـها أمـام زوجهـا بداخـلي ابتسـمت فمـس سـلام تمتلك عين جميلـة بـل في حيـاتي لم أرَ أجمل مـن عينيهـا بلونهـما الأزرق المحدد بلـون رصـاصي فتشـعر وكأنهـا تمتلـك رصاصتـان وبرغـم مـن فولاذيـة عينيهـا إلا أن بهـما دفـئ غريـب وعمـق مخيـف كنـت لا أمـل النظـر إليهـما بـل الغـوص فيهـما أغـوص بحـذر حتـي لا يخترقـاني وتخيلـت زوجهـا أكيـد أنـه لا يشـبع منهـما لـو كنـت مكانـه لمـا برحـت النظر إليهـما ولا مللتهـما لها ثـلاث أولاد ذكور جميعهـم ورثـوا عنها تلـك العينـان الزرقـاوان بحـدود رصاصية وبـشرة بلـون الحنطـة المعجونـة بـماء الـورد يـا لحـظ هـذا الرجل فـلا أحـلى مـن امـرأة جميلـة وأولاد ذكـور يرثـون جمالهـا أنـه بالتأكيـد رجـل محظـوظ واقتحـم خيـالي نعيـم الأسرة بدفئهـا وهدوئهـا ولـذة الاسـتقرار ومـلأني الحنـين لبيتـي وأولادي وفي قـرارة نفـسي تمنيت عـودة زوجـي وأن يلتئـم شـتات أسرتي وبدأ الحنـين لزوجـي ولأولادي وبيتـي يقضـان هدوء وجهـي المفتعل

وكـدت أبكـي شـوقاً لكن صـوت مس نجـلاء انتشـلني من حمأة اشـتياقي وتنـور روحـي فقالت هامسـة أنـت لاتعلمـين أن زوج مـس سـلام متـزوج ...

وجلت فكأن نجلاء تقرأ هواجسي وقلت بصوت مرتعش

أف وقـد باغتنـي الـكلام فللتـو كنـت أغبطهـا وتمـلأني الغيرة منها ...

وغمغمـت بصـوت خافـت وكأننـي أكلـم نفـسي وقـد شـمخت بوجهـي بعيـداً عـن مـس نجـلاء يـا للمظاهر كـم هي براقـة خداعـة، وحلـت محل الغيرة مشـاعر شـفقة ممزوجـة بخيبة أمـل حتى أنـتِ ياجميلـة بـل ياجميلة الجميـلات فمدرسـتنا تغص بـذوات العيـون الملونـة الفاتنـات الحسـنوات لكـن بمثـل عـين مـس سـلام لم اصطـدم، في الحقيقـة هناك شـئ آخر أغبطهـا عليه بجانـب عيناهـا الفولاذيتان صوتهـا نعم صوتها فتمتلـك طبقة لا أمتلكهـا تمتلك تلك الطبقـة القوية بمقدرة التلاميـذ في الباحة أن يسـمعونها دون عنـاء منهـا طبقـة صوتها تشـبه إلى حد كبـير طبقة صـوت الرجـال ليسـت مثـلي تشـحذ حنجرتهـا شـحذاً وتنجرح أحبـالي الصوتيـة لأغـير فقـط مـن نـبرة صـوتي الهادئـة فـلا ينـام منـي التلاميـذ ويبقـوا متنبهـين لمـا أشرح متيقظـين لمـا أحـشره في رؤوسـهم، في قـرارة نفـسي تمنيـت أن تكون لي حنجـرة رجل عند هـذا الخاطـر توقفـت متوجسـة خيفة من نفـسي هل حقـاً لينة من

تتمنـى تلـك الأمنية أم امرأة جديـدة لم أعهدها مسـبقاً فقد تربيت أن الأنثـى حـين تتحـدث لا يجـب أن تتحـدث مـن حنجرتها ولا يجـب أن تسـتخدم أحبالهـا الصوتيـة الأنثـى حديثهـا يخـرج مـن بـين شـفتيها حركة شـفتاها هي مـن تخـبر بحديثها، الأنثـى الحقة لاتقهقهـه بصـوت عـالي كالرجـال بـل تكتفـي بابتسـامة هادئـة وإذا بالغـت فمسـموح بضحكـة ناعمـة خفيضة، مـازال صوت أمـي في أذني تكلمـي بصوت منخفـض، وإذا بالغـت في الضحك نهرتنـي تحشـمي في ضحكتك، حتـى في غضبي لم تكن تسـمح لي بالصـوت العـالي أذكرهـا جيـداً وهي تقول ليـس من شـيم الفتاة أن يكـون لهـا صوت عالي قلـت بتبرم ومـاذا لوغضبـت، أجابت أمـي بصرامـة تعـبر عـن غضبهـا ليـس بصوتهـا للأنثـى طريقتها في الغضـب أنـتِ لسـت رجـل لتسـتخدمي صوتـك، عنـد هـذا الخاطـر تسـاءلت هـل أخضـع لتغيـير خفـي هـل سـتختفي لينـة للأبـد وسـتظهر واحدة أخـرى أف ..

لما تتأففين ؟

سألت نجلاء .

ماذا ؟هل تأففت ؟

هزت رأسها تأكيداً.

لاتركزي معي ربما تأففت لا إرادية ...

وأكملـت مـس نجـلاء وهـي تعـود لإقتحامـي في خلـوتي مع خواطـري أو ربـما تجـبرني على عـدم ملاحظـة تلك المـرأة الجديدة التـي استشـعرها تتخلق بداخـلي .....

أنهـا أمريكيـة ولـه منهـا ابنة ومـن حـوالي الثلاث سـنوات لم يـأتِ إلى مـصر وبنـبرة ممزوجـة بالشـفقة مـع تشـفي إنهـا مهملة بل مهجــورة ...

آلمتنـي مشـاعر نجلاء الشـامتة فقلت لهـا أنت مثلهـا فلا داعي للشـفقة المزيفة ...

هـي مهملـة أما أنا محاربـة من قبـل زوجي فرق بـين التجاهل مـن قبل زوجهـا وبين صراعي مـع زوجي ...

تملكتنـي إهانـة شـديدة إن نجـلاء توجـه الإهانـة لي شـخصياً ألسـت مجـرد امـرأة مهجورة وصرخـت أف لافرق كلكـم في الهم واحد ...

ليس واحد التجاهل يعني الكره التام أما الصراع ...

قاطعتهـا بحـدة ظروفكـما متشـابهة وهـذا مدعـاة لإتحـاد مشـاعركما بـدلاً عـن البحـث لمـن الأفضليـة ...

ليست أفضلية أنا لست مثلها قالتها بغرور ..

افهـم جيـداً أنه غـرور مجـروح وكبرياء مهـراق لانفـع منه ولا رجـا، وبرغـم من ذلـك كادت دموعي أن تنهمر سـيولاً من عيني لكنـي تماسـكت وأنا أعـاني من كبـح تيـارات البكاء بداخـلي لذا غـيرت مجـرى الحديـث بسرعـة فربـما يشـغلني الـكلام عن مس سـلام بعيداً عـن طوفان الدمـوع المنهمـر بداخلي ...

فسـألت دون أن انظـر لنجلاء لمَ تتمسـك بالمكوث في مصر لما لاتسـافر معه ومن ذا المجنـون الذي يفرط في الحلـم الأمريكي ؟

بالفعـل سـافرت معـه لبنسـلفانيا ومكثـت معـه سـتة أشـهر لكنهـا لم تطـق صـبراً فعـادت وحجتهـا أنهـا لاتريـد لأولادهـا أن ينشـأوا في مثـل تلـك البـلاد المنفتحـة تخـاف عـلى أولادهـا أن تغتالهـم حريـة تلـك البـلاد، لكننـي أعتقـد أنـه كان يسـكنها مع زوجتـه الأمريكيـة مشـعلاً فتيـل الغـيرة مفتعـلاً صراع بينهـما هو المسـتفيد الأوحـد منـه ولم تطـق هـي ذلـك يومـاً مـا سـمعتها تشـكو بهـذا، أنه عـلى مايبدو بـارع في تأجيـج الـصراع، وتأوهت أواه ياصديقتـي إن الرجـل تلزمـه الحكمـة ليعـدد ولم أرَ منهم إلا واحـداً يفعـل ...

قلت لايهم أنه واحد، المهم أنه موجود .

أنـه ولي أمـر طالـب في المدرسـة كنـت أعطـي ابنـه درس خصـوصي أخبرتـك عنـه سـابقاً أتذكريـه، رجـل فاحـش الثـراء

بالـغ الكـرم شـديد الحكمة كثـير الصمـت مهيب الـكلام لم يكن يذكـر إحـدى زوجاتـه أمـام الأخـرى قـط ولم يقـصر في كرمـه معهـن بـل كان يغـدق عليهـن محتفظـاً بالغمـوض في علاقتـه مع زوجاتـه لا تجـرؤ واحـدة منهـن في معرفـة شـئ عـن غريمتها بل لا يعرفـن متـى موعـده معهـن يكتفـين بـما يعطـي دون أن يطلبن المزيـد لإنـه أصلاً كثـير العطاء أنـه وكأنه يختـال بينهـن بكرمه إن قوامتـه عليهـن هـي كرمـه وحكمتـه أنـه قائـد لا يسـمح لواحدة منهـن بذكـر غريمتهـا أو السـؤال عنهـا كان يعرف كيف يسـكت فضولهـن ويعالج غيرتهـن حتى أنـه حولهن إلى عاشـقات في حرم رجولته...

وشردت نجـلاء بعيـداً قائلـة بصـوت دامـع كـم تمنيـت أن يكـون زوجـي مثلـه ..

وأكملـت كلامهـا ورنـة يـأس تضفـي عليـه شـجن حزيـن صدقينـي لم أكـره زوجـي لإنـه تـزوج غـيري لم أحقـد عليـه لإن قلبـه تملكتـه غـيري لم أحـزن لهـذا الشـأن تجاهلـت غـيرتي لكنـه كان يبكـي مـن عشـقها تـذرف عينـه مـن أجلهـا أمامـي، قال لي أكرهـك وأعشـقها آتنـي بامـرأة في هـذا الكـون كلـه مـن شرقـه لغربـه مـن شـماله لجنوبـه تتحمـل ذلـك أنـه لم يكتـفِ بكرهـي في الـسر وعجـز عـن إخفـاء حبهـا في الـسر هـذا مطلبـي الوحيد ألا يـصرح لم أتحمـل التصريـح آه لم أتحمـل أنـه أمر مـؤلم لا أحب

لأحـد أن يجربـه وعـادت تكـرر الـكلام عـل تكـراره خـلاص لجراحهـا والنـدم أو اللـوم يرنـو عـلى حروفهـا، أكان عليـه أن يعلـن عـن هـذا ؟قتلنـي بهـذا الإعـلان لم يرحمـنِ باخفـاء الأمـر عنـي مـاكان يضـيره لو كتـم حبه عنـي كنت سأسـتمر معـه لكنه أجـبرني عـلى خسـارته لسـت قويـة كفاية لأتحملـه يحكيهـا أمامي ويعـدد مزاياهـا ويباهـي بهـا آلمنـي فليؤلمـه الله

قلت ليس عشقه لها السبب بل غيرتك الفطرية ...

سـألت باسـتنكار وهـل منعتـه من فطرتـه أني اتمرد عـلى ظلمه هـزت رأسـها وكأنهـا تنفضـه منهـا اللعنـة عـلى ذكـراه وامتلأت عيناهــا بالدموع ...

تجاهلـت دموعهـا وقلـت أتركينـا منـه لانريـد أن نقـع في أثم غيبتـه وعقـدة الاضطهـاد، الآن فهمـت لمـاذا تتعامل معنـا هكذا مـس سـلام وللمـرة الثانيـة أدير دفـة الحديـث ناحية مس سـلام فحديـث نجـلاء عـن التعـدد وظلـم زوجهـا أخافنـي فنفـسي تحدثنـي بـأن مصـيري قـد يكـون كذلـك ربما تحكـي نجـلاء عن مسـتقبلي .

بصوت دامع قالت نجلاء تطبق قوانينه علينا ..

ابتسمت بمرارة قائلة لوكان عادلاً لشملنا عدله ..

ووجدتنـي اغفـر لمـس سـلام بـل وأحبهـا فالحـزن يؤالـف الأرواح ويوحـد القلـوب والجـراح تذيـب شـحم العلاقـات وصـدئ المشـاعر ...

ورن الجـرس فخرجـت من الغرفة مشـيت في ممرات المدرسـة ثـم توقفـت عـلى سـور مبناهـا في الـدور الثالـث وأخـذت اتأمل الطـلاب كانت السـاعة حـوالي العـاشرة والنصف موعـد الراحة في منتصـف اليـوم الدراسي كانـوا يتدافعـون من الفصـول أبابيل وأبابيـد كمجموعـة مـن السـجناء فـك وثاقهـم ولـولا صرامـة مـشرفي التوابـير لدهسـوا بعضهـم بعضـاً في طريقهم لنيـل الحرية وسرعـان مـا ضجـت باحـة المدرسـة وعجـت بالفـوضى كنـا في بدايـة ينايـر وفي هذا الشـهر بالذات تصبح السـماء ملبـدة بغيومها مشـبعة بمياههـا حبـلى بأمطـار غزيـرة تملكتنـي حالـة مـن الرضا والتسـامى وتراخت أفكاري المتصارعة ولوهلة شـعرت بسـعادة بـل بسـعادة مطلقـة اغمضـت عينـي ورفعـت وجهـي ليمتـلأ برائحتهـا لأتنفـس نسـماتها وتنتفـخ رئتاي بعليلهـا ...

مـس لينـة هـل تمارسـين أحـد الطقـوس الغامضـة التـي لانعرفهـا هـل تملكتـك حالـة مـن التجـلي ؟

كان ذلك صوت العاملة ..

فتحت عيني بخدر لتقع في عين مستر هشام فقد وقف أمامي مباشرة ولن اتنبه له ولأول مرة أرى عيناه باسمة بنظرات عميقة لامعة بلمعة حادة نافذة ...

امتلأ داخلي برجفة وجفلت روحي وشعرت بأن قلبي وكأنه أصبح حجراً داخل قفصي الصدري ماعدت أشعر بنبضاته بل ارتطامات صخرية ..

اقتربت العاملة مس لينة تريدك مس سلام ..

وقلت لها بصوت بالكاد خرج من بين شفتاي المتحجرتان تمام سأذهب لها ...

دخلت غرفة مس سلام وقد عبقت بمزيج من روائح البن والنسكافيه والنعناع وقد تنفست منها شهيقاً أخفي به ارتجفاتي الداخلية ...

وفي الغرفة وجدت أربع من المعلمات ...

قالت بحدة مس سلام هناك أخطاء مطبعية في البوكليت وسنسلمه غداً لذا ستضطرين للعمل حتى الرابعة لتنهيه ...

لكن سلمته من أسبوع، حضرتك من تأخرت في مراجعته وتحمليني وزر تأخيري اليوم عن بيتي وأولادي ...

العمـل عمـل وهـو يتطلـب منـك المكـوث حتـى الرابعـة أو حتـى العـاشرة مسـاءً لا يهـم المهـم سـير العمـل ..

لكنها ليست غلطتي ..

فاحتدت لا يهم غلطة من ...

نفذي ماطلب منك ..

ولو أنهيته قبل الرابعة هل أذهب ؟

لن تنهيه قبل الرابعة ...

فشـلت في إخفـاء ضجـري وكتـمان غيظـي ووليـت وجهـي شـطر البـاب لأخـرج ...

فأوقفتني، مس لينة مخصوم من راتبك مقدار يوم ..

لم ألتفت وقلت تمام ...

وفـور خروجـي مـن الغرفـة تهالكـت عـلى أول سـور قابلني واسـتندت بمرفقـي عليـه للتـو يـا امرأة كنـت أتعاطـف معك لا تسـتحقين ذلـك أيتهـا المجنونة المسـتبدة ورحت أحـدث نفسي لم تخصـم منـي يوم ثـم إن اليوم كلـه بعشرين جنيـه إنه مبلـغ تافه ما تصنـع العشريـن جنيهـاً في زماننـا هـذا ؟ لوكنت أعلم أن دراسـة سـتة عشر عامـاً نهايتها وظيفـة بيوميـة مقدارها عشريـن جنيهاً لما تكبـدت عناء الدراسـة من الأصل ولما سـومت نفـسي عذابها ...

وليت المهزلة توقفت عند هذا المبلغ بل ينظرون لنا وكأننا لا نستحقه أنهم وكأنهم يتعطفون علينا أن وظفونا أصلاً لقد فعلوا بنا جميلاً بأن انتشلونا من غول البطالة وأنقذونا من فمها المفترس يتحكمون بنا ويهددوا بالفتات الذي يلقونه لنا ومن المفترض أن ندفع نحن ثمن جميلهم في توظيفنا ...

وتساءلت بمرارة ألا يوجد قانون يحمي العاملين في القطاع الخاص من الإستغلال، أعدم أرباب القانون من وضع دستور لا يسمح بتجاوز الحد الأدنى من الراتب على أن يبدأ بألف جنيه فأصحاب تلك المدارس لا يدفعون رواتبنا من جيوبهم أو من عرق جبينهم بل يدفعها ولي الأمر كاملة فلمَ يسرقوها ويحجبوها عنا وتوضع في جيوبهم أو كروشهم لا يهم، ألا يوجد هناك محاكمات تحاكم أصحاب المدارس الخاصة لنهبهم حق المعلم ولا أعلم أين نقابة المعلمين من هذا ؟بل أين وزارة القوى العاملة ؟أين مكتب العمل ؟أين وزارة التربية والتعليم من كل هذا ؟أم أننا فعلا نعيش في الغابة القوي يأكل الضعيف والضعيف ينهب الأضعف ؟إن كانت إجابة السؤال بالإيجاب إذن فلا أحد يعاتب أحد على النهب والسرقة بل والقتل ولا أحد يطالب أحد باستحضار المبادئ واستجلاب القيم والتعامل بالدين أو التجمل بالإخلاق فليسقط القناع إذن وليصبح الافتراس والنهب على المكشوف لاداعي للتجمل ...

وإن كانت الإجابة بالنفي فأين التطبيق أم أن أصحاب تلك المدارس نجحوا في إستمالة النقابة ووكالة الوزارة التعليمية أو حتى الوزارة نفسها وهيئة تراخيص البناء و....و.... إلخ ومعروفة هي وسائل الاستمالة دفع المبالغ الطائلة تحت أي مسمى ضرائب، رشاوي، تسهيل استخراج تصاريح وأوراق ...ويذهب المعلم وحقه للجحيم ويتبعه الطالب وولي أمره بعد نهب المال من جيبه أيضاً للجحيم أو اللهيب لا يهم وليعيش صاحب المدرسة مبجلاً محترماً نافذاً فوق القانون هذا إن كان موجوداً حقاً رغم شكي في وجوديته (القانون).

كظمت غيظي...

حانت مني إلتفافة لا إرادية فوجدت مستر هشام يراقبني، إذن فنظراته مقصودة وليست مجرد قدر أو نزوة بل شئ آخر...

غادرت السور مفارقة تلك العينين هاربة من حصار نظراتهما وذهبت لغرفة الكمبيوتر أراجع البوكليت،

تنهدت ليتبخر استيائي فأحتاج لتبخير الغليان بداخلي حتى أكمل عملي ..

وبعد ساعات انتهت أبخرتي وقد بدأ الهدوء التدريجي يغتال الغرفة من حولي ألتفت يمنة ويسرة كنت وحدي في

الغرفـة تملكتنـي رهبـة غريبـة ذهبـت للنظـر مـن السـور كانـت المدرسـة فارغـة وفراغهـا موحـش مخيـف لإنهـا ماوجـدت إلا للإمتـلاء بالتلاميـذ مشاكسـتهم وأصواتهـم وزعيـق المعلمين ...

عـدت للكمبيوتـر نظـرت للسـاعة فـإذا هـي اقتربـت مـن الرابعـة تفصلهـا عـشر دقائـق عنها كـدت أغلـق الجهـاز توقفت بغتـة عندمـا وجـدت مـس سـلام تقـف بجـواري ارتجفـت أصابعـي عـلي الفـأرة فكأنهـا هبطـت مـن السـماء أو شـقت عنها الأرض ...

تجاهلت اضطرابي وسحبت كرسي وجلست بجواري ...

ألتفت لها وابتسـمت ابتسـامة مضطربة وعدت لشاشـتي وبعد أن كـدت أغلـق الجهـاز عـدت لفتـح البرنامـج وهربت منهـا فيه جلسـت بجواري وشـعرت بعينهـا الرصاصيتان تخترقـاني وخيم سـكون مزعـج ضاربـاً بأوتـاده بيننـا كنـت أفكـر في خـرق هـذا الصمـت لكنهـا وقد تكشـف لهـا عقلي وكأنـه صنـدوق زجاجي تطايـر فيـه الأفـكار كأوراق تعصـف بهـا الريـح فتكشـفت لهـا، قطعـت الصمـت بحـدة قائلـة لينـة تحتاجـين لبعـض التقـوى في عملـك فهـي تنقصك...

شـعرت بإهانـة مـن كلامهـا فهـو ليـس أمـر بالتقـوى بقـدر ماهـو اتهـام لي في عـدم تأديـة عمـلي عـلى الوجـه الأكمل،فقلـت

وقـد ارتجفـت نبرة صـوتي نحن دائـماً من تطلـب منا التقـوى ...

من أنتم تكلمي عن نفسك ..

تنهـدت بتأفـف لأخفـي خـوفي ثـم قذفـت السـؤال لمَ أنا من تطلـب منـي التقـوي ؟ اطلـب منـك أن تتقـي الله في ؟

وهـل لم أتـق الله فيـك مـا دخـل تقصـيرك في العمـل بالتقوى مـن جانبـي تجاهك ؟

ألتفـت إليها وانغمسـت عيني في عينيهـا الرصاصية أتعلمين.. أولادي وحدهم الآن في البيت وهم في سـن السادسـة والخامسـة وأكيـد هـم جوعـى لإنهم يعـودون مـن المدرسـة فيطلبـون طعام الغداء ...

لست وحدك جميعنا يضحي من أجل العمل...

لكـن التضحيـة لابـد وأن يكـون لهـا مقابـل يسـتحقها، أنتـم تخصمـون حتـى مـن المقابـل الزهيـد ...

قاطعتنـي وقد اشـتد اللون الرصـاصي في عينها فأكسـبها نظرة مخيفة بل شرسـة لمَ تنظرين للمقابل بأنـه لابد وأن يكون مادي ...

ببسـاطة لإننـا لسـنا في مؤسسـة خيريـة نحن نعمل في مدرسـة خاصـة مصروفـات الطالـب فيهـا تتعـدى الثمانيـة آلاف جنيهـاً سـنوياً بينـما راتب المعلـم فيها لا يتجاوز الستمائة شـهرياً بنصاب

حصـص مكتمل بـل تعـدى الإكتمال بكثير وبشـكل غـير قانوني ثـم تتطلبـين مني أن اتـق الله ...

لينـة قالتهـا بصـوت خافـت حميمـي نحـن لا نعمل مـن أجل الراتـب بـل لمـآرب أخـرى، أنا اعمـل من أجـل اثبـات ذاتي.

ألتفت بحدة هذه المرة ونظرت لها وقد ضيقت عيني..

فقاطعـت نظـراتي قائلة ليسـت مجرد جملة إنشـائية كـما تظنين، بـل لها حـظ مـن الحقيقـة، أواه يالينة لقـد مكثـت في البيت عشر سـنوات ربـة بيت مخلصـة وزوجـة متفانية حتـى أنني نسـيت أني قـد حصلـت عـلى شـهادة بكالوريـوس وشـعرت أني ولـدت أم وربـة بيـت وزوجة ولا قيمـة لتلك الشـهادة مقابل الثـلاث مهام تقلدتهـا بحـب وإحـتراق لكـن قوبل كل هـذا بالإهانـة والنكران بـل بـالإذلال حتـى أننـي تغـيرت ووصلـت لـذروة الضعـف وقـوة المهانـة فتسـاويت بامـرأة أميـة لم تتلـق تعليماً قـط وعوملت كخادمـة لا تعـرف إلا الإنحنـاء، العمـل كمعلمة وحـده من قوم انحنائي .

لكنـك مازلـت تلـك الخادمـة الفرق هو لمـن تقدمـين الخدمة، ومِن مَـن تتلقـين الأوامر .

نظـرت لي وقـد زاد اللـون في عينيها نفـاذاً حتي لكأنهـما خلقتا معدنيتـان وخيـل لي أني رأيـت رأس الرصاصـة تنفذ منهـما لكنها

هـزت رأسـها بهـدوء يتنافى مع بـروز القسـوة في عينيها تمـام اتفق معـك لكن خدمتـي هنا تقـدم لي وجاهـة اجتماعيـة، وخصوصية ماديـة، وإكرامية ذات .

ابتلعت ريقي وأنا أقول لا يهم مجرد مظاهر .

لينـة لمَ لا تتوقفـي عـن التحريـض وتكتفـي بالحصـول عـلى خبـزك (تقصـد الراتـب)...

ليس خبز بل فتات .

المهم أنه يبقيك على قيد الحياة .

قاطعتها مصححة بل الرمق فقط وليس القيد .

اتركي العمل مادام أن الراتب يعترضك .

ابتسـمت قائلـة هكـذا المعارضـة لا ينتـج منها إلا الـترك أولا يتحقـق بهـا العـدل أبداً؟

ليس هنا وليس لك ..

لمَ ؟

أجابـت ببطء وبأسـلوب يميـل للمسـاومة المذلـة لإنـه تبعـاً لقانـون العـرض والطلـب تعـج الاسـكندرية بملايـين مثلـك حلمهـم الوحيـد كرسـيك هـذا ويحملـون نفـس شـهادتك بـل

أعـلى وبالتأكيـد تعرفين إجابة الشـطر الأول من سـؤالك (لمَ ليس هنـا) وغمـزت بعينهـا ...

احمـر وجهـي بفعل حـرارة الإهانـة وارتعش صـوتي وأنا أقول اللعنـة عـلى مـن علمـك الإهانـة ودأب عـلى معاملتـك بهـا فلـم تتعلـمِ سـواها تمارسـيها بحرفية تلميـذ نجيب .

كـزت عـلى فكهـا بعنـف وعـصرت أصابعهـا مشـكلة قبضـة قويـة قائلـة ولمَ هـو وليسـت هـي هـل أنـت فيمنسـت ؟

لا ..

قاطعتني تعلمت منها لا منه ...

وفـرت مغـادرة الغرفـة وكأننـي أشـهرت أمامهـا مسدسـاً أو لمحـت معـي سـكيناً ...

تعجبـت مـن طريقتهـا وبعصبيـة أغلقـت الجهـاز أمامـي وحملـت حقيبتـي وفـررت أنـا الأخـرى مـن المدرسـة ...

وفي الطريـق تجاهلـت مسـتر هشـام عـن عمـد واسـتغرقتني مـس سـلام ...

إذن لجوءهـا مصـدره امـرأة وهـي صادقـة فإهانتهـا لنـا مصدرهـا كيـد ونحـن معـشر النسـاء بارعـين في حيـك المكائـد وحبكهـا وتعقيدهـا وتضخميها ثـم تصديقها لا كائن ينافسـنا في

تلـك البراعـة ثم ذاك المديـح والتفضيـل الذي تغدقه عـلى إحدانا دون الأخريـات إنـما هـو أسـلوب نتعامـل إذا قدر لنـا ووجدت الـضرة به هو شـائع بـين الضرائر وتسـاءلت بداخـلي أبينهن غيرة مختلفـة عـن الغـيرة المعروفـة ؟ أمـا أسـلوبها الثالـث هـو الثرثـرة كثـيرة الـكلام لا يتفـوق عليها أحـد في هـذا وكثرة الـكلام أنواع نقلـه، فضـه، الغيبـة، النميمة، الشـائعة وكانت تجيدهـم جميعا إنها امـرأة من الطـراز الأول هرمونات الذكـورة غائبة عنهـا والتعليم لم يفلـح في إخضـاع عقلهـا وتشـذيبه فظلـت امـرأة لا تتحكم بها إلا مجموعـة مـن عواطـف هوجـاء وبالرغم مـن كل هـذا أجدني أحبهـا أو بـالأدق ألتمـس لهـا أعـذاراً لمَ لا أكرههـا رغـم الإهانة والظلـم هـل لإنهـا مشرفـة و في سـلطة أعـلى منـي وهنـاك عقدة بـين السـلطة والعامـة، بـين الاسـتبداد والخضـوع بينهـم بغضـاء لكـن هنـاك خيـط ميكروسـكوبي مـن عاطفـة يجمعهـم، أم لإنها امـرأة والمرأة ليسـت كالرجـل في حربها فالمرأة تحـارب بالقلب أما الرجـل فيحـارب بالعقـل وربما حـرب العقل أشرس مـن القلب فحـرب العقـل تولـد كراهية أمـا حـرب القلب تولد مشـاحنات لا تلبـث أن تـذوب بالذات في بيئات العمـل فالمصلحة تذيب أي مشـحانات وتغفـر أي هفـوات وتلتمـس أعـذار هكـذا المصلحة تقلـب العـدو صديق والصديـق عـدو، أم أغفر لها للسـبب الذي لا أريـد البـوح بـه أنها مهجـورة مثـلي، وربـما أغفر لها لإنهـا مجرد لاجئـة مثـلي حـرب الحيـاة الطاحنة أجبرتهـا للهروب مـن جحيم

البيـت لا لا البيـت دائـماً جنـة لكـن هنـاك مـن يحولـه لجحيـم، البيـت لا يمكـن أن يكـون جحيماً،

أواه تبقـى لي خطـوات قليلـة وأصـل لجنتـي الوارفـة لبيتـي وضعـت المفتـاح في ثقـب البـاب وقبـل أن أديـره فُتـح البـاب أنه زوجـي يسـد الجـدار بجسـده القوي وكـدت أتهالك عـلى صدره لكنـه ابتعـد مسرعـاً متجنبـاً لهفتـي وبحـدة سـأل أيـن كنت ؟

دخلـت وأغلـق البـاب خلفـي جلـس عـلى الأريكـة منكـس الـرأس مسـود الوجـه فجلسـت إلى جانبـه وجلـة مـا بـك ؟

ابتعـد فـورا عنـي وكأنـه يخشـى أن أصيبـه بمـرض خطـير وصرخ أيـن كنـت ؟

نظرت إليه بدهشة عارمة في المدرسة .

قاطعنـي صارخـاً السـاعة الآن السادسـة وينتهـي دوامـك في الثانيـة والنصـف ضيفـي إليهـا ربـع سـاعة للوصـول إلى البيـت لنجعلـك تصلـين البيـت في الثالثـة عـصراً أيـن ذهبـت الثـلاث سـاعات ؟

أحقاً تشك بي ؟

صرخ أجيبي .

وقبـل أن أفتـح فمـي بالإجابـة كانـت لطمـة قوية تهـوي على وجهـي لتدفعنـي عـلى زجـاج المكتبـة الـذي سرعـان ماتهشـم متسـاقطاً وقبـل أن استفيق من اللطمـة عصرني إلى بقايـا الزجاج المهشـم مقربـاً وجهـه مـن وجهـي وقـال وهـو يـصر عـلى فكيـه حتـى كادا أن يتحطـما مـن ضغطـه عليهـما لـن تكـونِ إلا ملكـي ووحـدي أعـرف كيـف أعذبـك لتكـوني كذلـك .

ثـم تركنـي وأخذ حقيبـة سـفره وأنطلـق خارجاً أغلـق الباب ورائه بعنـف صارخـاً مقرفة.

سقطت أرضاً فلم تسطع قدماي على حملي .

وانهمـرت في بكاء محموم وكل جسـدي يرتعـش إهانة وألماً ...

أذكـر هـذا اليـوم جيـداً كان الأسـوء في حيـاتي كلهـا فقـد أتهمـت في شرفي وأهـدرت كرامتـي وأهـين جسـدي وظللـت طريحـة الأرض لعـدة سـاعات لا أشـتهي طعامـاً ولا أسـطع نومـاً ولا أقـدر حتـى عـلى الإسـتحمام كنـت أشـعر بوهن شـديد وتدفقـت عـلى رأسي كل المشـاعر السـيئة الخذلان الخيبـة الوحدة الهجـر الظلـم العـري والتيـه وكأننـي وسـط صحـراء جـرداء لا حمايـة لي مـن هجـير حرارتهـا ومـن قسـوة رمالهـا أو توحـش أرضهـا لا أعلـم كـم مـن الوقت مـر وأنا على هـذه الحالـة لكنني أجـبرت عـلى النهـوض مـن كبـوتي لتحقيـق طلبـات أطفـالي،

فأجبت حاجاتهم البيولوجية الجسدية من مأكل ومشرب لكن لم أستطع وقتذاك متابعة دروسهم ولا أعلم متى غشيهم النوم لا أذكر شئ من الوقت وكأنني فقدت الزمان أنا التي تحرص على التاريخ وتحسب كل شئ تبعاً للساعات والدقائق والأيام خطة المنهج، ميعاد الامتحانات، انتهاء الترم، تسليم الأوراق، بداية الحصة، توزيع الدرس على دقائقها بالتعادل، وقت الحضور والإنصراف، أدوية أطفالي، امتحاناتهم، ميعاد نومهم واستيقاظهم فالمعلم ما هو إلا مجموعة دقائق تتعاقب وتتوالى، كنت أجلس على الأريكة كصنم حجري أصم بعد أن انتهت الدموع مني ولا أذكر كم من الوقت انتهى قبل استيعاب عقلي لما حدث كل الذي أذكره أنني غبت عن العمل لمدة أسبوع كامل وكان أكثر وقت حرج في العام الدراسي كله فهو أسبوع مراجعة ما قبل الامتحان الدوري وأذكر أنني ذهبت إلى المدرسة بعد أن تم إرسال جواب تحذير لي ونصه سيتم الرفد أن طال الغياب للأسبوع القادم .

وبالفعل عدت للمدرسة يوم الأحد ككائن محنط مخشي عليه من الإنقراض مثل الكائنات التي أدرسها لطلابي وكنت أتعامل في المدرسة كآلة صماء لا مشاعر لها وليس لها أحاسيس، توقفت عن الإستماع، عن الكتابة، عن المجاملة، عن السخرية بل حتى عن الجلوس في غرفة المعلمين، أنهكت نفسي في

العمـل بـين الفصـول لا أكاد آخـذ هدنـة أو وقـت راحـة حتـى أوقـات الفـراغ أصبحـت أفنيهـا في الباحـة أشرف عـلى الطـلاب أو بـين ردهـات المدرسـة أو في اللجـان أو ربـما مختبئـة في المكتبـة دافنـة رأسي في إحـدى كتبهـا والـذي لم أعي منه حرفـاً فقد فقدت شـهيتي في القراءة وإن قـرأت أعجز عن فهم ما أقـرأ وربما فقدت قـدرتي عـلى الفهـم حتى روادتنـي رغبـة في الهرب مـن العمل من البـشر مـن طـلابي مـن زملائي مـن أولادي مـن زوجـي لكن إلى أيـن ؟ثـم أننـي لا أريـد الهـرب مـن كل هـؤلاء أنـا أريـد الهـرب مـن نفـسي وإلى متى سـأظل مجـرد هاربـة ؟أخلقت لكـي أهرب؟ كنـت هاربـة حلـم فأصبحـت هاربـة رجـل إلى متـى الهـرب؟

***

بعد مرور شـهر عصيـب بدأت العـودة لحالي القديمـة تدريجياً مقـررة أن أنفـي زوجـي برمتـه في دهاليـز النسـيان لـن أفكـر فيه كـما أخـبرت نجلاء أن تنسـى فقـد حـان دوري منه لم يكـن قراراً سـهلاً ولم يكـن تنفيذه هينـاً وبالطبـع لم يُنفذ ...

أول شـئ فعلتـه أن أخـذت عهـداً عـلى نفـسي وأبرمـت اتفاقـاً مغلظـاً معهـا رافعـة قبضتي عاليـاً لن أبكـي بعد اليوم لن أسـمح بالدمـوع باغتيـال نضـارة عينـي لـن أسـمح لهـا بتغضـين ملامح وجهـي سـأجففها مـن منابعهـا سـأنضج وأكـف عـن ذرف الدمـوع ..

ولم أعـي وقتهـا أن هـذا العهـد المغلـظ سـيكون وبـالاً عـلي ونقطـة التحـول التعسـة في حياتي ظننـت غافلة أننـي أودع الحزن للأبـد لكـن لم أعلـم أننـي أفتـح صفحـة جديـدة معه ..

وبالطبـع رجعـت لشـغفي الأزلي القـراءة كـما عـدت للكتابة فبعـد أن أسـدل الليـل سـتائره السـوداء المخملية خلـوت إلى جهـازي أكتـب ...

بداخـلي ثـلاث نسـاء يتصارعـن بـضراوة الأولى المـرأة الأم بعذابهـا وقلقهـا، بآلامهـا وخوفهـا، بضعفهـا وهشاشـتها، في الحقيقـة تلكـم المـرأة أصابتنـي بـالأرق فلـم تسـتطع رأسي صبراً عـلى الوسـادة حـين يتنابهـا وسـواس المسـتقبل مسـتقبل أولادها في مصاعـب تعليمهـم ومتاعـب مسـؤوليتهم بـين حنانهـا عليهم وقسـوتها ليقومـوا بواجباتهـم، بـين حبهـا لهـم وكرههـا حـين لا يقبلـون مسـاعدتها ويتمـردون عن طاعتهـا، بين أملها بهـم وآلمها منهـم، الأمومة ليسـت سـوى ألم مخلـوط بالعذاب لكنهـا خلقت وهـو غريـزي فيهـا تحلـم بطفـل وتصرخ مـن آلامـه تحملـه وهنا عـلى وهـن تغذيـه بدمائهـا وتربيـه بـألم فـوق ألم وليـس لهـا إلا التحمـل هكـذا كتـب عليهـا ...

والثانيـة المـرأة العاملـة بأنانيتهـا المفرطـة وذكوريتهـا الفظـة بذاتهـا التـي قدمتهـا عمـن سـواها باسـتقلالها وقوتهـا الماديـة بتنافسـيتها وصراعهـا مـن أجـل إزاحـة كل مـن يعرقلهـا بحربها

الطاحنـة التـي تخوضهـا كل يـوم فقـط لمجـرد تثبيـت مكانهـا وتحقيـق مكانتهـا وتوثيـق اسـتحقاقها بأحلامهـا المكـدرات وأمنياتهـا المعلقـات بطموحاتهـا المنهـكات بأهدافهـا المتلاحقات وبطولاتهـا الواهيـات...

والثالثـة المرأة المنعزلة الهادئـة صاحبة النظرة المتعالية والبسـمة السـاخرة تعلـم أن كل هـذا مجرد صراع محمـوم عبثي تافـه اختلق اختلاقـاً وأنهـا لـن تخوضـه وأن الحيـاة مجموعـة مـن مبالغـات ومجامـلات وتحكـمات ومهاتـرات ومـداولات وتقديـرات سـبق تدوينهـا في سـجلات، و كل شـئ سـيفنى ولـن يبقَ منه شـئ وأن كل منـا كتـب لـه قـدره وحفـظ في لوحـه ولـن تفيـده حروبـه في شـئ سـينهك ويرهـق ولـن يحصـل إلا على ماقسـم لـه ...

والثـلاث يتشـاجرن ويتعاركـن وتعلـو أصواتهـن ويصطـك صراخهـن بعقـلي، بمقدرتي أن أتحملهـن أن أتكيف مع صراخهن لكـن الأسـوء تخلق امـرأة رابعة جديـدة بداخلي امرأة لا تشـبهني بـل أفرزتهـا الظروف والأقـدار إنها ببسـاطة امرأة سـيئة وهي من سـتجرني للنهاية ...



إبراهيم ...

ها قد بدأت نهاية الترم الأول بدأت أتعامل مع إبراهيم بطريقة غريبة لكنها نجحت فمثلاً إبراهيم لو جلست صامتاً لحصة كاملا سأمنحك باكيت من البطاطس المرققة (الشبيسي) في البداية طرحت الأمر بطريقة ساخرة لكنني وجدته امتثل لما أريد راغباً في الحصول على ما سأمنحه كشف لي هذا جانبه الطفولي لذا إستغللته أفضل استغلال صحيح أنه بدأ يضيق ذرعاً بتلك الطريقة لكنها في النهاية أكسبتني وقت ومماطلة وفي ذات يوم ...

كنت أعاني نفسياً وما استطعت وضع حد بين ما أعانيه وبين ما أعمله، وما قصم ظهر البعير إن مس ربوة (مشرفة الإحتياطي نفحتني حصتان إحتياطي لفصل الثالث الإعدادي فقد بدا نجاحي مع إبراهيم يؤتى ثمار وأرادت استغلال هذا النجاح إعترضت لما طلبت وإحتدت هي أمام إعتراضي حتى أن أصواتنا بدأت تعلو متخذة نبرة صراعية وللقدر كانت مس نجلاء تمر بنا فجذبتني إليها قائلة مس ربوة لا تقلقي نفذ الأمر ...

كززت على أسناني نجلاء ما دخلك بالأمر ..

تنحت بي جانباً لينة أفهم سبب غضبك ولك الحق فيه ...

كلماتها لامست ضعفي حتى أن الدموع آلمت مقلتاي،

لينـــة ســأخبرك بــسر أعلــم أن إبراهيــم ســبب رفضــك للإحتياطي فهـو تلميذ مرهق إجعليه يقرأ قرآن وستندهشـين ...

تعلقـت عينـي بعينهـا وقلـت بنـبرة صـوت ضعيفـة لأخفـي دموعـي الظاهـرة فيها نجلاء لسـت بمـزاج جيد لتلقـي مزاحك إبراهيـم يقرأ قـرآن ...

رفعـت إحـدى حاجبيهـا بزهـو وقالـت بانتصـار فقـط جربي ألسـت معلمـة علـوم ثـم أومـأت برأسـها وأضافـت والتجربـة خـير برهـان، ثم نظـرت في عيني برجـاء قائلة بهمـس لا تقعي في يـد مـس ربـوة، لا تعلقـي في شراكهـا إنها ليسـت مثلنـا ...

لم أفهم عبارتها الغامضة فقلت ماذا تعني ليست مثلنا ؟

فهـزت كتفيهـا بغمـوض لا مبـالي ليسـثت مثلنـا وحسـب، حـاولي تجنبهـا، هيـا اسـتمتعي بالتجربـة ..

سأجرب وأطلقت زفير يشي بعدم الإقتناع ...

رن الجرس ...

حملـت خطـواتي حمـلاً ووصلـت بهـا إلى الفصـل في البداية عم الهـرج والمـرج حـين علمـوا أنهـا احتياطـي ثـم اقترحـت عليهم، مارأيكـم لتمـرروا الحصـة بهدوء وأعدكم سأتوسـط عنـد المدير

ليمنحكـم الثانيـة ألعـاب، عـم الحـماس والهتـاف والصفـير ثـم بـدأوا يسـكتون بعضهـم البعض وفي ثـوانٍ انتظـم الفصل فقلت بلهجـة آمـرة غـير واثقـة إبراهيـم اقرأ مـن المصحف سـمعت أن صوتـك عذبـاً نظـر لي برفـض لكـن زملائـه طلبـوا منـه القـراءة فاسـتجاب بزهـو وبدأ يقـرأ ..

وجـن عجبـي لقـد هـدأ الفصـل لا بـل خشـع حتـى لـو أنني رميـت إبـرة لسـمعت رنـين إصطدامهـا بـالأرض فجلسـت عـلى المكتـب جاعلـة يـدي متـكأ لـرأسي المنهـك وبدأت اسـتمع انسـياب صوتـه بالآيات وانسـابت لهـا دموعـي ووجدتني أغرق في نوبـة بـكاء صامـت وإحمر وجهـي إختناقـاً بدموعـي بالتحديد قـرأ الآيـة (وأصبـح فـؤاد أم موسـى فارغـاً إن كادت لتُبـدي بـه لـولا أن ربطنـا عـلى قلبهـا لتكون مـن المؤمنـين) لطالمـا أثرت بي سـورة االقصـص تأثيراً شـديداً، لطالمها سـمعتها لكـن لأول مرة اسـمع هـذه الآيـة بهـذا الجـمال طريقتـه في نطـق الأحـرف ربطنا عـلى قلبهـا وكأن روحـه مـن تقـرأ وروحـي من تعـي، يـا الله إنه لا يقـرأ بفمـه وأنا لا أسـمع بـأذني، لأول مرة أفكـر في الأية رباط القلـب، هـل في الابتـلاءات نحتـاج لربـاط القلـب ؟ إذن القلب هـو أول مـن يفـزع عند نـزول البـلاء لمَ ليـس رباط عقـلي لمَ ليس روحـي ؟ هل القلـب أكثرهم هشاشـة وأميلهم تفككاً وأشـدهم تبعثـراً ؟هل هـو أضعفهم ؟ مـا لمقصود بالرباط تحديـداً ولمَ خص

بـه القلـب ؟ لقـد تكرر المعنـى في آية أخـرى (وربطنا عـلى قلوبهم إذ قامـوا فقالـوا ..) إذن هـو لم يخصـص الربـاط لقلب امـرأة فقط بـل بقلـوب الرجـال أيضاً، يـا لهذا العضـو المختبئ بـين جوانحنا المختفـي داخـل صدورنا المسـجون داخـل أقفاصهـا، وعاد عقلي يـمارس هوايته إثـارة عواصف الأسـئلة وانطلق غبارها يشـتتني، يطلـق عقـلي الأسـئلة ليـس تشـكيكاً ولا حتـى بحثـاً عـن إجابة بـل يقينـاً وثباتـاً إنهـا طريقتـي في الإيـمان، تحريـر عقلي للأسـئلة، بعـد أن هـدأت وأفرغـت شـحنتي وهـدأت عواصـف عقـلي خلـت أننـي حـين أرفـع رأسي سـأجد الطـلاب متحلقـين حولي يسـألون عـن حـالي لكـن ويـا للعجـب وجـدت أغلبيـة الطلاب وقـد أنـزوى كل منهم وبـدأت الدموع تنسـاب مـن أعينهم وكل منشـغل في خشـوعه وعـم الفصـل سـكوناً تامـاً وكأنـه خلا من ساكنيه ...

ورن الجـرس ولأول مـرة في حيـاتي المهنيـة أغضـب لرنـين الجـرس وإنتهـاء حصـة ..

لكـن التلاميـذ لم يعبـأوا لرنينـه ولم يتحركـوا أو يتوقفـوا عـن ذرف الدمـوع وإبراهيـم لم يسـتطع أن يكمـل قراءاتـه فقد صمت باكياً ...

بعـد برهـة مـن الصمـت الخاضـع المتعبد صـاح بـدر مس هل أعجبـك صوته ...

هـزرت رأسي بـل إحساسـه نظـرت لإبراهيـم وتأملتـه طفـلاً ضعيفـاً باكيـاً فعلمـت أن هـذا الإحسـاس المرهـف المتقـد وراءه ألم عظيـم ..

تركـت مكتبـي وجلسـت بجانبـه وقلـت بهـدوء وكأننـي أتحـدث لأخـي، إبراهيـم لديـك مـا تعانيـه .

تنهنه وقال أختي ماتت .

أخفيت تأثري وسألت متى ؟

مذ خمس أشهر .

كيف؟

بمرض السرطان قضى عليها .

رحمها الله كم عمرها ؟

سبع سنوات .

أهي أختك الوحيدة ؟

نعم.

صمـت لأسـتوعب ما قال عـلى مهل وليرتـاح هو مـن إجهاد الإجابـة ثـم قلـت إبراهيم أعرفـك رجـلاً، قاطعنـي والرجل من حقـه أن يبكي .

طبعاً لست آمرك بالكف عنه، ليكن الله عونك في تحمل ألم فراقها صل من أجلها أكثر لها من الدعاء فهذا ما تحتاجه هي، عاد لمقاطعتي لكني أحتاج البكاء ..

أها لهذا طلبت منك أن تكون رجلاً إفعل ما تحتاج هي وليس ماتحتاجه أنت .

نظر لي بخبث دامع وقال إذن سأدعي لها وأنا أبكي، ابتسمت وقلت فلتقم بالأمر إذن الدعاء الباكي أكمل كلامي أو البكاء الداعي .

ضحكت هذه المرة وقلت ألن تكف عن المشاكسة ؟

فابتسم ولم يجب .

***

ورقة في كتاب ...

كما جدول حصصي أستلم من مستر هشام فصل الخامس الإبتدائي في الحصة الرابعة ..

حين رآني قادمة خرج تاركاً لي الفصل تعمدت ألا تلتقي نظراتنا ...

حـين هممـت بوضـع دفـتر تحضـيري وكتبـي عـلى المكتـب وجـدت كتـاب، في أعـلى غلافـه الخارجـي كتـب بخـط جميـل وبطريقـة مائلـة هشـام عبـد الغنـي ..

هممـت بفتح الكتـاب لكن قد أبرمـت عهداً لنفـسي ألا أعبث بأشـيائه، لفـت انتباهـي اسـم الكتـاب، مظهـره القديـم، غلافـه العتيـق الباهـت بأطرافـه الممزقـة التـي تـشي بإلحـاح مسـتخدمه وطول إسـتعماله ..

بالمجمـل لم يكـن الكتـاب مـن تلـك الكتـب التـي يُعتـاد على وجودهـا في مثـل هـذا المكان مثـل الأضـواء وسـلاح التلميذ بل وسـم باسـم غريـب اسـمه الموضوعـات ويبـدو أنه يحـوى بعض ألغـاز العربيـة وتفصيلاتها وشـذوذها هكـذا كتب عليه إنه يشـبه المعـاصر في الرياضيات ...

حملـت الكتاب فوجـدت ورقة بيضـاء تحته، في البدايـة أهملتها ربـما هـي هنـا بمحـض القـدر فنحـن في فصـل مـن الـوارد جداً أن تعثـر عـلى الـورق في أي مـكان وفي كل وقـت، لكـن شـعور غامـض داخـلي لسـت أعـرف كنهـه أوحـى لي بإلتقـاط الورقـة، فتحتهـا .

انتصفتها جملة واحدة من كلمتين،

أنتِ وجعي ...

ارتبكـت هـل تلـك الجملـة موجهـة لي، الخط هو نفسـه ذانك المكتـوب بـه على غـلاف الكتاب المهـترئ الغريب، وقفـز لذهني تسـاؤل لمَ لم يضعهـا في الكتـاب أيعلـم مسـبقاً بعزمـي فلـن أفتح الكتـاب ؟ وقبـل أن تتقافـز المزيد من الأسـئلة اقترب منـي تلميذ مسـتئذناً مـس هل أرجعه لمسـتر هشـام ؟

بالتأكيـد أجبت وأنـا أعبر قنطرة مشـاعري وأولـج إلى الشرح دسسـت الورقة في جيـب معطفي،

للقـدر البحـت درسي عـن القلـب فقلـت نعتـبر أن القلـب يشـبه قبضـة اليـد ويأخـذ حجمهـا هـذا يجعلنـا للوهلـة الأولى نصـدق أن القلـب حـين ينبـض فـإن تلـك القبضـة كلهـا تتحرك حركـة إيقاعيـة منتظمة تشـبه الطـرق كطـرق عقارب السـاعة أو طرقـات قطـرات الميـاه لكـن الحقيقـة أن القلـب مجـزأ إلى بطينان سـفليان وأذينـان علويـان كل منهـما ينبـض على حـدة بانفراد عن الآخـر فلنفـترض أنـه بينـما الأذينـان ينبسـطان ينقبـض البطينـان والعكـس صحيـح و بالرغـم مـن الحركـة المجزأة لجـزأي القلب المختلفـان إلا أنـه يتحـرك كليـاً أي في الوقـت الـذي يتحـرك فيه الأذينـان والبطينـان حركـة منفصلـة ينبـض القلـب بشـكل كلي تتعانـق نبضاتـه المنتظمـة مـع حركتيهـما المتعاكسـة لـذا لـو دققنـا في فيديـو لحركـة القلـب سنشـاهد حركـة القلـب الفريـدة بجلاء أنـه يشـبه الـدوران المـزدوج لـلأرض ففـي الوقـت الـذي تدور

فيه الأرض حول محورها تدور أيضاً حول الشمس تماماً كما القلب ينقبض الأذينان، ينبسط البطينان، في الوقت ذاته ينبض القلب وكأن لديه حركتان مزدوجتان، حركة داخلية متمثلة في البطينان والأذينان وحركة خارجية متمثلة في عضلة القلب الخارجية أو ما نطلق عليه الجدر القلبية، شعرت بأن الشرح تسامى بروحي واختلط مع نبضات قلبي وانفعال خلايا عقلي وانتقل هذا لنبرات صوتي فإلى التلاميذ فجلسوا ينصتون بخشوع وقد سكنت كل جوارحهم تنصت تلك النبضات الربانية الصنع، الفريدة المتخلقة داخل جوانحهم كل دقيقة بل كل ثانية، قفزت الدهشة من عيون التلاميذ لتشي بالبراءة التي تكتنزها أرواحهم والتي دأبت المشاغبات الطفولية على تلويثها وإخفائها عن عيني ولوهلة شعرت بأنهم جميعاً أطفالي وأنني بحاجة لإحتضانهم وضمهم بجانب إرتجافات قلبي فتختلط نبضات قلبي بنبضات قلوبهم الغضة المتواثبة داخل صدورهم وفي خضم هذا الصمت الخاشع والسكون الخاضع هتفت فتاة سبحان الله يا مس كل هذا يحدث في القلب ..

ابتسمت وقلت نعم سبحان الله وبداخلي هتفت الحمد لله أخيراً حققت الهدف الوجداني لي حوالي الخمس سنوات في سلك التدريس أدون هذا الهدف كتابة في دفتر التحضير لكنه اليوم تحقق عمليا حينما هتفت الفتاة بتسبيح الخالق العظيم،

تفلتـت به ألسـنتهم أخـيراً، تقدير الخالـق العظيم، إننـا نقدر كل شـئ بداية مـن وزيـر التعليـم مـروراً بالموجهين واضعـي المناهج نهايـة بمديـر المدرسـة إلا الخالق الأعظـم لا نقدره حق قـدره ربما بسـبب عظيـم غفلتنـا، عظيـم جحودنـا، عظيـم كفرنـا، عظيـم إهمالنـا، تكبرنـا، ضعفنـا، وغرورنـا، حديثـي الصامـت هـذا مـع نفسي بينـما أراقـب التلاميذ وهـم ينقلـون الدرس مـن لوح الـشرح جعـل روحـي تناجـي بصمـت، يـالله فلتغفـر لي ذنبـي وتقصـيري في حقـك، يـارب أنـت إلهـي الملـك الخالـق المتفضل وأنـا أمتـك الضعيفـة المعذبـة بذنوبها، المذنبـة بجحودهـا، الآثمة بخطاياها...

رن الجـرس خرجـت مـن الحصة مختلفـة عما دخلـت خرجت وبسـبب الورقـة الغامضـة بسـخرية وعبـث أتخبـط بمشـاعري أتلاطـم في أمواجهـا بـين الإقـدام والإحجام، الخشـوع والعبث، الرضـا والسـخط، العقـل والجنـون، الغمـوض الوضـوح، الخضـوع والتمـرد، الجحـود والعرفـان، الفـرح والحـزن،

وضعـت يـدي في جيبـي فارتطمـت مجـدداً بالورقـة أخرجتها وهربـت بهـا إلى كهفـي المنعـزل المعمـل قلبتهـا تلمسـتها قـرأت الجملـة مـرة واثنـان وثلاثـة حاولـت إسـتنطاق الورقـة وأثـيرت زوبعـة التسـاؤلات اللحـوح هـل أنـت لي أم لغـيري ووقعتـي في يـدي خطـأ ؟إن كنـت لغـيري فكيـف لجملتـك أن تخاطبنـي أنـا

؟من أدراك بالوجع ؟كيف تعرفين أنني أحتاجك أحتاج أن أكون لأحدهم حتى لو وجعاً، ربما لو خط على الورقة كلمة أحبك، كوني لي، أحلم بك|أكرهك، أي شئ سيخط عليها لما سيكون أبلغ أثراً على مثل تلك الجملة، لو حقاً هي لي إذن فهو يفهمني لا ليس مجرد فهم بل إنه ببساطة يكشف أعماقي أنه أختصرني وأختزلني في جملة واحدة أنني أحب أن استمع لأوجاع أحدهم فكيف لو كنت أنا هو الوجع ووجعاً لرجل، أي جنون هذا ؟

ماذا لو كانت ليست لي ووقعت في يدي بالخطأ شعرت بالغيرة لن أوارِ شعوري حقاً آلمتني الغيرة هل أحبه حتى أغير عليه أم أنني أغير منها تلك المجهولة التي لا أعلم عنها سوى أنها وجع، ربما خرجت الورقة من الكتاب دون قصد، ربما لم يكن قدرها أن تكون على المكتب أصلاً بل خفتها وقلة إتزانها من أخرجها من الكتاب وأنزلها بإثمها للمكتب ربما أهدئ من جذوة غيرتي وأطفئ اشتعالها بذلك المنطق المغلوط أنني أمارس التدليس على نفسي،

في خضم غيرتي وحيرتي وحمأة أضطراباتي نسيت أني امرأة متزوجة لا يجوز أن يحتل عقلها رجل آخر ولو بمجرد التفكير ليس مسموح لها أن يراود عقلها أسئلة ما عن رجل ما، نسيت أني امرأة مكبلة بمواثيق وعهود لرجل ويجب أن أوفي لها أعلم

أن هـذا الرجـل قـد هجـرني وعذبنـي وأهانني وقـد تحملت من قسـوته الشـئ الكثير لكـن هـذا ليـس عـذر لعقـلي أن يلتمـس تلـك الطريقـة في التفكـير وليـس مـبرر أن أخسر نفـسي من أجل قسـوة رجـل لا يسـتحق أن أضحـي باحترامي لـذاتي لأعاقبه على قسـوته وذاب قلبـي وقـد أخذتنـي الذكريـات مأخذاً بعيـداً حين حملتنـي عـلى جناحيهـا وأرجعتني للـوراء للماضي، المـاضي الذي أحسـبه سـحيقاً وكأنـه لم يمـض منذ الأمـس فقط بل شـعرت أن هـذا المـاضي لم يعـد يخصنـي بل يخـص أحداً غـيري ...

أنـا امرأة إسـكندرانية صرفـة، كمعظم الإسـكندرانيون تجري في عروقنـا بجانـب دماءنـا المصريـة دمـاء أخـرى غـير مصريـة رماهـا المـوج عـلى مدينتنـا السـاحلية الهادئـة بغوايـة عـلى سـطح البحـر الهائـج، من هـؤلاء جدتي لأمـي فهي امـرأة يونانيـة جميلة تشـبه تمامـاً تلـك التماثيـل الإغريقيـة القديمـة أنفهـا الحـاد بطرفه المميـز، عيناهـا الزرقـاوان كميـاه البحـر وشـفتاها الرقيقتـان وكأنهـما خطـان رفيعـان مرسـومان على الوجـه رسـماً، والحاجبان الأشـقران الأحدبـان فـوق العينـان بترفـع وإسـتعلاء، لا أتذكـر أقاويلهـم عنهـا بالتحديـد كيف وصلـت جدتي إلى مصر أبسـبب حـركات التجـارة القديمة بين مـصر واليونان أم السـبب الحقيقي جـدي فهو صيـاد في البحر المتوسـط ولم تكن الحـدود البحرية بين البلديـن بمثـل تلـك الصرامـة يكفيـك أن تعتـلي مركـب صغـير

غـدواً ورواحـاً بـين البلديـن وربـما جـدتي هـي بقايـا الإغريـق وقـت حكموا الإسـكندرية وجعلوهـا عاصمة لهم ربـما هي بقايا هـذا العهـد، تماماً كـما خلـف الإحتلال الفرنـسي خلفـه البقايا في دميـاط وخلـف الإحتـلال الإنجليزي خلفـه البقايـا في المنصورة وخلـف اليونـان بقاياهم في الإسـكندرية وترك الـتُرك بقاياهم في مـصر كلهـا متمركزيـن في القاهـرة وخلـف العـرب آثارهـم في الصعيـد المـصري فمـصر فيهـا بقايـا مـن كل الـدول لكـن وكـما عادتهـا أذابـت كل تلـك الأجناس وصهـرت كل تلـك الأعراق وأمتزجـت دماءهـم بـالأرض فـما عـدت تعـرف مـن أي أصـل أتـو، المهـم هـم دائـماً ذيـل القافلـة ونهايـة كل عهـد، أذكـر أن جـدي حـين يغضـب منها لإنهـا لم تطـع إحـدى أوامره يقـول لها أنـت بقايـا موج سـكن الشـاطئ في غفلة مـن حراسـة البحر أنت هـي الموجة النافـرة، وأحياناً يقـول لها نسي البحـر إحدى أمواجه عـلى الشـاطئ نسـيانه متعمـد حتـى البحـر لم يتحملـك لكـن أنـا أحـاول أن أتحمـل، أرد عـلى كلامـه الآن هونـاً ياجـدي و من ذا الـذي يطيـق أن يكـون طائعـاً على طـول الخط ؟المهـم لنعد لجدتي أحبـت تلـك المـرأة صيـاداً إسـكندرانياً لفحتـه آشـعة الشـمس ونحتتـه ملوحـة البحـر الـذي اسـتوطنه وعلاقة بين رجل مسـلم وامـرأة مسـيحية بالطبـع لـن تقابـل بالترحيـب أو المباركـة بـل بالمعارضـة والرفض الشـديد، لكن صلابة جـدي وإصرار طباعه

مع عناد جدتي وتمسكها بعواطفها انتصرا في حربهما بإعلان جدتي إسلامها ومن ثم تم قبول تزويجها بجدي وأقام أهل جدي العرس بغياب تام لأهل العروس فلم يحضر ذاك العرس سوى أهل جدي الإسكندرانيين، علمها جدي العربية والشعائر التعبدية الإسلامية ودأب على تلقينها العقيدة شيئاً فشيئاً فقد كان رحمه الله رجلا ديناً مستقيماً غيوراً يشتعل غيرة ففرض عليها الحجاب بل تغطية الجسد بالملس والوجه بالبرقع كما كان الزي سائداً ذلك الزمان ومع تقدم الأزياء طلب منها إرتداء البالطو الطويل مع دخول بعض التحديث في عالم الأزياء لكن جدتي لم تحتاج للحجاب لإنها محتجبة في بيتها ليس بحكم الفرض بل بأغلال طبعها فهي امرأة انطوائية هادئة لم أذكر إني وجدتها تنظر من الشباك (المشربية) أو (البلكون) ولم تخرج من بيتها قط بل يحمل جدي لها احتياجاتها المنزلية ويبدو أن جدي بدا سعيداً بهذا الطبع الإنعزالي الإنطوائي لجدتي فقد كفاه طبعها هم غيرته الشعواء فأخمدت بطباعها، لم يكن لها في الزيارات ولا الإجتماعات ولايمتعها التسوق أو التنقل بين البضائع والفتل في الشوارع، لا تمل الصمت بإمكانها أن تبقى مطبقة الشفتين ليوم كامل، لها طقوسها المقدسة بتفاصيلها الصغيرة الموسومة في ذاكرتي كأن تعكف على قراءة آيات القران بعد كل فجر تقرأها بتهجيء

وتأتـأة ويـوم الجمعـة مقـدس أن تقـرأ سـورة الكهـف، تواظـب عـلى صلاواتهـا بتأني وخشـوع عبادتهـا المتلـذذة بالمواظبـة عليها، تخبر بـأن دخولهـا الإسـلام لم يكـن مجـرد عاطفـة طارئـة ونـزوة سريعـة أو هـروب مفاجـئ بـل تزوجـت مـن جـدي لتحمـي إسـلامها الـسري فقـد أسـلمت قبـل زواجها منـه بطريقـة سرية لكـن ولخوفهـا مـن أهلها اعانهـا الله بقلـب رجل مسـلم، فنجان شـاي العـصر لا تتغـير مواعيـده ولا تؤجـل بل تحتسـيه على مهل وعيناهـا الزرقـاوان غارقتـان في التأمـل، آه لـو عـاد بي الزمـان لسـألتها أيـن تذهـب بعقلهـا أو إلى أيـن يذهبهـا عقلهـا ؟أي خواطـر تلـك التـي تسـحبها لسـكونها فتمكـث سـاعة تجرهـا سـاعات صامتـة على أريكتهـا لاتتكلـم غارقـة في تأملاتها ؟وكما أسـلفت لم تكـن جـدتي مثل النسـاء ليـس لهـا في الثرثرة النسـائية ولا المهاتـرات ولا المشـاجرات و كأنهـا رجـل ناسـك لايغـادر صومعتـه أو راهبـة أوقفت حياتهـا على محرابها، جـدي كان متعلماً ليـس تعليـماً كـما المتعـارف عليـه الآن تعليـم جامعـي أو رسـمي بـل تعلـم ردحـاً مـن الزمـن في الكتـاب كمثـل أقرانه ثـم إلتحق بمدرسـة حصـل منهـا عـلى الشـهادة الإبتدائيـة ورغـم تعليمـه المتواضـع إلا أنـه خولـه للمقـدرة على القـراءة بطلاقـة وكأنه ولد يقـرأ، كان عاشـقا للإطـلاع مثقفـا، في مكتبتـه قـرأت أول كتاب وعـلى رفوفهـا وقعت بغواية عشـق القـراءة تعج مكتبتـه بالكتب

مـن كل نـوع وبكل لـون وفي كل فـن ولكل علم بجانـب أخواتها مـن المجـلات والجرائـد رفوفهـا تنـوء بـما تحملـه من كتـب وعلى أن مـوارده المادية قليلـة إلا أنـه لايبخـل بإنفاقها عـلى الكتب بل إن جـدتي كـم مـن مـرة أسـمعها تلومـه وتعاتبـه لإنـه يسـتدين أحايـين كثـيرة ليسـدد ثمـن كتـاب أعجبـه مـا طـاق صـبراً عـن تركـه دون إقتنـاء وكأنـه مدمـن لا يتحمـل جسـده غيـاب تأثـير جرعتـه، قـرأت في مكتبتـه تلـك الكتب المصفـرة الـورق المكتوبة بآلـة الطباعـة القديمـة والتي ماعدنـا نراها بل نسـمع أوصافها في الكتـب والروايـات كملكـة فرعونيـة إندثـر ملكهـا فـما تبقـى لنا سـوى القـراءة عـن آثارهـا، و مـن حرصه عـلى كتبـه يجلدها ولا يطـوي أوراقها ولـو لتعليم الصفحة مشـدداً على أن أغسـل يدي جيـداً قبل لمس كتبه والويـل والثبور أن أمسـكني متلبسـة بطعام وأنـا داخـل مكتبته فأذكـر أنه رآني ذات عشـية أقضـم تفاحة وأنا أمسـك براويـة قـد غرقـت فيهـا وقـد إلتبسـت قضـماتي بكلـماتي فماعلمـت أيهما لهـما مذاق التفـاح فعاقبنـي بمنعي مـن قراءاتها بل ومـن دخـول مكتبته شـهراً وأذكـر أن هذا هو أقسـى عقـاب نلته طـوال حيـاتي وأني مـا حييـت لـن أنـسَ الألم الـذي خلفـه هـذا العقـاب القـاسي وبالتأكيـد لم أتحملـه فتوسـلته وبكيتـه وألححت في ذلي وندمـي وكلـما ناحت كرامتـي وبختها وصممـت أذني عن نحيبهـا لكـن جدي قابـل إلحاحي المـصر بالرفض مؤخـراً فهمت

أنـه لا يعاقبنـي بقـدر مـا يختـبر عشـقي لمكتبتـه يتلـذذ بمنظـري المتيـم الذليـل للكتـب فقـد كان يعاني نفـس عذابي أو ربما يشـاهد شـبيهته المؤرقـة بإدمانهـا، وأخـيراً لانـت صلابـة قلـب جـدي وانصهـر لبكائـي الغريـب أنـه لا يطيـق الدمـوع في عينـي بـل يسـارع بتجفيفهـا وإزالـة أسـبابها أمـا مـع كتبـه تكشـف لي طبعه الغريـب أنـه لا يطيـق عـلى كتبـه الأذى أو ربـما أراد أن يعلمنـي درسـاً قاسـياً كتبـه هـي الخـط الأحمـر فباسـتطاعتها تحويله لحجر صـوان إن مسـها الإهمـال، وأخـيراً سـمح لي باسـتكمال الروايـة بـل ومنحـت مفتـاح المكتبة وهي منحـة لم تحـدث في تاريخ جدي كلـه وكنـت عظيمـة الفـرح كثـيرة الـسرور والحبـور حتـى أننـي أذكـر يومهـا أننـي ظللـت أتقافـز عـلى أرائـك جـدتي مـن فـرط جـذلي وغبطتـي وظلـت هـي توبخنـي عـلى إزعاجـي وصخبـي المجنـون، لم تكـن مكتبـة جـدي كـما يصـور لكـم الخيـال مكتبـة عـالم فخمـة تـرص فيها الكتب بشـكل أنيـق ورفوفها من خشـب الـزان الفاخـر أو الأبنوس الصلـب أو السـنديان المخلد لا لم تكن كذلـك قـط، بـل مكتبـة صيـاد هـاو عاشـق، جدرانهـا مقـشرة الدهـان لعجـز مـادي عـن ترميـم المتسـاقط والمتهالـك بفعـل الزمـان، تثقبهـا مسـامير ضخمة وخوازيـق حديدية لتثبـت عليها بضـع رفـوف خشـبية ليسـت مصقولـة أو مدهونـة وبعضهـا متقـوس مـن ثقـل الكتـب فوقـه التـي تـرص فوقهـا هكـذا دون

رقم مسلسـل ودون ترتيب بل بعشـوائية حسـب المهـم فالأهم أو الأضخـم فالأقـل وربـما رصـت على حسـب الأحـدث قـراءة أو الأقـدم أو عـلى حسـب تحمـل الخشـب المتواتـر لثقلهـا المنظـوم بعشـوائية، ولإن الرفـوف لم تكـن متسـعة للكتـب فقـد رصـت بقيـة الكتـب في صناديـق كرتونيـة مغـبرة أو جمعـت لبعضهـا البعـض بخيـط الصنـارات وبقايـا دوبـار الشـبكات أو بالحبـال المتهالكـة لبقايـا الشراعـات والمراكـب، وكنت أتعـذب حين أفك عقـد الخيـط لأصـل لبعـض الكتـب بخاصـة لـو كانـت كتـب دوستويفسـكي أو توليسـتوي أو ماتصـدره مطابـع الهيئة المصرية للكتـاب، روايـات الهـلال، الـدار القوميـة للطباعـة والنـشر، وكتـاب الجمهوريـة الـذي كان يحـوي قصـص قصـيرة، ومطبعة الأهـرام كان مـاضي موغـل في القـدم الغريـب أنـني الآن حـين أتأمـل تاريخـي القرائي أجـدني تتلمذت عـلي يد فطاحـل الكتاب مثـل يحـي حقـي، توفيـق الحكيـم، إدوارد الخـراط، جابـر عصفـور، يوسـف السباعي، مصطفـي السـباعي، إبـن تيميـة، أحمـد ديـدات، أبو الأعـلى المـودودي، عبدالرحمن رأفت الباشـا، أحمـد شـوقي، أحمـد مطـر، سـعد مـكاوي، بهـاء طاهـر، باولـو كويلـر، أحمـد عمـر الشـيخ الأيرتـري، الطيب صالح، إحسـان عبـد القـدوس، العبقـري العقـاد، المنفلوطي، وتعلمـت الهجاء عـلى كتابات يوسـف عبـد التواب ونجيـب الكيلاني بـل لا أبالغ

إن كتبت أنني كنت مازلت أتعثر في قراءتي وأنا اقرأ في كتب الجاحظ والأصفهاني صحيح لم يصل فهمي إليهم لكن ذائقتي وحواسي بل حتى لساني تأثر بما قرأت هذا في طفولتي وأعتاب المراهقة أما في بدايات الثانوية كنت اقرأ لأجاثا كريستي وأحمد خالد توفيق، صنع الله إبراهيم وسلسلة عبير وروايات الجيب، أورهان باموق والغريب أن في شبابي بدا إنحدار مستوى الكتابة ومعها سقط تاريخي القرائي فأصبحت اقرأ ل... لاداعي لذكر الأسماء منعاً لفتح أبواب جهنم المغلقة سأكتفي بقول ثلة من الكتاب الأحداث خطوات أقلامهم على الورق ليس ثابتاً كأجدادهم الكتاب، وقع حروفهم ليس رزيناً، لغتهم رديئة سطحية ليست في جمال وعمق لغة أسلافهم، أفكارهم مهترئة مهلهلة مستهلكة ومقلدة وكأن قريحتهم ضيقة شحيحة الجود أم متكاسلة عن رهق الإبداع، قضاياهم ليست كوزن قضايا سابقيهم حتى أفكارهم وأهدافهم منحصرة في المتعة والترفيه والتسلية وكأن القراءة أصبحت لمتطلبات اللهو بعكس أسلافهم الكتاب كانت الكتابة مأخوذة على محمل الجد تثقل كاهل من يقترب منها وتلفح روحه، أما الآن أصبحت مطية لتحقيق شهوة كاتب(مجازاً) لشهرة سريعة كفقاعة صابون، وأرباح مادية لدار نشر وطبع ما عادت الكتابة فن وماعاد النشر هدف وماعادت

القـراءة قضيـة، ومـا باتـت كتابـة الروايـة حلـم لإن الحلم نفسـه أصبـح سـهلاً مسـتباحاً الـكل يـراوده ويمارسـه فقد تحـول حلم كتابـة الروايـة لموضـة، للجميـع الحـق في ارتدائهـا إن كنـت غني بالموهبة سـترتدي المـاركات (البراندات) وإن كنـت فقير بالموهبة فهنـاك التقليـد وهـذا ما جعلني أتراجـع للوراء فما قيمـة الحلم إن أصبـح مشـاع، ولولا عشـقي للقـراءة وتربية قديمة ليـس لي منها فـكاكاً لتوقفـت عنهـا تمامـاً، آه يـا للوجـع الكامـن بـين وهـج البدايات ورماد النهايات ...

سـأتخطى أوجاعـي الآن سـأتخطى حنينـي للـماضي الأصيـل الثابـت في الأرض المتفرع للسـماء، سـأعود لجـدي فبرغم تعصبه لكتبـه إلا أنـه يخبئهـا لي أذكـر أنـه في إحـدى زيـاراتي لـه لم أعرج عـلى المكتبـة وتعجـب من سـلوكي فهو يعلـم أنني أقـضي إجازتي الصيفيـة معتكفـة في مكتبته المغـبرة العتيقة أتنفـس أوراقها العطنة المعفـرة وأشـم كلماتهـا المعطـرة الزاكيـة، فقـال لي بأسـى لينة لقد أحـضرت كتبـاً وروايـات جديـدة هل عزفـت عن القـراءة ؟

لا ليـس عـزوف ياجـدي لكـن مزاجـي ليـس رائقـاً كنـت وقتهـا قـد اجتـزت بعـض عتبـات مرحلـة المراهقـة .

فقـال لي مـزاج القـارئ لايهتـم بالمـزاج، فالقـراءة مزاجـه، وابتعـادك عـن القـراءة لـن ينقـي مزاجـك بـل سـيزيده تلوثـاً

وتعكيرا، وابتسمت عيناه قائلاً بحماس طفولي هيا أدخلي وأطلعي على ما جلبت من الكتب .

وبالفعل وقتها دفعني حب الإستطلاع وفضولي المحموم بالكتب دخلت ولم أخرج بالكاد يرونني في أوقات الأكل ولو أن جدي يسمح بدخول الطعام لغرفة المكتبة لأكتفيت بالشطائر عن الخروج منها أو أنه لو سمح بخروج الكتب منها لأصطحبتها معي للمائدة، لا يهم قد تفهمت صرامته وغفرت قسوته أصلاً كنت أنسى الأكل بداخل المكتبة فتأخذني الكتب في غياهبها فتنسينى إحتياجاتي الجسدية ربما لهذا أحتاج أن أكتب فالكاتب ماهو إلا إعادة تدوير لما قرأ، والكتابة ماهي إلا إظهار الكلمات المكتنزة داخل قلوبنا، المتشبثة بالبقاء داخل تلافيف عقولنا، المهجورة في مناطق نائية بالدماغ، المنزوية في أركان منعزلة من أرواحنا، الكتابة هي الحاضر لماضي القراءة، ستبقى الكتابة حاضر بينما ستظل القراءة محتلة للأزمنة الثلاث، ماضي مكتنز وحاضر دائم ومستقبل لانهائي ...

وهكذا تخلقت أمي من أم متأملة كثيرة الخلوة بعقلها وأب قارئ دائم الخلوة بكتبه من ذلك الاتحاد الغريب والمزيج المختلف ولدت أمي بجسد يوناني ودماء إسكندرانية جمعت بين عقل جدتي وثقافة جدي بين تزمت جدتي وتحفظها

وتحـرر جـدي المطلـع، بـين صرامـة جـدتي وتديـن جـدي بـين إنعزاليـة جـدتي في بيتهـا وجدي اللاهـث بين أمواجه على سـطح قاربـه، بـين عادات جـدتي وتقاليد جـدي، وظهر هـذا علي وجه أمـي مزيـج من الإثنـين فقـد ورثت شـفتا جـدتي الرقيقـة وأنفها اليونـاني بنهايتـه المميـزة والبـشرة البيضـاء المتوهجـة بالـوردي لم تأخـذ بـشرة جـدي الحنطيـة القانيـة بفعـل حـرارة الشـمس وملوحـة البحـر لكنهـا أخـذت عنـه عينـاه الجميلتـان الكبيرتـان بلونهـما الغني وأهدابهـما الكثيفـة وحدودهما الكحيلـة ورثت عنه العـين المصريـة ومن جـدتي ملامحهـا اليونانية، أعـرف أن لي خال لكنـي لسـت أذكره كثـيراً فلم أعاصره سـوى في طفولتـي المبكرة الأولى كل الـذي أعرفـه عنـه أنه النسـخة المطابقة لجدي في شـكله الجسـدي لكنـه النسـخة المطابقـة لجـدتي في طباعهـا كان شـديد التطـرف لهـما بعكـس أمـي المزيج الهـادئ المعتـدل أعـرف عنه أنه قتل في سـن شـبابه الباكـر في الخمـس والعشرين من عمـره تقريباً فقـد كان معارضـا سياسـياً تعـرض للإختفاء القـسري وبعد فترة وجيـزة قتل هكـذا ببسـاطة إختفى خـالي وأصبحت أمـي وحيدة بـلا إخـوة وتوغل جـدي في بحـره وبـين أمواجـه لا يـكاد يغادر البحر إلا إلى شـط الكتب متوسـداً غبـار مكتبتـه وملتحفا رفوفها القوسـية أمـا جدتي فتعمقـت داخـل عزلتها وغرقـت في هدوءها المتأمـل مسـتخدمة عقلهـا تاركـة جميـع جوارحهـا الأخـرى يخيم عليهـا السـكون حتى عيناهـا ماعادت تشـع بريق الحيـاة بصمت

بـل خبـت آشـعتها وأصبحـت مجـرد مـرآة ملونـة لا تفضي لشـئ ولا تعـبر عـن شـئ وكأنهـما مجـرد نافـذة مغلقـة لا تـكاد تتبـين منهـا شـئ، تنتمـي جـدتي لفئة البـشر الذيـن كلما توغـل بهم الألم تعمقـوا في صمتهـم وكأن صمتهـم قـشرة قوقعـة سـميكة تخفـي داخلهـا محار الحـزن ...

ثـم خلقـت أنـا فحـان دوري مـن تـرس التوريـث أورثتنـي أمـي شـكلها عيناهـا الواسـعة الضاجـة بالحيـاة والشـقاوة والتفكـير الملحاحـة في بحثهـا العاشـقة للإطـلاع وأنفهـا اليوناني وفمهـا الصغـير وبشرتهـا الورديـة الهادئـة، والأهـم توريثـي عشـق الكتـب دون عمـد أنكـب عليهـا بـكل جوارحـي وتعـبر الكلـمات حـواسي الخمـس فأتذوقهـا وألمسـها وأشـمها وأراهـا تتصـارع أو تتعانـق أمامـي ويزين عقـلي الصور أمامي مسـتخدماً خيـالاً متوهجـاً بالصـور خصبـاً بالمشـاهد وأمتزجـت الكتـب بي فـما عـدت أعـرف هـل عشـت طفولـة حقـة ومـررت بمراهقـة متمـردة أم أن كل ماعشـته كان حيـاة مكتوبـة بالكتـب وإننـي مـن شـدة شـغفي وتعلقـي بهـا أصبحـت هـي مـاضي الـذي لا أمتلـك غيره، كـما ورثت شـيئاً خاصاً بأمـي وأبي أورثـاني مهنتهما كونهـما معلـمان ولا أعلـم هـل أصبحـت معلمة بفـرض التوريث أم بحكـم القـدر فأمـي معلمـة للإنجليزيـة بدايـة تعيينهـا في مدرسـة في مدينة رشـيد ثـم إنتقلت للإسـكندرية لكنها في رشـيد

تعرفت بأبي معلم رياضيات، وأبي يتيماً وحيداً وكأنه شجرة انبثقت عن الأرض وإخترقت قشرتها الصخرية باحثة عن النور لست أعلم عن أهل أبي شيئاً سوى أن له خالاً أستاذ في جامعة الأزهر له كتبه وأبحاثه ورسائله بل وبرامجه فقد أفردت له إذاعة القرآن مساحة له فيها ويقال أن خال أبي هو من أقترح اسمي فأسمي لا يعني اللين والرقة بل هو كلمة من كلمات القرآن العظيم ومفردة من مفرداته المقدسة وهو من أثنى عزم أبي عن السفر لفرنسا رافضاً أن يعمل أبي في مزارع الكروم هناك، ولكن كما إقتضت العادة أو الحاجة ففي بدء عهد الثمانينات انتعش نظام إعارة المعلمين لدول الخليج أعير أبي وأمي إلى السعودية وهناك تلقيت تعليمي الإبتدائي والإعدادي وهكذا ربتني أمي بمزيجها المتنافر المتعانق، عقلها المتحرر بتحفظ، قلبها الكتوم بنبض، وروحها بتأملها الصامت ثم طباعها الصارمة بعزم وأخلاقها الجادة الدؤوبة فهي نتاج أبوين يأخذان الحياة على محمل الجد بالتالي هذا ما أصبحت عليه أمي لم تكن تعرف من العبث والميوعة ولم ترث عن النساء ثرثراتهن ومهاتراتهن وصراعاتهن كانت مثل جدتي لها فلكها الذي تدور فيه أما أبي كان روتينياً بحتا مثال للموظف الرتيب منتظم كانتظام دوران عقارب الساعة لكنني لم أتلق تربيتي عن أبي وأمي فقط ولا حتى عن كتبي فحسب بل عن مجتمع جديد مجتمع السعودية وهو المجتمع الذي

يحبو نحو الإنفتاح كنا في الثمانينات مازال المجتمع السعودي منغلقاً متحفظاً متقوقع حول ذاته العربية السعودية الإسلامية رافضاً أية محاولة تخرجه عن صدفته متمنعاً عن أي استجابة لكن جيلي (جيل الثمانينات)في السعودية قد اتجه للتعليم بخاصة البنات فأصبحت المدارس تعج بالبنات الراغبات في التعلم مطمحهن الجامعة وهذا لم يمنع وجود بعض الحالات الفردية لزواج البنات في السنة الإعدادية (المتوسطة) الأخيرة وبعضهن في الثانوية قد يحضرن إلى المدرسة وهن حوامل لكن الجامعيات أصبحن كثيرات، تلقيت تعليمي على يد معلمات سعوديات لكن من علمهن كن معلمات مصريات فجميعهن تتلمذن على أياد مصرية لذا كن يدعين لهن أو يدعين عليهن على حسب ما تلقين من تربية، لكن بالمجمل كن يحفظن لهن الجميل ويكنن لهن الإحترام ويتعاهدهن بالوفاء كان جيل يشهد للمعلم المصري ويشهد لمصر أنها الرائدة في مجال التعليم ولم تكن أمي إلا واحدة من هذا الجيل الذي علم وكذلك أبي بدأت شخصيتي تتأثر بمجتمعي السعودي الجديد بجانب دمائي الإسكنديونانية بدأت تضخ دماء سعودية فتأثرت بنظامهن الإسلامي في منع الإختلاط بين الجنسين، هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو نظام الحسبة، الحفاظ على المرأة بل من شدة حرصهم عليها منعوا قيادتها للسيارة، تحكيم الدين الإسلامي في كل شئ صحيح أن هناك بعض الممارسات

الخارجة عن الدين المتميعة تحدث في الخفاء لكنها في المجمل لم تكن سوى ممارسات فردية في غفلة من عين القانون، لم تكن تلك القوانين الإسلامية كبتاً أو قيوداً كما أشيع بل كانت مبعث راحة وأمان فالحدود والخضوع لنظام ما مريح لمن يعيشون تحته كنت أحب أن أذهب بالعباءة السوداء والحجاب وغطاء الوجه للمدرسة وحين ندخل كانت هناك غرفة بجانب الباب نخلع عباءتنا بها ونكشف شعرنا ونسفر عن زينتنا وتبرجنا المراهق ثم نخرج منها إلى مجتمع نسوي خالص منغلق على أسراره متحفظ على مكائده وممارسته كنت أحب ذلك الغموض الذي نمارسه على الرجال نمارس حريتنا كاملة بعيداً عن أعينهن اللاهثة النهمة، أذكر أنني حين كنت أسافر لمصر في اجازات الصيف أتلعثم بالكلمات ويحمر وجهي خجلاً حين أتحدث مع رجل و أتصبب عرقاً لو صادف أن نظر لجسدي رجل نظرة سيئة كانت أعين الرجال تؤلم جسدي فقد أعتاد على الحرية داخل العباءة ولم يعتد أن يكون معذباً بقيد سياط النظرات وهو خارجها إعتدت أن أركض في الملاهي والحدائق غير عابئة فالجميع نساء مثلي لهن أجساد كمثل جسدي كانت مشيتي ركضاً وقفزات ووثبات وخطواتي منطلقة غير عابئة بشئ أما حين نسافر كانت أمي لا تمل تأنيبي وتأديبي وتعليمي المشية الصحيحة حفاظاً على هزات نتوءات جسدي من نظرات الرجال بالمختصر

جربت أن أحيا في قيود السعودية فكانت تلائمني أكثر من حرية مصر لكن مصر كانت بالنسبة لي مكتبة جدي متهاوية الرفوف فكلما استجد صيف تجدني عند جدي قابعة بين الرفوف وكانت الكتب التي اقرأها متغيرة على حسب نضجي فالصيف الذي قرأت فيه ليوسف عبد التواب الصيف الذي يليه كنت اقرأ لتوليستوي ثم الصيف الذي يليه اقرأ للعقاد أو ليوسف السباعي ثم الصيف الخامس لإحسان عبد القدوس وهكذا وكنت أعود للسعودية بعد كل صيف وقد تغيرت نضجت أعواماً وتغيرت سنيناً فالكتب قد أنضجتني وجعلتني أكثر تفتحاً وغموضاً وعمقاً حتى أنني شعرت أنني أكبر من أقراني وأن هناك فجوة بدأت تنبثق بيني وبينهن بل بيني وبين مجتمعي السعودي بل والمصري على حد سواء ومع كل صيف تزيد الفجوة إتساعاً حتي أصبحت وكأنني على حافة هوة وكل من حولي على الحافة الأخرى فلا أنا أستطع الإقتراب فأسقط وهم يتهيبون الإقتراب أو المجازفة وحين شعرت أني سأدخل في دوامة عزلة جدتي بدأت أخفي فجوتي داخلي وأمارس البساطة والبراءة واللا فهم أمام أقراني كنت أخشى عدم الإندماج بين لينة القارئة النهمة للكلمات المتخمة بالكتب والروايات والجرائد وبين لينة تلميذة الإبتدائية ثم الإعدادية لذا قررت أن أخفي واحدة وأظهر الأخرى الساذجة الطفولية الطيعة لم يكتشف أحد الثانية إلا معلمة من معلمات

اللغـة العربيـة كنـت وقتها في الصـف الأول الإعدادي إكتشـفت الكامنـة بداخلي عـلى صفحات كراسـة التعبير (مـادة التعبير) في البدايـة لم تصـدق أنني مـن أكتـب فحققت معـي من أيـن تنقلين مواضيـع التعبـير عبري من نفسـك وليس عن النقل مـن الكتب، في المـرة الثانيـة وبختنـي وأكثـرت مـن تقريعي وحـين كنت أنفي اتهامهـا اتهمتنـي مجـدداً بـأن أمـي تسـاعدني نفيـت أيضاً فـما كان منهـا إلا أن أختبرتنـي ولـن أنـسَ إختبارهـا لي مـا حييت

اسـتدعتني إلى غرفتهـا وطلبـت منـي أن أكتـب موضـوع عن القـراءة واسـتغرقت في الثرثـرة مـع زميلاتهـا المعلـمات في الغرفة إحمـر وجهـي حماسـة وإنفعـالاً إن الكـرة رميـت في ملعبـي وقـد حققـت هدفـاً كتبت وكتبـت وكتبت ثم سـلمتها الورقـة أخذت الورقـة نظـرت فيهـا ثـم إتخـذت نظرتهـا عمـق وجدية ثـم إنبهار ثـم حبسـت أنفاسـها ثـم إرتفـاع للحاجبـين باعجـاب ودهشـة وإنتقـل صمتهـا وإعجابهـا للمعلـمات فترقبـن حكمها ..

فجـأة تركـت الورقـة وتأملتنـي بنظرة غريبـة ثم تفرسـتني ثم مـررت نظراتهـا عـلي ككل ثـم هتفـت رائـع إنـت مدهشـة أنـت بارعـة ونظـرت لزميلاتهـا وهتفـت وقـد تهـدج صوتهـا إنفعـالاً إنهـا موهوبـة وصفقـت بيدهـا بجـذل إنهـا صاحبـة الإكتشـاف العظيـم كانـت منتـصرة مزهـوة بـل من فـرط سـعادتها أصبحت أنـا سـعيدة لسـعادتها وليس لتبرئة سـاحتي مـن إتهامهـا فلم أعي

بعـد معنـى كلمـة موهبـة ولا أفهم سـعادتها لقـدرتي عـلى الكتابة كنـت أحسـب أننـي أصبحـت متفوقة في مـادة ما مثـل المتفوق في الرياضيـات أو العلـوم ويـا للحـسرة أنـا متفوقـة في مادة سـخيفة ليـس لهـا وزن وثقل بـين المواد مـادة التعبير شـعرت باسـتخفاف بداخلي،

كان هـذا أول ظهـور للكامنـة بداخـلي أمـا في الصـف الثالث الإعـدادي فقـد ظهـرت بجـلاء ووضـوح وأصبحـت بسـببها نصـف مشـهورة رغـم أننـي مازلـت لا أعـي معناهـا ووزنهـا بحـق، كانـت لي زميلـة سـعودية في فصـلي تكتـب الشـعر تمـلأ به كراسـات ودفاتـر وتلقيـه علينا ونسـتمعه بجـذل وأحيانـاً يكون عاطفـي فنسـتمع بحـذر ولـذة كنـا نتبـادل أنـا وهـي كتباتنـا أنـا بالقصـة القصـيرة وهـي بالشـعر النبطـي، أحيانـاً كنـت أتوقـف عـن الكتابـة فتسـتحثني لأكتـب وتأخـذ الأوراق لم أفهـم فعلهـا ولم أعبـأ بـه، وفي يـوم وجدتهـا تجذبني بعيـداً عن الفصـل وقالت ووجهـاً يتـضرج بالدمـاء لينـة ألا تفكـري بالـزواج ؟

قلبـت شـفتاي بقـرف وقلـت بـلا مبـالاة مازلـت صغـيرة لسـت أفكـر في هـذا الآن .

إرتسـمت في عينيهـا نظـرات شـفافة حالمـة وقالـت مـاذا لـو وجـد حقـاً المعجـب الولهـان ؟

ضحكت لما أين رآني وكيف ؟

قاطعتني قرأ كتاباتك،

ماذا ؟

إنــه أخــي وقعــت في يديــه كتاباتــك وابتعــدت بعينهــا عنــي قائلـة صدقيني سـقطت في يديـه بالقدر البحـت فأعجبته وأصبح يتابعهـا بـل ويطلبهـا ضحكـت وأكملـت لقـد وقـع في غوايـة كلماتـك .

وما دخلي إنه يريد تزوج كلماتي لايريدني أنا .

ومالفرق بينك وبين كلماتك ألست من تكتبي ؟

بـلى لكــن التــي تكتــب ربــما ترفــض الــزواج ثــم أردفــت بعصبيـة أهـا لهـذا كنـت تطلبـين كتابـاتي، لم تسـمحي لي بالتوقف حتـى أوقـات الإمتحانـات وأوقـات شـحة الإلهام تلحـين، أكل هـذا مـن أجلـه ؟

عــادت الدمــاء لوجههــا ثــم ســحبت مــن جيبهــا صــورة وضعتهـا بسرعـة أمـام عينـي وقالـت أنظـري إليـه اسـمه خالد .

لم أسـتطع منـع عيني فضولهـا ولمحته في صورته وسـيماً رجولياً بتموجـات غترتـه الحمـراء عـلى جبينـه، وعقالـه الأسـود المائـل قليـل فـوق رأسـه، وجهه المحـدد بلحية شـبابية خفيفـة، حاجباه

الكثيفـان يعتليـان عينـان عربيتـان أصيلتـان ثـم أنـف معقـوف الطـرف كخنجـر حـاد ينتصـف الوجه .

قاطعـت نظـراتي بخبـث قائلـة وهـي تغمـز بعينهـا جـذاب أليـس كذلـك ثـم لاتنـسي هـو متيـم بـك .

هربـت منهـا قائلـة أخبرتـك لسـت أفكـر في الأمـر ووليتهـا ظهـري، لكنهـا أكملـت بصـوت عـالي لتعرقلني عـن عزمي أثق أنـك سـتفكرين في الأمـر ثـم إنـه مهنـدس ليـس مجرد وسـيم،

أوووه ياللشـيطان الـذي راح يعبـث بعقلي يرينـي صورته كل لحظة ،

هرولـت إلى جانبـي وقالـت لينـة هل أنـت مجنونـة لتعزفي عن الـزواج مـا خلقت الفتـاة إلا للـزواج أمنيتـي أن أتزوج.

اعترضتها بشدة لكننا مازلنا في مرحلة الدراسة .

ومالمشكلة ؟

مازلنا صغاراً .

قاطعتنـي لسـنا صغاراً نبتـت لنا صـدوراً يافتاة، ألا تشـعرين بثقل ضغطهما على قلبك ؟ أما عن الدراسـة لا تحملي هماً سـنتزوج ونـدرس في نفـس الوقت . وكان هذا مشـاع في السـعودية الزواج مـع الدراسـة جنبـاً إلى جنـب لا لتأجيـل أحدهـم لأجـل الآخر .

ظهـرت ابتسـامة خافتـة في عينـي يا للعبـث أن أكـون متزوجة وطالبـة في نفـس الوقـت إنهـا تجربـة مثـيرة جـداً عـلى الأقـل سـتخرجني مـن روتـين عمـري الـدراسي،

في البيـت أخـبرت أبي ببسـاطة حتى لا يشـعر أن الأمـر يعنيني أبي تقـدم لي أخـو صديقتي في المدرسـة ؟

من أين عرفك ؟

تلعثمت أ أ وصفتني له .

أسعودية هي ؟

نعـم، قاطعنـي وهـو سـعودي بالتأكيـد ثـم نظـر في عينـي مبـاشرة وقـال لا،

لم ؟

أتعبأين للأمر ؟

عدت للتلعثم ل لا ولكن أحب أن أعرف سبب الرفض .

سعوديته .

ومابها ؟

الرجـل السـعودي بـري الطبـاع صحـراوي الجينـات جـاف الصفات، أما المصري رجل مسـتأنس رقـراق الجينات كماء النيل،

هـزوزت رأسي وقلـت فهمت وفي الحقيقـة لم أفهم آنذاك شـيئاً ممـا قال أبي لكـن الصورة إسـتغرقتني أيامـاً وأياماً وما نسـيتها إلا بعـودتي لمصر ومانسـيتها حقـاً لكننـي أهملتها في منطقـة اللاوعي أو ربـما صنعـت لها منطقة خاصـة منطقة غير مأهولـة بالذكريات، وكان هـذا أول رجـل بسـببه أدركـت أنـه يجب عـلي توديـع الفتاة الصغـيرة الطائشـة وطفلة الكتـب اللاهثة أنني ببسـاطة أصبحت كبـيرة اصطلي بمشـاعر دافقـة هوجاء،

وهكـذا مـرت وتـيرة شـطر مـن حيـاتي بـل الأمتع والأسـهل وبـدأ الشـطر الأصعب الشـطر المؤلم ...

بـدأ الجـد بـل بـدأت الحيـاة الحقيقيـة تكشـف عـن أنيابهـا في صيـف ٢٠٠٢ الصيـف الـذي تـلا حادثـة برجـي التجـارة مـات جـدي وصلنـا خـبر وفاتـه ونحـن هنـاك بعيـدون كثـيراً عنـه حزنـت عـلى جـدي أيما حـزن وأقمـت الحـداد بداخـلي على الكتـب والمكتبـة وأقمـت سرادق عزاء فلـن أحصل عـلى الكتب بعـد اليوم مـات الرجل الذي شـاطرني متعتي وعشـقي وشـغفي مـات مـن كان يفهـم تكـوري تحت الرفـوف لسـاعات مـن كان يفهـم تنفـسي لهـواء الغرفـة العطـن المغـبر وهـروبي مـن النقـي العليـل في الشرفـات والنزهـات، مـن كان يعـرف مكمنـي وأين يجـدني حـين يبحثـون عنـي، مـن يقتطع من قـوت يومه ليشـتري كتابـا ثم يقرأه بشـغف ويحتفظ بـه منتظراً تلـك المخلوقة الصغيرة

التـي تشـاطره هوايته والتـي للقدر البحـت هي حفيدتـه إنعزلت في غرفتـي أحـد جـدي وكتبـي لكـن وبينـما مازلـت في عزلتـي الحزينـة إذ بوغـت بصدمـة ثانيـة فقـد وقـع لأبي حادث بالسـيارة عـلى إثرهـا نقل للمشـفى مـن بشـاعة الحادث كنـا نظـن أن ليس لأبي عـودة للحيـاة لكنـه ولله الحمـد عاد لكـن بشـلل نصفي فلم تجـد أمـي بـد مـن مغـادرة السـعودية كان هـذا بعـد وفـاة جدي بعـام كنـت وقتهـا في الصـف الأول الثانـوي وغـادرت موطنـي حيـث نشـأت إلى موطنـي حيـث ولـدت الإسـكندرية أول شـئ فعلتـه ذهبـت للمكتبـة لكـن جـدتي أوقفتـي قائلـة لقـد نظفنهـا وأغلقنهـا فالفئـران تحـب العيـش بـين الأرفـف طعننـي كلامهـا ذانـك الوقـت وإبتعـدت عـن المكتبـة لكـن في الليـل حاولـت فتحهـا بالمفتـاح الـذي منحـه لي جـدي لكـن ياللهـول القفـل قد تعـرض للصـدأ فالمنطقـة رطبة والقفـل لم يفتح مذ عـام وعجزت عـن فتـح المكتبة، حاولـت التأقلـم بالجلوس في البيـت والتعرف إلى غرفـه وبـدأت أشـعر بالغربة تلك التي لم أشـعر بهـا وأنا بعيدة عـن موطني شـعرت بهـا لأول مـرة وأنا أنظـر إلى البـاب الموصد عـلى كتبـي شـعرت لأول مـرة بالفـراق وأنـه مـا مـن مزيـد مـن الكتـب ما مـن وجود لجـدي باعوا المركـب والشـبكات وأدوات الصيد ماعاد هناك أطباق السـمك الشـهية حتـى القطط ماعادت تـأتي لزيارتنـا وجـدتي كما هـي في عزلتهـا زاد ألمها فطفـر صمتها، ألتحقـت في مدرسـة ثانوية وعـادت أمي لمدرسـتها القديمة وأبي

أصبح قعيداً وداهم المرض جدتي فبعد إغتيال خالي داهمها مرض القلب والسكري أما بعد وفاة جدي توقفت عظامها وقل حراكها حتى أصبحت شبه قعيدة مثقلة الحركة فأصبحت أمي بين العمل وبين خدمة أبي وجدتي طالبة مني العون فيوم عند جدتي أكون أنا فيه بجانب أبي وهكذا مرت وتيرة الحياة ويشهد الله أن أمي ظهر معدنها النفيس فما شكت ولا بكت، ماتأففت ولاتبرمت، ما ضاقت ولا يأست، ما لانت ولا استسلمت، ما ضعفت ولا وهنت، بل صبرت وتحملت بسعة صدر وأمل فلسفت ألمها، منطقته (جعلته منطقي) ثم أحبته هكذا أمي كما خبرتها في المحن وعلى هذا ربتني،

في السنة الأولى من دخولي كلية التربية أعجب بي محاسب في الجامعة بعث لي مرسال مع صديقة لي أنه يود التقدم لي لم يجرؤ على توجيه طلبه لي مباشرة فيعرف جديتي وإلتزامي ولا يريد أن يحرج نفسه أمامي، الغريب أنني أعطيتها رقم هاتف أبي ببساطة دون أن أطالب برؤيته أو حتى بالمزيد من المعلومات بل أن الأمر بالنسبة لي أنني في سن زواج ومن الطبيعي أن يتقدم خُطاباً هكذا ببساطة رؤيتي للأمر وحين ذهبت للبيت أخبرت أبي، فلم يزد عن إيماءة بالرأس ولم يكلف نفسه عناء حديث وبصراحة ماكنت لأتحدث في الأمر بل بدا وكأنه لايعنيني وحقاً في هذه المرة لم يكن يعنيني ربما مازالت صورة

خالـد تتلبسـني تسـكن داخـلي وربـما الكتـب وأدت في أوراقهـا وهرائهـا ذلـك الجـزء العاطفـي بداخلي الضـاج بالأنوثـة لا أعلم مـا السـبب الحقيقـي لـبرودتي تلك ..

بعـد ثـلاث أيام كان قـد أخذ موعـداً مع أبي هكـذا أخبرني أبي يوم الخميس القادم سـيحضر المحاسـب...

مس لينة لديك إشراف ...

باغتنـي الصـوت فألتفـت بسرعـة لمصـدره وقد أجـبرت على الخـروج من متاهـات الذكريـات الرديئـة إلى دوامـات الأحداث الرتيبة ...

كررت مس لينة لديك إشراف .

أعلم لكن هذا الحصة القادمة .

نحن بالفعل في الحصة القادمة .

لم يرن الجرس بعد .

نظـرت المـرأة (مـس ربوة) في وجهـي وكأنها تبحـث عن علة تصيبنـي ثـم تفحصت المكتـب أمامي، بلا إراديـة إلتقطت الورقة صانعـة منهـا كـرة صغـيرة أخفيتهـا في قبضـة يـدي وخرجـت متجاهلـة تفحصهـا، يبـدو أن الجـرس رن ولم أسـمعه يـالله لقـد أسـتبد توغـلي في الذكريـات لقـد إنتقلـت للـماضي ياللـماضي كم

هـو قديـم موغـل في القـدم وقذفـت بالكـرة الورقيـة الصغـيرة مجعـدة التفاصيـل داخـل جيـب الجاكيت .

ورن الجرس ..

***

مس فوز ...

اللاجئة السادسة...

ثم عادت لي شهيتي للإستماع ..

استـنزفتني مـس فـوز كـي تبـوح فهـي امـرأة شـديدة الكتمان قليلـة الـكلام حتـى لتـكاد كلماتهـا من قلتهـن تعد وتحـصى لكنـي تغمـدت بالصـبر فأنـا الآن أحتـاج للبـوح أكثـر مـن أي وقـت مـضى أحتـاج لأن أخـرج من حالـة الصمـت التي فُرضـت علي،

أنفهـا طويـل مرنـان رومـاني الشـبه وكأن الرومـان رغـم اندثارهـم مـن الأسـكندرية إلا أنهـم تركـوا أنوفهـم فيهـا كأثـر باقـي لـن يُمـحَ وعـلى كلٍ فأنفهـا يشـير إلى امـرأة أرسـتقراطية وفمهـا المغلـق تحتـه يوحـي باسـتعلاء ممـزوج باسـتخفاف أمـا عينيهـا بريقهـما خفـت تحـت غلالـة الحـزن و جمالهـما أخفتـه سـحابة ألم تظـل معلقة بـين أهدابها الذهبيـة اللون وكأنها تخشـى أن تتسـاقط دموعـاً، ومـس فـوز تشـتهر بيننـا باللون الأسـود بل

ترتـدي بدلـة واحـدة سـوداء لاتغيرهـا أو تبدلهـا وإسـكارف من الستان الأسـود، خريجـة علـوم قسـم كيميـاء فيزيائيـة، أربعينية لايظهـر عمرهـا عـلى وجههـا فيبـدو وجـه عشرينيـة لكنـه يظهر صريـح وبشـكل فـج عـلى روحهـا ..

بدايـة حديثـي معهـا حـين كنـا في المعمـل نصحـح أوراق امتحـان مـادة السـاينس للصـف الأول الإعـدادي، كنـا وقتها في الاسـتراحة وخـلا المعمـل إلا مني ومنهـا فابتدأتني الـكلام وهذا عـلى غـير طبيعتهـا قائلـة أوتصدقين الشـائعات التي تقـال عني ؟

أنـت امـرأة لاتلتفـت للـكلام الـذي يتناقل أيهمـك تصديقي مـن عدمه ؟

لكنك تتجبيني بطريقة واضحة ..

كل مـا في الأمـر أنـك امـرأة صامتـة وأنـا أحب الاسـتماع لهذا ربـما لم ننجـح في فتـح حديـث وبنـاء معبر للـكلام ...

قاطعتنـي وهـي تنظـر في أعـماق عينـي لينـة أنـت تصرين على الظهـور بمظهـر المغفلـة التي لا تفهـم مايدور حولها وتستمتعين بلعـب دور السـاذجة التـي لا يهمهـا أيـاً مـن أمورنا لكـن أعرف أن لديـك عقـل لو كشـفت عنه هـذا القناع لأذهلنا جميعـاً وعندك من المشـاكل لـو أزحنا عنهـا وجهك البرئ هـذا لاصطدمنا بوجه كهـل عجـوز أنـت لسـت سـهلة كـما تظهرين بـل معادلـة صعبة

هـل أنـت منافقـة أم تهربين من عنـاء الحقيقـة أو إدعـاء المعرفة ؟

لا أعـرف اجابـة لسـؤلك لكـن أحـب ما أنـا عليه وابتسـمت هاربـة مـن إضافة المزيـد من الـكلام ...

لمَ تُجيب أتصدقين مايتناقل عني ؟

لا أفهم قصدك ...

عن اللف والدوران العلاقة بيني وبين المدير ..

خفضـت عينـي في ورقـة الامتحـان أمامـي وأنـا أقـول لمَ لم تضعـي حـداً للـكلام ؟

ولمَ تجشب عناء وضع حد مادام أنه لايهمني ...

ولمَ تسأليني مادام أنه لايهمك ؟

أنت بالذات من أهتم بها ...

نظـرت لهـا باسـتغراب لاهتمامهـا لكنـي قلـت أهنـاك دخـان مـن دون نـار ؟

ابتسـمت مـن جانـب فمهـا نحـن في زمـن العجائـب الأمـر يكمـن في كيفيـة تلقينـا لعجائبـه .

ربـما ...وأكملـت لكـن لمَ أنـت دون غـيرك من تحـاك عنه هذه الشائعات ؟

لأني أرملة ...

وذهلت ...

تجاهلت ذهولي وتفحصي الوقح لها وقالت وحدك من خصصته بهذا السر لو انتشر فسأعرف أنك المصدر فهمت أن هذا بمثابة إبرام اتفاق غير معلن بيننا ...

ولم لي بالذات ؟

لإني بحاجة للبوح لأحد ليس له حاجة في الكلام ...

تفضلي ...

نظرت للفراغ في المعمل وقالت أعرف أن الرجل لا يبتدأ إلا إذا أعطته المرأة إشارة البدء، لايجرؤ قبل التيقن من وجودها، لكن كوني أرملة تعني الإقدام دون انتظارإشارة لذا أخفيت ترملي ببساطة لإني مازلت لم أخلع السواد على زوجي وبصوت دافئ قالت وهي تنظر لعيني مباشرة ولن أخلعه، تركتني عينها وعادت للشرود في فراغ المعمل خدرت صوتها أبخرة الذكريات فتراخت الكلمات وتدفقت الجمل على لسانها وأصبح البوح ليناً مطواعاً ...

كان زوجي صديق أخي درس معه في كلية الطب لكنه تخصص في الأعين بعكس أخي الذي تخصص في طب

الأطفال تفرقوا في التخصص لكن القدر جمعهما مرة أخرى في الوظيفة فعمل الإثنان في مشفى واحد وبالرغم من أنهما أصدقاء ويتزاورون إلا أنني لم أصدف أن رأيته أو رأني ولو بطريقة قدرية بحتة فأبي برغم أنه أيضاً طبيب لكنه رجل ريفي متمسك بالأصول حد التشدد فلم يكن يسمح لي بالاختلاط بأصدقاء أخي كما لا يسمح بزيارتهم إلا وهم بصحبة أخي مجموعة من القوانين والمبادئ الصارمة التي كان يسير عليها بيتنا وبالتأكيد أمي مساعدة الربان فهي أشد من أبي في التمسك بالنظام والحفاظ على خصوصيات بيتنا باختصار هكذا نشأت ...

وفي يوم وبينما الصديق يبث أخي خبايا نفسه قال أتوق للزواج ...

صدم أخي فصديقه عصامي بالغ الجدية ...

لكنه تجاهل نظرات أخي وعاد لسرد تفاصيل حلمه لا أريدها طبيبة أريدها على قدر كبير من النظام والتمسك بالتقاليد تلعثم وأكمل أريد بيت هادئ دافئ نظيف حميمي أحلم بتلك الأنثى المخملية التي ستحتوي بيتي بنعومتها وترعاني برقتها وتدفئني بعذوبتها تفهمني في صمتي، تصغي في كلامي، تحترمني في حواري، تغفر تقلباتي وهفواتي، تشبع رغباتي وتتملك أنانيتي ...

قهقه أخي يارجل تريد ملاكاً لا أنثى ...

تجاهـل ضحكاتـه وأكمل بجديتـه المعهـودة أريد امـرأة تتدثر بأنوثتهـا، بضعفهـا تكمـل قـوتي، وبعقلهـا تذيـب رجولتـي، وبكبريائهـا تروضنـي وبذوقهـا تهنـدم ذاك الأشـعث بداخـلي ..

ثـم قـال وقد غيبـه خـدر الحلم عـن إخفـاء الـكلام أو تجميله بيتكـم فريـد ياصديقـي الضيف فيـه لايسـمع همسـاً وكأن البيت خـلا مـن أصحابـه ولـولا الضيافـة والنظافـة لجزمـت أن بيتكم فعـلا خـلا من النسـاء أنكـم تكتنزونهن كـما يكتنز الحريـص كنزه خوفـاً عليـه من اللصـوص ...

وكاد أخـي أن ينهره ويؤمره بالاحتشـام في الـكلام لكن الحلم قـد غفلـه فاحتمل أخي أمـر غيرتـه وعالجها بينه وبين نفسـه ..

فكـر أخـي ودبـر فمـن أفضـل مـن صديقـه زوجـاً لأختـه وبالرغـم أنـه نشـأ نشـأة مضـادة لنشـأتنا تمامـا فهـم متغربـين في تربيتهـم أجانـب في انفتاحهـم متحـرري العقـل أيـما تحـرر لكنـه بـدا رافضـا أن ينشـأ أسرة كأسرتـه بـل يريـد أسرة تقليديـة ...

وبالفعـل انفـرد أخـي بـأبي في مكتبـه وتكلـما وحـددا يومـاً للرؤيـة الشرعيـة ثـم أخـبرا أمـي وتـركا لهـا أمـر إخبـاري ...

وفي ساعة عصرية وبينما أعكف على درسي في مكتبي ..

طرقت أمي الباب واستأذنت، فأذنت لها ..

جلست على السرير بجواري وعينيها تحمل نظرات غريبة مرة تفلح في إخفائها ومرات تخفق ...

أمي ما بك تنظرين لي هكذا؟ ...

لا شيء ولفت عينيها في الغرفة لكنها أعادت إلي النظر بعينين بَضَعَ الدمع فيهما،

الآن وبعد أن أصبحت أم مثلها فهمت مغزى نظراتها...

المهم قالت لي فوز يا طفلتي لقد كبرت وأصبحت شابة جميلة ...

مثلك يا أمي ...

وهناك من يخطب هذا الشبه ...

لم أفهم ...

جاءك خاطب ثم قالت بسرعة صديق أخيك، الدكتور أليسع الذي كان في زيارتنا ليلة البارحة ...

أمي تلجلج الكلام في فمي، أنا لاأعرفه ...

قاطعتني بحدة أباك يعرفه وأخاك صديقه وستعرفينه حتماً في الخطوبة ليس عندنا بنات تعرف، ولا من مبادئنا بنات تتجرأ ...

غداً الموعد عصراً ...

أعجز عن نسيان ذلك الموعد، مازلت أتذكر يوم أن رآني أول مرة وكأنه حدث بالأمس لا منذ خمسة عشر عاماً وصمتت عن الكلام ...

احترمت صمتها وشاغلت عيني بالأوراق أمامي لأمنعها اقتحام صمتها بنظراتي لكنها عادت للكلام بروح تصارع الذكريات،

كان رجلاً حقيقي لست أرى له مثيل يعرف واجباته، يقوم بمسؤولياته أنه ودارت عينها في المعمل تبحث عن كلمات تصفه أنه رجل قوام بل ملك كبير أنه حياة بأكملها بل فعلا كان جنتي ولازال رغم غيابه كنت أرتع في نعيمه كطفلة لا تعرف المنغصات ولا عبء المسؤوليات كم أفتقده وكم أوحشت الحياة بدونه وكم أظلمت الأيام وقست علي الأقدار وطفرت الدموع في عينيها...

عدت للتصحيح أو هكذا تظاهرت وصوت دموعها يرن في أذني وفضولي يمنعني التركيز ...

دخلت الأستاذة المشرفة في الكنترول هل انتهيتن من أوراق الصف الأول الأعدادي؟

أجبت تبقى فصل .

إذن أعطني ما انتهى تصحيحه .

فوز مابك تبكين ؟

بصـوت مختنـق أجابت لا شـئ تعـاني عيني الحساسـية ربما من طـول النظر في الأوراق .

أعانك الله قالت الأستاذة وهي متشككة .

ناولتهـا الأوراق وخرجت من المعمل وعـاد الصمت يلفنا ...

وعدت إلى أوراقي ..

وبعد حوالي العشر دقائق ...

عادت مس فوز تخصني بسعيد ذكرياتها .

وبعد شهر واحد من الموعد ..

فـوز هيـا ارتـدي هـذا الفسـتان، باعـتراض أمي سأقيسـه فيما بعـد، قاطعتنـي بحـدة لا لا الآن، حـاضر سأمشـط شـعري أولا ًثـم أننـي للتـو منتهية مـن الاسـتحمام وطوال هـذا الشـهر يا أمي وانتـي تعتبـيرني مثـل ماليكان قيسي هـذا ارتدي ذاك جـربي ذانك لقـد تعبت من هـذه البروفات التـي لا تنتهـي، أوووه يافوز كفاك دلالاً واعتراضـاً هيـا ارتديـه ومشـطي شـعرك فوراً .استسـلمت قائلـة حاضر

وارتديت الفستان وتأملت نفسي في المرآه...

وردي طويـل مـن الحريـر المطعـم بالدانتيـل تراصـت عنـد صـدره حبـات ماسـية اضـاء بريقهـا جيـد فاتـن ثـم انسـحبت الحبـات سـامحة للدانتيـل الرقيـق بالظهـور لتعـود للـتراص مـرة أخـرى عنـد الخـصر صانعـة حـزام اظهـر جسـد متناسـقا أنثويـا خالصـا أمـا شـعري البندقـي الفاتـح فمشـطه عـلى هيئـة ذيـل حصـان وتركتـه عـلى طبيعته التي تظهـر تجعيدات خفيفـة وأملت الغـرة الطويلـة عـلى جانـب الجبـين الابيـض، ابتسـمت لصورتي في المـرآة وغمـزت جميلة مرسـلة قبلـة في الهواء فتحـت الباب وأنا مـاأزال ابتسـم وأنظـر للفسـتان ثم درت حـول نفسي وأنـا أقول مارأيـك ياأمـي كالحوريـة ..

باغتني صوته الرجولي العميق بل كالأميرات ..

توقفـت عـن الـدوران وكأن ماسـا كهربيـا قد لمسـني و زالت ابتسـامتي فجـأة شـعرت أن الصالـة تلـف بي فلـم يكـن الواقف أمامي سواه مبتسما بثقة متأملا باعجاب منبهر لم يحاول أن يخفيه .

سألت بخوف أين أمي ؟

فاجاب بقهقه سعيدة أما كبرت على هذا السؤال.

واقـترب مني حتى اخترقتنـي رائحته وقـال ياحظي، ابتعدت عنـه بطريقـة آليـة وأنا أقول بوجـل ماذا تفعـل هنا بالله ؟

أجاب ببرود مفتعل أبارك ...

يومهـا توهجـت وجنتـاي واضطربـت ملامحـي وتلعثمـت الكلـمات في فمـي واختنـق صـوتي ...

وصمتت فوز وقد عادت الدموع لملئ عينيها ...

تركتهـا لصمتهـا فلـم اشـأ أن أثقلهـا بالحكـي وقـد أثقلتهـا الدمـوع ...

بعد دقيقة صمت عاد الحكي يجري على لسانها ...

رحمنـي قائـلاً أبـارك للعـروس فللتـو انتهينـا مـن اجـراءات العقـد ووقعنـا الوثيقـة لم يبـق سـوى بصمتـك وابتسـم بعينـه ابتسـامة واسـعة وعـاد للإقـتراب منـي فابتعـدت راكضـة وأنـا أنـادي أمـي أمـي هـم أن يلحـق بي لـولا ظهـور والـدي وقـد لاحـت عـلى شـفتيه ابتسـامة قائـلاً هيـا وراءنـا الكثـير مـن الإجـراءات الرسـمية علت الجديـة ملامح زوجي مبتعـداً وقال هيـا بنـا ...

وضحكـت فـوز وهـي تكمـل محلقـة مـع سـحب ذكرياتهـا كنـت لا أزال غارقـة في ذهولي حينـما التفت والدي مبتسـماً وعينه تقـول نجـح المقلـب، لكنـي مططـت شـفتي ضيقاً .

أمي بالله ماذا فعلتِ أكنتم مدبرين لي مقلب ؟

لا لكنـك الآن زوجتـه ومـن حقـه أن يـراك مـرة أخـيرة وعلى طبيعتـك قبـل الاجـراءات النهائية .

قلـت باعـتراض طبيعتـي عـلى أسـاس أننـي كنـت كذلـك لقـد شـعرت أني أغـرق مختنقـة في فسـتاني وتلعثمت فلم اسـتطع النطـق.

ضحكت أمي عادي عادي ستعتادين مع الوقت .

هيا ارتدي معطفك وحجابك فالمأذون على وصول .

فقلـت بغضـب ممـزوج بـدلال وأنـا أذهـب لغرفتـي ارتـدي الفسـتان وأريـد أن أعـرف قياسـه لكنـك حتـى لم تُظهـرِ رأيـاً لن أنـسَ هـذا المقلـب لكما .

فضحكت أمي وقالت بثقة ألا يكفيك رأيه؟

غرقـت مـس فـوز في ذكرياتهـا وتعلقـت بالصمـت وكأنهـا تخـاف أن تخرجهـا الكلـمات مـن حالتهـا تلـك ...

وفي هـذه المـرة تأملـت شرودها وقد طفـت في عينيهـا نظرات عشـق وغابـت ملامحهـا في إغـماءة حـب وعـلا وجههـا ارتيـاح وغـادرت روحهـا للرجـل الذي أحبـت و امتلك شـغاف قلبها، وتسـاءلت كيـف قبضـت عـلى لجـام عقلـه ومـلأت قلبـه ؟هـل أوصلتـه إلى ذروة الكـمال ؟ أكان حقـاً ملـك أم هـي مـن نصبته ؟

هـل رأى نفسـه في عينيهـا رجـلاً فريداً ؟

من خلف زجاج عينيها لمعت ابتسامتها،

وعادت للذكرى بل للكلام عنها ..

سـألته يومـاً ما لـذي جعلـك تكمـل ؟ لمَ لم تهرب بعـد الرؤية الشرعية ؟

فغمـز مجيبـاً بجملـة واحدة أثارتنـي الهالة من الكبريـاء الملكي المحاطـة بـك إنك وكأنـك أميرة رومانيـة اندثر عنهـا الزمن ..

ضحكت وأنا أقول القدر وغطاه ...

فهـزت رأسـها نافية بـل الرقي مـع الرقي ينسـجم،والطهر إلى النقـاء ينجـذب والطيب مع الطيـب يمتزج والطيور إلى اشـكالها تُسيَر، كان بيننا كيمياء، مزيج من الترابط الروحي والتفاهم العقلي والاتحـاد القلبـي أنه إنصهـار روحـين في بوتقة من رحمـة ومودة .

ابتسمت وقلت هذه علاقة عناصر كيميائية ببعضها .

بادلتنـي الابتسـام ومـا هـو الـزواج سـوى كيميـاء مجموعـة متفاعـلات ينتـج عنهـا نواتـج تتحكـم بالتفاعـل ظـروف معينـة وأوزان محـددة .

أتعلمـين حـين بلـغ زواجنـا السـنة العـاشرة أهـادني خاتمـاً ملحـق معـه بطاقـة كتـب فيهـا بخطـه الجميـل (ان المشـاعر لا

تفنى ولا تستحدث من العدم فهي تتولد من مشاعر أخرى أو تتحول لكنها لا تأتي هكذا من العدم وأنا لا أحتاج منكِ سوى المشاعر ولا أطلب منكِ أكثر من الحب)

هذه فيزياء، للتو كنا كيمياء ...

غمزت وقد احمر وجهها قائلة بل قانون المشاعر هكذا اتفقنا على تسميته أنا وهو وعند أي خلاف أو اختلاف يقول لي أين تطبيق قانون المشاعر ...

تنهدت فوز قائلة لكن هذه حال الدنيا لا تخلد أحداً غادر زوجي فقد أصيب في إحدى الميادين ولم يشفَ ظل شهر يعاني من آثار اختراقات الرصاص في جسده لكنه استسلم وفاضت روحه ...

سألت أي ميدان بالتحديد ؟

تجاهلت سؤالي وأكملت ففهمت أنها تريد الإحتفاظ بالإجابة ...

في بداية عهدي بالفراق كنت أشعر أنه سيعود وأن غيابه ليس سوى مقلب سخيف ومزحة سمجة سرعان ما سيعود بعدها مبتسماً بغموض كعادته، طال انتظاري ولم يعد بل توغل في البعد ورحب بالفراق فلن تثنيه دموعي ولا أفلح حزني فأيقنت أنه كان مجرد حلم جميل عشته وتحول لكابوس

الآن، أو ربما هو دوري من الحزن دوري من الشقاء فمهما تنعمنا في دنيانا ومهما طالت مراحل سعادتنا لابد وأن تأتي مرحلة الشقاء لابد أن نذوقه ووجدت نفسي في دوامة الحزن بل دخلت في معترك الإكتئاب كنت أصرخ في كل من يحاول مواساتي لا أريد أن اسمع شيء عن القدر لا أريد مواساة من أحد فأنا لن أقتنع بشيء لم أعد أؤمن بشيء سوى أني وحيدة موجوعة بعد رحيله، وأن وجعي لن يداويه الكلام لن يداويه القدر ولا حتى الزمن وسأظل هكذا مهشمة الروح أبد العمر شعرت حقاً أن الحياة توقفت بعد رحيله، أواه يعجز أمام الرحيل أساطين الحرف ومعجزات الكلم، بلعت دموعها وأكملت كنت أؤمن بالموت لكنه يشبه الإيمان بأمور غيبية لم نجربها أو لم تحدث لنا،لم أختبر الموت الحقيقي إلا بعد زوجي وعرفت أن المشكلة لا تكمن في الموت بحد ذاته بل في الفراق بعد الموت، في الغياب، حين تبدأ آثار صفعة الموت في الزوال تظهر الحقيقة حقيقة الفقد، ويبدأ ألم الفراق ويزداد جرح الفقد توغلاً وعمقاً بمرور الأيام لنكتشف أن الموت لم يكن إلا حقنة التخدير لنتنبه بعدها إلى ألم الفراق المبرح وأن الموت لم يكن سوى البنج الذي يحمينا من هول الصدمة فإذا أفقنا بدأ الألم فلا مسكن يهدأ، وما من كلمات تواسي، وما من حروف تصف، ولا يتبقى لنا إلا مجرد آثار، كتبه، ملابسه، خطه، زجاجة عطره الفارغة، وساعته التي توقفت عند لحظة

رحيلـه، وتتحـول تلك الآثـار إلى كنز لأنـه بعد أن يطـول الغياب وتفقـد أمـل العـودة وتؤمـن حقـاً بأنـه قـد رحـل يبـدأ الشـك ينتابـك هـل كان حقـاً موجود بيننـا ؟أصدقاً كان هنـا وأنه حقيقة لم يكـن طيـف وليـس مجـرد ذكـرى ومجموعة مـن آثار ؟هـل حقاً كانـت ابتسـامته تبعث الطمأنينة وتبث السـكينة والهـدوء حولها؟ أحقـاً كانـت رجولتـه تمـلأ أركان البيـت وجوانبـه صانعـاً حيـاة قـد انتهـت فعـلاً ؟ويبدأ وعيـك يعـود بالتدريج و ينهشـك الألم، الفـراق، الرحيـل، الفقـد، يزول الشـك بأنـه لم يرحل حقـاً وتبدأ رحلـة اليقـين لتؤمـن أنـه لا عـودة وتتجلى الحقيقـة التـي لا تقبل الشـك أو الزيـف ويخضـع عقلـك لليقظـة الكاملة وأنـه لا عودة بعـد هـذا الرحيـل الأبـدي، تبحـث أنـت عـن طريقـة للذهـاب إليـه فـأن كان هـو لا يسـتطيع العـودة فلتذهـب إليـه أنـت وأن المـكان الوحيـد الموجـود بـه زوجـك هـو القـبر ذهبـت إليـه فلم أجـد سـوى حائط معلـق عليه لـوح رخامـي محفور عليه اسـمه، حاولـت أن اتكلـم معـه فتتلاشـى الكلـمات وتصطـدم بالجـدار وترتـد إلي كـما هي،تـصرخ بداخلـك لا ليـس زوجي مـن لا يرد عـلي، ليـس مجـرد جدار واسـم محفور، وبعـد أن يضنيـك البحث عـن طريق للذهـاب إليه تقبـع في مكانك مستلسـماً سـاكناً صامتاً خائفـاً حزينـاً وشـعور خَفيـاً يتـسرب بداخلـك أن المـوت هـو السـبيل الوحيـد للتلاقـي فتنتظـر المـوت لتتحـول إلى كائـن في خانـة منتظـر المـوت بدلاً مـن انتظـار عودته لأنـه لن يعـود وتبدأ

مرحلـة الانتظـار إنتظـار اللحظـة التـي سـتعانق فيه المـوت فرحاً مـسروراً بقدومـه بـل وقـد تعاتبـه عـلى غيابه .

مـوت مـن نحـب بدايتـه فـراق مرهـق، وأوسـطه اشـتياق منهـك، ونهايتـه حنين مذل اسـتجداء لرفـات الذكـرى، وبعد أن تملكتنـي هواجـسي وتحكمـت بي وسـاوسي وفقـدت كل قدرة لي عـلى الصـبر كـدت أنهـي حيـاتي لـولا أن انقـذني الله فـما وجدت خـير مـن العمـل منقـذًا وهربـت مـن دائـرة الفـراق والغيـاب والحنـين ...

وغرقـت مـس فـوز في الصمت وقـد أفرغـت حمولتهـا الثقيلة مـن البـوح وأخلـت جعبتها الحزينـة من البـث عـادت لعادتها في كظـم الـكلام فـلا أشـق عـلى نفسـها منـه ولا ألـذ إلى روحها كما الصمـت تتلـذذ بـه كما يتلـذذ الوقـت بدقائق الانتظـار ...

قاطعـت صمتها بوقاحـة لا تليق بمهابته وقلـت لمَ لا تتكلمين الكلام يريـح ويزيح ..

أطالـت النظـر لي وقد عادت غشـاوة الحزن تخفي جمـال عينيها و قالـت أكـره توديـع الـكلام ورحيلـه فأحتفـظ بـه داخـلي فـإن كنـت أنـا من أتحكـم بالرحيـل فلأمنعـه إذن من ممارسـة ألاعيبه .

عادت لأوراقها...

بعـد حوالي عـشر دقائق عـادت لفـوز طبيعتها بعد أن تلاشـى الشـجن وعـادت الذكـرى لمكمنهـا في الـروح وتغمـد الحـزن في العين ...

ثـم سـألت بلهجـة رجـاء، لينـة أتظنـين أن هنـاك نـوع مـن علاقـة بينـي وبـين المديـر ؟

منعـت عاطفتـي مـن التدخـل وأجبـت لمَ لا تكـون هنـاك علاقـة لمَ تحرمـين عـلى نفسـك مـا هو حـلال مـن حقك الـزواج مـرة أخـرى إن حبـك وزوجك مـاضي وربـما تحتاجين الـزوج في وقـت مـن الأوقـات الزواج مـرة أخرى ليـس جرم بل أمـر مباح بغـض النظـر إن كان مـن المديـر أو مـن غـيره ..

قاطعتني بحدة يا مرأة افهمي لا يسع قلبي إلا أليسع .

وهو كل العلاقات تبنى بقلب ؟

لابـد للقلـب أن يقبـل أولاً وإلا سـيرفض العقـل ويمتنـع الجسـد .

ألا يستطيع العقل مساومة القلب ؟

ليس في حالتي.

أوفاء للعشرة وصيانة للذكرى ؟

بل اكتفاء واستغناء .

إذن ما بـال المديـر لا يـصرف نظـره عنـكِ بعـد أن أمعنت في الرفض ؟

أنـه رجل أعـمال لم ينجـح في ضمـي إلى مجموعة أعمالـه أو ربما خـسر في إبـرام الصفقة وليـس من عادتـه الخسـارة لا يتحملها .

ودخلـت مـس سـلام الغرفـة فقطعنـا الـكلام نظـرت لنـا بريبـة وشـك وقالت هـل أنهيتـما التصحيـح، ثم دحجتنـي بحدة فعلاقتنـا يغلفهـا الـبرود والصقيـع ...

تغافلت عن نظراتها وكأنني لم أفهمها وقلت تبقى فصل ..

جيد لتنتهين ...

وألتهيت في التصحيح ...

بعـد سـاعة كنـت خـارج المدرسـة وتذكـرت موعـدي مـع الخياطـة فعرجـت عليها في الحقيقـة لم أكن بحاجة ماسـة للذهاب إليهـا لكننـي أكمـل بهـا مسـيرة هـربي مـن البيـت أو بالتحديـد هـرب مـن شـئ غامـض بداخـلي لا أعرفـه ...

إتصلت بها فأجلت الموعد فغيرت وجهتي للبيت ..

حينـما فتحـت بـاب البيت تقافـز أولادي حـول حقيبتـي فهم يعلمـون أنـني أخبـئ بهـا حلويـات دائـماً سـلمتها لهـم وذهبـت

لتبديـل ملابـسي بعـد لحظـات طرقـت ابنتـي البـاب مـادة يدهـا بورقـة مامـا سـقطت هـذه مـن الحقيبـة ..

مددت يدي من وراء الباب وألتقطها ...

إنها تشـبه أختها بل نسخة منها حين فتحتها طالعتني الجملة ...

اجعليني بطلاً ...

أوقفتنـي الجملـة عـن تبديـل ملابـسي وجلسـت عـلى حافـة السريـر وداخـلي يقارعـه سـؤال واحـد،

أي دور بطولة يطمح إليه في حياة امرأة متزوجة ؟

وقـت إن سـألت هـذا السـؤال لم أكـن أعلـم أن هـذا المعلـم سـيكون آلـة القـدر الرهيبة التي سـتقلب حياتي رأسـاً على عقب، وأنـه سـيقود هـذا التغيـير، سـيصبح هـو بطلـه، ربـما هـذا مـا قصـده بتلـك البطولـة ...

حـين تسـاءلت هذا السـؤال لم أكـن أعلـم أنني غرة وسـاذجة أو ربـما واثقـة في ثبـاتي، لم أفطـن لتقلبـات القلـب الهوجـاء التـي بمقدورهـا نـزع ثبـات العقـل والعبث بأمـر الروح كنت شـديدة الإعتـزاز بنفسي واثقـة بكبريائـي شـاهرة سـلاح الكرامـة لكنـه سُـلب منـي بتخطيـط خبيـث ومكر عظيـم ...

***

الخياطة ...

ليست لاجئة كبقية اللاجئات التي كتبتهن وسأكتبهن وقد أسالت أسباب لجؤهن حبر قلمي وتدفقت حروفي من دموع شجن كتمتها قلوبهن وتخلقت كلماتي في رحم اضطرارهن، آه كم أتمنى أن يصبح الإختيار من حقنا ولو لمرات معدودات في حياتنا أو مرة واحدة حقيقة، متى نخلع لباس الاضطرار وندفن جيفة المفروض نتيه سعادة في رحابة الخيارات ؟هل سيطول لجؤنا ؟أسنصمد أمام عجز هروبنا ؟ وعادت صراعاتي تنهش روحي المسالمة، وتنهال الأسئلة كرصاصات مجنونة على عقلي المستسلم لواقعه، ماذا لو أن العمل الاضطراري أخمد شعلة الحلم داخل روحك ؟ ماذا لو ضاع حلمك في زحمة اللجوء؟ لو فقدت حلمك في عشوائية الهروب ؟ماذا لو تاه الحلم في فوضى الأهداف ؟ماذا لو تمترس الحلم بالرفض والتمنع وأغرقني الواقع في لجته فلا يبقى لي إلا صور من طيفه ؟ ماذا لو فقد حلمي جناحيه بعد صراعه مع أنياب الواقع ومخالبه ؟ماذا لو كان الحلم سيبلغك إلى أرذل الواقع ؟ ولم أجد إلا إجابة واحدة لا يسعني إلا أن أمارسه، لا يسعني إلا أن أمارسه وتكررت الإجابة بصوت أعلى حتى أصبحت صراخ بداخلي لا يسعني سوى ممارسة حلمي لن أسمح لواقعي باغتصابه مني، سأكتب رغم الرفض رغم الهروب رغم العمل

رغـم اللجـوء رغـم الإهانة أنـا مازلت أكتـب أختـلي بالكتابة كل يـوم ليـلاً وكأنني أمـارس جريمة أو أعاقـر إثماً أو أتعاطـى ذنباً أو آتي جريـرة أحـرص عـلى مزاولته في غفلـة عن الأعـين وفي الخفاء كـم بكيـت هجـراني ونحـت مـن دموعـي كلـمات دون أن أعاني مـن كتمانهـا ودون أن أتحمـل مرارتهـا وكـم مـن مـرة صرخـت عـبر سـطوري وكم مـن مرة دفنـت خيبـاتي في تمزيقـات الأوراق وقصاصـات الصفحـات وكـم مـن مرة بثـت حـزني المخبوء بين صـدري في ضلـوع الجمـل ونقلـت همـي إلى قلـب الحـرف وفي روح الكلمـة نفخـت فتجسـدت كائناً جميـلا طاهراً نقيـاً لم يتهمنِ لم يظلمـنِ لم يهـنِ لم يرجمـنِ بلطـمات عـلى وجهـي لم يـدّعِ عشـقي كذبـاً ولم يوهمـنِ بالحـب زوراً ولم يهيـم بي بهتانـاً كائن قـوي يراني بهشاشـتي يتقبلنـي بقـوتي يدعـم ضعفـي ويحنـو عـلى وهنـي يثق بي يفهمنـي بتعقيـداتي ببسـاطتي بهواجسـي بوسـاوسي لا يخمـن قـراراتي ولا يحاسبني عن أحلامـي ولا يسـعى للتحكم بشرودي ولا يحكـم عـلي مـن هفـواتي، لا ينتظـر أخطائي ولا يتتبـع عثراتي كائـن ببسـاطة أنـا معـه حـرة لسـتُ مُكبلـة بأغـلال طينيتـي ولا مثقلـة بهرمونـات أنوثتـي كائن مصنوع مـن الكلمات، لكـن أحقاً سـأكتفي به ؟

كـم سـخرت مـن مـس سـلام في كتابـاتي وكـدت أن أخبرهـا أني أفهمـك وأفتضـح أسـلوبك هـذا عـبر الكتابـة ليـلاً

كلـما وجهـت لي إهانــة ابتســمت منهــا ســاخرة فتغيظهــا تلــك الابتســامة الغامضــة الهازئــة يغيظهــا عــدم فهمهــا لي، أحنــو ليــلاً عــلى مــس زهــرة وأكفكــف دمــع مــس فــوز وأحكــي تهــور مس نجـلاء وأُبــرر لمس ســارة عــدم فهمهــا أو جهلها، ألملــم جراحاتي وأداويهــا، أمــارس الظلــم والإســتبداد ليــلاً أجــرد أصحــاب المـدارس مـن أموالهـم ونفوذهم وتصبح السـلطة في يـد كلماتي في نقـرات معـدودات مرتجفـات عـلى أزرار الكيبورد أصـل للإتزان بعـد حالـة من فقـد التوازن تتلبسـني فلا أسـمح للنـوم أن يحول بينـي وبـين الكتابـة رغم الإجهـاد، رغـم التعب والإنهـاك، رغم أنـه بالـكاد أفتـح عينـي وكأننـي اغتصبها مـن بين جفـوني المغلقة عليهــا، رغــم تأخر ســاعات الليل وقلتها وجســدي ينــوء بأثقال عقـلي يصطـرخ طالبـاً منـه بعض راحـة، رغـم التحضـير المتأخر والشـيتات التـي لم تجهـز بعـد ومسـؤوليات أولادي و واجباتهـم التــي لا تنتهــي ...

لن يجبرني كل هذا عن غلق جهاز الكمبيوتر ...

ورن جرس المنبه ...

فتحت عيني هلعاً كانت الساعة لاتزال الخامسة فجراً ...

ســحبني النــوم إليــه ببســاطة دون أن يشــعرني فغفلــت عينــي ولم يــبرح جســدي مكانه كانــت شاشــة الكمبيوتر أمامي مســودة

وبيبـدو أنـه هـو الآخر استسـلم لسـبات عميق وحين لمسـته عادة الشاشـة مضيئـة وقـرأت آخر مـا كتبت ...

كنــت أعتقــد أن الكُتــاب مجموعــة مــن البــشر لايعرفــون الواقـع بـل يعيشـون الخيـال فحسـب، وأن الكاتـب لابـد وأن تكـون لـه القـدرة عـلى خلـق خيـال وصنـع حيـاه مـن تأليفـه يحياهـا ثـم يكتـب عنهـا، لكنـي اكتشـفت أن الكاتـب هو انسـان يعـرف الواقـع، يراه،يقـرأه، يفهمـه، ينفتـح أمامـه دون مجاملات أو نفـاق ودون زينـه بـل يـرى وجهـه الحقيقـي دون أصبـاغ وبلا زيـف ولكـي لا يمـوت الكاتب كمـداً بعد تكشـف وجـه الواقع لـه يهـرب للخيـال عـبر الكتابـة فيـه، إن الكاتـب الحقيقـي هـو شـخص هـارب مـن الواقـع إلى الخيال ومـن الكلام عن مـا يحياه إلى الكتابـة عـن حيـاة أخـرى يـود أن يحياها حيـاة يخلقهـا بكلماته بعيـداً عـن الحيـاة التـي يعرفهـا جيـداً ويخبرهـا بعمـق،

إذن ...

لست الوحيدة الهاربة إلى السطور اللاجئة عبر الكلمات .

أغلقـت جهـازي وتركتـه يرتاح بسـلام، نهضـت وكل ذرة في جسـدي تحكـي تعبـاً وتبـوح ألمـاً ذهبـت لغرفـة أولادي أطمئـن عليهـم فقـد تاقـت نفـسي لهـم وجلسـت عـلى السريـر وأواه من نعومتـه ودفئـه وحنانـه وإحتوائـه ورائحـة الإسـترخاء الجميلـة

التــي تفــوح منــه وتمــددت عليــه وارحــت رأسي على الوســادة ثم دسســت أنفــي في شــعر ابنتــي ...

ولم يفلح المنبه في إيقاظي هذه المرة ...

***

في اليوم التالي ...

نادي لي مس لينة .

حاضر .

طرقــت العاملــة بــاب الفصــل ثــم دخلــت قائلــة مس ســلام تريــدك ...

تمام .

دخلــت الغرفــة نظــرت لي مــس ســلام وعــادت لحديثهــا وضحكهــا مع مــس ربوة متجاهلــة بقصد وجــودي أو ربما تعبث بأعصــابي عــن طريــق الإنتظار ومشــاهدة ســعادتها العابثــة والتي أعــرف جيــداً أنهــا لا تتعــدى فمهــا .

مــس ســلام لقــد خرجــت مــن الحصــة لإن العاملــة أخبرتني أنــك طلبتنــي فلــو هــذا عــن طريــق الخطــأ ســأذهب للفصــل وألتفــت بوجهــي شــطر البــاب .

مـس لينـة كيف تتغيبـي بالأمس بغـير إذن مني ؟سـألت بحدة وقـد تجهم وجههـا أو عاد لشـكله الأصلي .

لإن أسباب الغياب لا تستأذنني .

قاطعتنـي أنـا لا أتحمـل الإهمـال، أن هـذا الغيـاب اسـتهتار، إنجـاز عملـك مسـؤولية وغيابـك جريمـة بحـق مسـؤوليتك وبعـد كل هـذا تتجاهلـين اسـتئذاني .

لم أتجاهل .

عــادت لمقاطعتــي بــل فعلــت، ليــس لي دخــل بقصــدك ونوايـاك أحكـم عـلى أفعالـك وتصرفاتـك أنـت مسـتهترة إزاء تحمـل المسـؤولية .

أنه مجرد يوم واحد غبته طيله الترم الدراسي .

قاطعتني لكنه دون سبب مرضي .

لسبب إنساني .

ابتسـمت سـاخرة ثم بسرعة عادت لملامحها المكفهـرة الغاضبة وسـألت والأسـبوع الذي غبتيـه من قبل ؟

لي أسـبابي القاهـرة وقـد بينـت بعضهـا (بالتأكيد لم أخـبر أحداً عن السـبب الحقيقـي وتعـذرت بالمرض).

كعادتها قاطعتني لا أتكلم عن الغياب بل الطريقة لم يتم إستئذاني، مجرد اتصال في الصباح أو تخبريني قبلها بيوم هل هذا صعب ؟

وزمجرت يبدو أنني أفرط في دلالكم لكن سأكون أكثر حزماً من الآن يوم الغياب سيحسب بثلاث أيام سيتم خصم ثلاث أيام مقابل يوم واحد غياب أهذا واضح ؟ على فصلك .

ابتسمت تلك الإبتسامة التي تعرفها جيداً والتي انتزعها انتزاعاً وأضعها اغتصاباً على شفتي وقلت اتفقنا .

وخرجت من الغرفة والحمد لله أن لي وجها دائرياً فلا تظهر عليه الابتسامة وقد لصقت بحرفية بل حقيقة خالصة .

بدلاً أن ادخل الفصل بتلك الحالة ذهبت للحمام استجمع قواي وأستجلب هدوئي وفور أن أغلقت الباب كادت دموعي أن تسيل مدرارة لكني نهرتها بعنف لا نقض للعهد عودي لمكمنك .

رن الجرس وقلت لنفسي هيا يا لينة حتى الإنحناء يتطلب قوة .

وأمام الواقع ظهر حلمي تافهاً أمامي ألقيت لومي عليه، وأنهلت تأنيباً وتوبيخاً .

وطـوال اليـوم حاولـت أن اظهـر بمظهـر طبيعي مرتديـة قناع العـادي بإحـكام وإتقـان حتـى لا تتـسرب مـن خلاله مشـاعري ليـس أمـام التلاميـذ أو زملائي مـن المعلـمات والمعلمـين، وكلما تـسرب شـيئاً منها هرعـت للحـمام وأعدت إبـرام اتفـاق الدموع مجـددة عهـد الجفاف .

وأخيراً انتهى اليوم الدراسي وقد استنزفني تماماً .

ذهبت للخياطة بعد إرجاء كم موعد معها ...

فتحت لي الباب بابتسامة أهلاً كنت في انتظارك .

شـكراً، وعـادت للجلـوس أمـام الماكينـة، تأملتهـا منكبة على ماكينتهـا المزخرفـة ولوهلة تخيلت كوني فنانة تشـكيلية، لرسـمت لهـا لوحـة رائعـة رائقـة كلاسـيكية بألـوان زيتيـة أو ربـما بالفحم والظـل الأسـود أو سـأكتفي بالقلـم الرصـاص، امرأة متوسـطة الطـول متوسـطة الإمتلاء بيضاء مـشرب بياضها بوهج مشـمشي اللـون، سأرسـم شـعرها الذهبـي معقوصـاً كذيل حصـان لم تنل من ثقله ولمعانه ونعومته سـنواتها الخمسـين، سـأضع فـوق عيناها قوسـان ذهبيـان مرققان ربما سـأضع عليهـما نظارتـان زجاجيتان فالإبـرة نالـت مـن نظرهـا، وألـون شـفتاها بلـون وردي ناعـم، وسـأكمل رسـم جسـدها بكثـير مـن الاسـتدارات الذراعـين، الوجــه، الصــدر، الخــصر مليئــة بالدورانــات والمنحنيــات،

سألبسـها فسـتان أبيـض مزدحـم بالكرانيـش مكشـوف الصـدر والذراعـين ثـم أجعلهـا تنكـب تراقـب خطـوات ماكينتهـا عـلى القـماش كحصـان رشـيق يختـال إختيـالاً في أمتـار الميـدان وعـين مروضـه لا تغفـل توجيـه جموحـه بـل توقيفـه إن تعـدت سرعتـه حـدود أمتـاره القليلة ...

لمـا لم تـأتِ أمـس ؟ أنتزعتنـي مـن بقـع ألـواني وخطوطـي الوهميـة ورسـمتي الخياليـة بسـؤالها .

فأجبت تعرضت لظروف منعتني .

أعانـك الله انتهيـت مـن الموديـل لم يتبـق إلا البروفـا (قيـاس الفسـتان عـلى الجسـد وتعديلـه)

جيد فلا أمتلك الوقت .

هيـا قومـي لقياسـه ودخلـت غرفـة مجـاورة وحـين ظهـرت أمـام المـرآه وقـد ارتديـت فسـتاني شـعرت بامـرأة أخـرى تلـك التـي ظهـرت أمامـي في المـرآة بـل تشـككت أنهـا مجـرد إنعكاسي وتمتمـت أيتهـا السـاحرة كيـف تفعلـين هـذا ؟، ماهـو سرك ؟

إنهـا امـرأة بارعـة لم يقـدر لي أن أرى مثلهـا في كل حيـاتي أنهـا فريـدة بـل نـادرة، تصنـع الموديـلات دون شريـط قيـاس دون أن تمـرره عـلى جسـد زبوناتهـا فقـط تنظـر لهـا نظـرة واحـدة ثـم تقـص الموديـل لاتسـتخدم أدوات القيـاس الإعتياديـة مطلقـاً،

أدوات الخياطـة التـي نعرفهـا كشريـط القيـاس والطبشـورة التي تعلـم بهـا القـماش والدبابيـس كل تلـك الأشـياء لاتعرفهـا بل لا تسـتعمل سـوى أصابعهـا وعـلى القـماش فقـط وفي حـدود قليلة جـداً لاتلمس جسـد الزبونة مطلقـاً لا بشريط القيـاس ولا بيدها بـل بعقلهـا تدير بـه كل عملياتهـا الحسـابية القياسـية وبيدها تنفذ تخطيطاتـه عـلى القـماش ثـم تنفـذ ماكينتهـا وهـي آخـر الخطوات لينتهـي الموديـل رائعـاً مفصـل تفصيلاً عـلى صاحبتـه وكأنه خلق لهـا خلقـاً فـلا امـرأة في الكـون تسـتطيع ارتدائـه غيرها .

يومـا سـألتها واعـرف أن سـؤالي وقحـاً فـلا يحـب محـترف أن يسـؤل عـن سره ..

أنى لك هذا ؟

أجابـت بابتسـامة لي أربعـين عامـاً أجلـس عـلى الماكينـة حتى أصبحـت أخيـط بعينـي لا أحتـاج لأدوات كنـت أسـتعين بهـا في بدايـاتي أمـا الآن وبعـد مـرور كل تلـك السـنين بمقـدرتي أخيط لأمـرأة ثوبـاً لـو نظـرت لصورتهـا فقط .

ما شاء الله إنك بارعة بل ساحرة .

تنهـدت، حـين أفتـح عينـي صباحاً أول شـئ أفعلـه الجلوس عـلى الماكينـة ولا أقـوم إلا العاشرة مسـاءً لـولا أداء الصلـوات لما غـادرت ماكينتـي، قضيـت طفولتـي ومراهقتـي وشـبابي أمامهـا

ومارسـت أمومتـي وأنـا أجلـس عليهـا تعلمـت مـذ أن كنـت في العـاشرة ولم أفارقهـا حتـي يومـي هذا ولن يحـول بينـي وبينها إلا القبر .

هل ورثتها لأولادك ؟

لا، بالرغـم مـن أني لي أربـع مـن البنـات جميعهـن متزوجات ولديهـن أطفـال وولـد واحـد متـزوج وأب أيضاً .

لما لم تفعلِ ؟

لإني ضـد عمـل المرأة وكـدت افتح فمـي إندهاشـاً وقلت أف أنـتِ امـرأة عاملة ومـن الطـراز الأول فلَا تمنعـي بناتك؟

أكملـت السـاحرة ليـس هـذا فحسـب تلـك الشـقة الواسـعة الفاخـرة بأثاثهـا الفخـم وبلاطهـا اللامـع ونظافتهـا مـن عمـلي حتـى تربيـة أولادي من عملي زوجـي موظف بالكاد نـرى راتبه.

ورغم ذلك أنت ضد عمل بناتك ؟

سأخبرك لما ...

ورن هاتفها المحمول لحظة من فضلك .

أهلاً .

....

تمام المعطف جاهز مري في أي وقت لإستلامه .

....

سلام بانتظارك .

وقلت لنفسي ترى ماهي فلسفتك ياساحرة عن عمل المرأة .

وكأنها سمعتني فقالت،

أردت لبناتي أن يكن ربات بيوت وأمهات لم أرد لهن العمل وكنت اسأل إن جاءهن خاطب أتوافق على عمل زوجتك إن قال لا، أوافق عليه وإن قال لا بأس، لا أوافق إلا واحد أجبرتني ابنتي على الموافقة عليه وعذبنا كثيراً بعد ذلك .

مازلت لا أفهمك ...

المرأة حين تعمل وتتذوق يدها ملمس المال تتمرد على حياتها وتتنمرعلى حياة زوجها وأنا أردت منهن أن يعشن على مقدرة أزواجهن أن يبنين متطلباتهن حسب ما يتحمل سقف أزواجهن، ياعزيزتي المرأة ليست كالرجل أمام المال، فالمال يحتاج لعقل أما المرأة فيطيش عقلها أمامه تتحكم بعاطفتها في مالها مرة تتحكم بأنانية وثانية بتمرد وثالثة بتحرر ورابعة بتطلب وخامسة وسادسة وبرغم من كل هذا في النهاية لا يجعلها هذا سعيدة، المال يفسد المرأة، سأخبرك عن تجربتي

مـع المـال لقـد جعلنـي كثـيرة التطلـب لا يهـدأ لي بـال إلا أن أحقـق كل متطلبـاتي التـي لا تنتهـي أبـداً ووجدتنـي في دوامـة لا أسـتطيع الإكتفـاء بـما يقدمـه زوجـي، ولا أقـدر عـلى القناعـة بـما هـو موجـود، ولا أشـبع مما لا أمتلـك، تحولـت لأمـرأة تريد امتـلاك كل شـئ، كلـما تدفق المـال إلى يدي كلما نهمـت وطمعت لم أشـبع قـط ولم يتوقـف المـال قـط، وبالطبـع عجـز زوجـي عـن هـذا السـباق المحمـوم الـذي وضعـت نفسـي فيـه بـين العمـل الـدؤوب ومواصلـة الليـل بالنهـار لتلبيـة كل رغبـاتي التـي لا تنتهـي فتركنـي في سـباقي عاجـزاً لقـد قوضـت شـخصيته إنـه لا يسـتطيع مجـاراتي في هـذا السـباق فانتُقصـت قيمتـه في عينـي وشـعر هـو بذلـك فعـاش في الظـل أصبـح هـو مـن يعيـش عـلى مقدرتي وحسـبما يسـمح بـه وقتي ولم يسـمح بالكثير لـذا لم أجود عـلى زوجـي بشـئ بـل تحولـت لأمـرأة قليلـة الوقـت، شـحيحة العاطفـة، متقـدة الطمـوح، منهكـة القـوى، ملحاحـة جامـدة نهمـة لا تمـل ولا تكتفـي ولا تشـبع، زاحمـت زوجـي في صفات الرجولـة فـكان أمامـه خياريـن لا ثالث لهـما إما أن يظـل في الظل كـما فعـل وينسـحب تـاركاً لي الميـدان واظنـه حكيـم في ذلـك أو يصارعنـي وينافسـني في الميـدان وفي النهايـة لابـد مـن هـازم ومهـزوم خـاسر ومنتـصر والحياة الزوجيـة لا يصلح لهـا مثل هذا االنـوع مـن الصراعـات لـذا فقـد قرر هـو التنـازل والإنسـحاب لمصلحـة الأسرة، بإختصـار انقلبـت المعادلـة، لم أرد لبنـاتي هذا لم

أرد لهـن أن يكسـبن الكثـير مـن المال ويتوهمـن أنهن سـيحققن به كل متطلباتهـن وأحلامهـن وهـن في حقيقـة الأمر سـيخسرن كل شـئ حتـى ذواتهـن أتظنني سـعيدة، لسـت كذلـك ولم أرد لبناتي هذا .

أتفهمـك لكـن هنـاك جزئيـة مازلـت لا أفهمها المـرأة زوجها يعطيهـا مـصروف أو نفقـة أو حتـى راتـب شـهري بـل إن بعض الرجـال يعطـي زوجتـه راتبـه كلـه تتصرف فيـه كيف شـاءت ما الفـرق بـين أن يكون لهـا مصروف مـن زوجها وبـين أن يكون لها راتـب تكسـبته هـي، في النهايـة المال مـال والمـرأة مرأة ؟

مـلأت المكوك بالخيط ثم قالت فرق شاسـع بـين أن تمنح المرأة المـال مـن زوجها وبـين أن تتكسـبه هـي بعـرق جبينها، يفسـدها المـال الـذي تتكسـبه بنفسـها بعكـس ذاك المـال الـذي يمنحـه لها زوجهـا يجعلهـا ممنونـة لـه خاضعـة إليـه مسـؤولة منـه يشـعرها بالأمـان والضعـف بالإحتـواء والألفـة بالجـود والكرم بالسـخاء بـل بالقـوة تشـعر أنهـا قويـة لإنهـا مرغوبـة هنـاك مـن يمنحهـا ويحميهـا بـل ويدفع لهـا لمجـرد أن تبقى بجانبـه وأن تبقـى في قلبه وأن تحيـا بروحـه أنـه يدفـع لها ثمـن حبه لهـا، ثمـن وجودها معه أنـه بمنحـه راتبـه لها يخبرهـا بأنه لهـا قلباً وعقـلاً وروحاً وجسـداً وجهـداً ومـالاً وطموحـاً وسـعياً أنـه لهـا كلـه تخيلي ذلـك الرجل الـذي ينتهـي نهـاره في العمل ويعـود منهكاً ليـلاً يلتمـس الراحة

عندهـا والسـكن إليهـا يأخـذ بكفهـا الناعمة بـين كفيـه القويتين يقبلهـا ثـم يفتحها ويضـع فيها الراتب كامـلاً أو نصفـه أو ثلثه أو كيفـما اتفـق بينهـما، آه يـا لوجع المـرأة التـي تعمل فتتكسـب مالها بعرقهـا أنهـا أتعـس خلـق الله لأنهـا تعلـم أنهـا وحيـدة وضعيفـة لا يقـدم لهـا المـال بحـب ومـن عاطفـة ومـن إرتـواء بل يقـدم لها بقسـوة ومقابـل وهـي لن تسـتمر في العطـاء وتعرف ذلـك جيداً، المـرأة خلقـت لتعطـي مشـاركة وتأخـذ مشـاركة لم تخلـق لتعتمد عـلى سـاعدها وعـلى قوتها لإنهـا ليسـت قوية وهـي تعلـم ذلك جيـداً لكنهـا بارعـة في الكـذب لا أحـد يتفـوق عليهـا في ذلـك هـذا إن نظـرت للموضوع مـن ناحية عاطفيـة تكوينيـة باختصار عمـل المـرأة يجعلهـا تتوحـش لتكفـي صراعها أمـا لو نظـرت لها مـن ناحيـة عقليـة عملية ألسـت معلمة علـوم تعتمـد مادتك على التجربة والمشـاهدة والاسـتنتاج،

قاطعتها مبتسمة لست مجرد خياطة ...

تحمسـت وقالـت بـل مجـرد خياطـة لكنـي صاحبـة تجربـة، خبـيرة بعمـل المـرأة يـا ابنتـي سـأكلمك بلغتـك لغـة التجربـة لنخـوض التجربة معـاً لو أن امـرأة تعلمت ثم تزوجـت فأنجبت ولنفـترض أن المسـكينة قامـت بمهامهـا من طبخ وكنس وغسـل وتدريـس لأولادهـا وتبقـى لها نذر يسـير مـن الوقت ولا تنسـى هـذا مجـرد فـرض لإن لـو امرأة قامـت بـكل مسـؤولياتها على أتم

وجـه لـن يتبقَ لها وقت لتلقـط أنفاسـها حتـى وإن تبقى فسـتنام فيـه مـن التعـب والإرهاق لكـن لا يهم لنفـترض، قـررت فيه أن تعمـل، أخبرينـي مـاذا تركـت للرجل أنهـا بطريقـة ضمنيه تخبره إمـا أن يصبـح إتكاليـاً لإنهـا قامـت بعملهـا وعملـه فلم تـترك له مسـؤولياته بـل تضلعـت بهـا وتحملتهـا عنـه، أو مهـزوزاً ضعيفاً لإنهـا لا تثـق بـه وبالتـالي أزاحتـه وحلـت محلـه، أو لا مباليـاً فإن كانـت هـي اختـارت الشـقاء بحمقهـا أو بعقلهـا فلتتهنـى بـه وليتهنـى هـو بالراحـة وهـو لا يُـلام فهـو بذلـك إنسـان طبيعي جـداً فيـما وصل إليـه فخُلق البـشر والمسـؤولية تتعبهـم وترهقهم مـاذا لـو تطـوع أحدهـم وحملهـا عنـه يكـون مجنـون وغـير عاقل إن لم يرتـاح ويضـع رجـلاً فـوق أخرى بـل وليس بمسـتغرب إن تبقـت بـه ذرات مـن رجولـة وجزيئـات مـن حميـة أن يبحث عن أخـرى يتزوجهـا إما لـكِ يعطيها قوتـه التي انكسـرت وذويت أو يتزوجهـا قويـة ليكمـل رحلتـه الإتكالية فالـزواج لا يكلفه شـيئاً ثـم تشـجب وتنـدب وتـصرخ زوجتـه الأولى وتغـرق في دوامـة المسـكنة والشـحاذة العاطفيـة وتعيـش دور المظلومـة المضحيـة المضطهـدة وأنـه هـو الخائن المستبد السـلطوي .

صدقنـي لوعـادت المـرأة لبيتهـا وعـاد الرجل لعملـه لأنتهت كل قضايـا الطـلاق، لـو قامت المـرأة بدورهـا دون إقحام نفسـها في أدوار أكـبر منهـا ولـو تقلـد الرجـل دوره برجولـه لما وجدت

أسر مشتتة ولا وجدت أزمة عنوسة ولأختفى الإنفصال الزوجي والخرس الزوجي فقط ليقم كل بدوره بإخلاص وإتقان محترماً دور الآخر ومسؤولياته دون تدخل ولا إقتحام ولاينفي هذا وجود لغة النصح والاستشارة والمشاركة لغة الحوار .

هززت رأسي تجربة متكاملة بمشاهدتها واستنتاجها وأدواتها، لكن هل تعيش المرأة متسولة زوجها أمد العمر ؟

قاطعتني مبتسمة ابتسامة غريبة بالعكس أنتِ من تتسولين مديرك ومشرف مادتك وتتطلبين راتبك من صاحب الحسابات ألا يرفعون كارت الخصم الأحمر في وجهك حصة حصة وفي كل هفوة وعلى كل زلة، زوجك لا يفعلها يكون الرجل وزوجته متخاصمان ومتعاركان ويترك لها مصروفها .

وأكملت أنا بل يكون طليقها ومجبر أن يترك لها نفقتها .

أها أنت أجبت بنفسك فأي إكرام أكثر من هذا تريده المرأة وأي كرم تطمح إليه أكثر سخاء وهذا بالتحديد ما أردته لبناتي أن يكن كما خلقهن الله نساء في بيوت أزواجهن.

لكن الإستقلال المادي ؟

ملحاحة أنت في أسئلتك ليس ببساطة يملأ الكلام عقلك، أولاً نادراً ما منح الراتب المرأة استقلالاً مادياً لإن الرواتب

بالـكاد تكفـي وليس هـذا في الـدول العربيـة حتى الغربيـة راتب المـرأة نصـف راتـب الرجـل، وحتـى إن حصلت عـلى راتب كبير فكـما أخبرتـك سـلفاً لـن تكتـفِ منـه وسـيبقى راتبهـا إمـا عامل مسـاعد بجانـب راتـب زوجهـا أو سـتبقى عالـة لكـن جزئيـاً وليـس كلياً عـلى زوجهـا أو عائلتها،

أمـا ثانيـاً هـم توهمـوا أن المـرأة يسـعدها تحقيـق الإسـتقلال المـادي هـاتي لي أغنـى غنيـات الأرض وسـأخبرك أنهـا أتعـس تعيسـات الأرض المـرأة لا يسـعدها الإسـتقلال المـادي أو العملي أو حتـى الإسـتقلال العلمـي بـل يشـبعها ويسـعدها الإسـتقلال العاطفـي ولـن تجـده في العمل أو التعليـم أو قيادة أعـلى المناصب لـن تجـده إلا في تكويـن أسرة في أطفال ترعاهـم وزوج تهتم بأمره هكـذا خلقنـا الله وقـدر لنـا طبيعتنا وتمردنـا على تلـك الطبيعة لن يكسـبنا سـعادة بل سـيغرقنا في دوامة شـقاء لن نخرج منها بشئ .

الآن فهمـت لمـاذا لم تعمـل السـيدة خديجة في مالها واسـتعانت بنبينـا محمـد صـلى الله عليه وسـلم ليس لصدقـه وأمانته فحسـب بـل لفهمهـا طبيعة الرجـل وطبيعـة المرأة .

هـزت السـاحرة رقبتهـا نعـم رغـم أنـه أصغـر منها سـناً لكنه أكبر جسـداً وأقوى عقـلاً ورغم إمتلاكهـا المال لم يغنيهـا هذا عن حاجتهـا لرجل ورغم سـنها لم يجعلهـا هذا تتوقف عـن الإنجاب والأمومـة، وليـس أي رجلبـل أمـين قـوي صـادق وينياهـا مـن

وجـدت رجـل بمثـل تلـك الصفـات صدقينـي لوعملـت لديـه خادمـة سـيبقى شرف لها وسـعادة ترفـل بها .

قومي لقياس فستانك ..

ذهبـت للبيـت وقـد استغرقني تمامـاً كلامهـا وحينـما دقـت السـاعة الحاديـة عـشر ليلاً هممـت بالخلـوة إلى جهـازي وقبل أن أمـد يـدي لأفتحـه تذكـرت مس سـلام وتوبيخهـا لي لغيـابي، لا يهـم غـداً الخميـس فلتتأجل الكتابـة و سأسـهر غداً اكتب شـطراً مـن الليل،

تراجعت من أمام الجهاز وأنا أربت عليه وأقول موعدنا غداً ..

وذهبـت للنـوم مـا أجمـل السريـر مـا أنعـم ملمسـه ومـا أحلى رائحتـه ومـا أشـد احتيـاج رأسي المثقـل لعنـاق وسـادته المنتفخة لكننـي عجـزت عـن النـوم رغـم نبـاح عقـلي وضجيـج الألم في قدمـي مـن طـول الوقـوف في الحصـص وألم روحي جفـا الكرى أجفـاني وغـادرني النعـاس وتلبسـتني الكلمات ومـلأني عجيجها وأرقتنـي بإلحاحهـا وكان لابـد لي مـن الخـلاص ولابـد لهـا مـن إفراغ وتحـرر ..

بينـما أنـا في حالتـي تلـك إذ وصلـت رسـالة عـبر هاتفـي المحمـول كـدت ألا أفتحهـا لكـن الوقـت المتأخـر مـن الليـل أشـعل فضـولي ...

رقم غريب

وبرغـم السرعـة التـي تفتـح بهـا الرسـائل إلا أن عجلتـي الممزوجـة بـكل إنفعـالات الكـون مـن رهبـة، رغبـة، ذهـول، فضـول، خـوف، حمـاس، تـردد، تهور، جنـون، ارتجـاف جعلت مـن مـدة فتـح الرسـالة دهـراً وأخـيراً فُتحـت الرسـالة ...

قرأت نصها (هل أهنئ نفسي على قبول الدور ؟)

وتقافـزت شـياطين الكـون في عقـلي ونهضـت دفعـة واحـدة مـن عـلى سريـري مـن أيـن لـه برقمـي ؟ هـل حقـاً تجرأ وأرسـل في هـذا الوقـت ؟ ألم يخـشَ زوجـي ؟ يـا للمصيبـة أم هـو يعلـم بحالتـي ؟يعـرف أنه مـا مـن زوج بجانبـي ؟آه لو كانت الرسـالة مـن زوجـي ؟ لـو كان هـذا الوقت مخصـص لثرثرتنا عـبر الهاتف كـم أود أن أحكـي لـه أشـياء كثـيرة، بـل سـأختلق مـا أحكيـه له فقـط حتـى أمـزق ذلـك الصمـت الكئيـب بيننـا وتملـك قلبـي حـزن غريـب أمسـكت بالهاتـف وأتصلـت بزوجـي لا يهـم الوقـت فمـن المفـترض أنـه لا وجـود للوقـت بـين الأزواج لكن كـما العـادة لم يـرد وكأننـي أتصل عـلى جهـاز سـجين الفاترينة لا يصلنـي ببـشري .

ووجدتنـي أفكـر في هشـام أتـراه يعـاني السـهاد مثـلي يقـاوم الأرق ويعـز عليـه النـوم متأنفـاً عـن زيـارة عينيـه ؟ربـما كانـت

الرسـالة لأحـد غـيري ووصلتنـي بالخطـأ ؟مـن هـذا الأحـد الـذي سيراسـله في هـذا الوقـت ؟اللعنـة ربـما تكـون امـرأة ؟فبالتأكيـد لـن يراسـل رجـل رجـلاً في هـذا الوقـت المتأخـر ؟يا خالـق الأكـوان أكاد أجـن، يـارب الملكـوت يـكاد عقلي يشـتعل أصـلاً أنـا أعـاني عندمـا يلامـس رأسي الوسـادة وكأنـه موعـد مـع الهواجـس فأجدهـا تتقافـز إلى رأسي ولا تغـادرني إلا بعـد أن تسـلمني إلى الكوابيـس وكأنهـم يسـلموني لبعضهـم بعضـاً في ورديـات منتظمـة، أحتـاج تهدئـة تسـاعدني عـلى النوم لا رسـالة تجعلـه يطـير من عينـي كمقـذوف الـرأس المدمرة لصـاروخ تحرر مـن قاعدتـه الكيميائيـة .

وبـلا إراديـة لأتصـل بزوجـي أحتـاج سـماع صوتـه سـأضع حـداً لـكل هـذا الجنـون ...

وباندفاع ضغط على زر الإتصال لا مزيد من تفكير ..

جاءني صوتها الآلي...الهاتف مغلق ..

يـا امـرأة ألا تنامـين أبـداً لابـد أن تخبريني أنـه مغلق أصـلاً أنا أعـرف هـذا ألم يعلمك أحدهـم الكـذب أو اللباقة ..

ليلتهـا طُـردت مـن مملكة النـوم الهادئـة وكأنني معـارض قرر أن ينتـزع اسـتقرارها، وشُـل عقـلي عـن التفكير وكأننـي لم أدرس يومـاً عـن طـرق حـل المشـكلات ولم أفنـي مراهقتـي ومقتبـل

شـبابي في المسـائل العلميـة ولم أفـكك ألغـاز اللوغاريتـمات ولم يعذبنـي أينشـتين ويتحالـف معـه نيوتن أيـن الأحمق الـذي أدعى أن العلميـين يقـدرون عـلى حـل المشـكلات هـا أنـا ذا كأميـة لاتعـرف القـراءة ولم تكتـب حرفـاً قط، يـارب الأكوان سـاعدني يـكاد عقـلي أن ينفجر كقنبلـة هيدروجينيـة قررت الإنشـطار ...

***

أخيراً هل الخميس

ذهبـت للمدرسـة وبداخلي قـرار وحـين انتهت اللجنـة الثانية قررت تنفيـذ قراري وقـت الإشراف ...

بينما مسـتر هشـام يـشرف معـي في السـاحة وبـين مجموعة من الطـلاب قـد تحلقـوا حولنـا قلـت مسـتر هشـام هـاك ورقتك قد نسـيتها وجلبتهـا لـك وقدمتها إليـه بيضاء مطويـة فيظن الطلاب أنهـا ورقـة امتحانـات أو تدريبات .

وعـدت للإلتهـاء في الإشراف قاطعـة عـلى نفـسي رؤيـة ردة فعلـه فـلا يلزمنـي معرفتهـا ...

وشـعرت بهـم ثقيـل ينزاح مـن صـدري لا دور بطولـة لك في حياتي ...

في الليـل لجـأت إلى جهـازي وقـد جلبـت فنجان شـاي معطر بالنعنـاع والقرنفل ...

كتبت ..

نحـن مختلفـون في طريقـة تعاطينـا للحيـاة هنـاك مـن يعـبر الحيـاة بصمـت كجـدتي، وهنـاك مـن يعتبرهـا كتـاب يقـرأ صفحاتـه المتقلبـة كجـدي، وهناك مـن يتعاطاهـا بجديـة وإلتزام تجـاه مسـؤولياته كأمي، وهنـاك من تمثل لـه الحياة عقارب سـاعة يحياهـا بروتـين وانتظـام يتعاطاهـا كـما يتعاطـى دواء لـه مواعيده وجرعاتـه متحمـلاً مذاقـه كأبي، وهنـاك من يعتبرها محطـة انتظار كزهـرة أو مـكان عنـاء كسـارة أو امتحـان صـبر وعـداد أيـام كفـوز، وهنـاك من يعتـبر الحياة مـدة لتقضيـة عقوبة كنجـلاء، أو لوحـة للإبـداع كخديجـة أو تحقيـق حلـم كلينـة، أو البحـث عـن االاسـتقرار كبـاران .

(خديجة وباران سنحكي قصتهما فيما بعد)..

وقضيـت بقيـة ليلتـي اقـرأ كتـاب لعبة الأمـم، نعم إنـه كتاب سـياسي لأقضيبـه عـلى عقلي أريـد أن اتعـب عقلي حتـى لايلتفت لي ...

***

صبيحة الجمعة ...

قضيت ليلة مسهدة أرقة إلا أنني استيقظت صباحاً فقد إعتاد جسدي الإستيقاظ مبكراً ظللت أتقلب على سريري لكني فشلت في استجلاب النوم فنهضت حضرت فنجان قهوة وقبل أن تلمس شفتاي حافته جاءتني رسالة فتحتها،

آسف أن جعلتك تفهميني بطريقة خاطئة، ما كنت لأكون سبب في هدم حياتك، لكن وددت أن تكون لي صلة مع واحدة تشبهك .

بصراحة لم أفهم الشطر الثاني مع الرسالة أكانت تربطه صلة ما بامرأة تشبهني وانتهت أم هو لايزال على تلك الصلة المجهولة مع امرأة تشبهني أم يود أن يقيم صلة مع امرأة تشبهني، في النهاية أنا شبيه لكن شبيه من أي ناحية شكلاً جسداً عقلاً عاطفة وجهاً، ثم لم يرسل لي في أوقات غريبة غرابتها ليست في توقيتها بل في إحتياجي لها، كدت أرسل له رداً لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة فبقليل من تفكير تجلى لي جزء من شخصيته إنه ليس من النوع الذي يحجبه الرفض عن الوصول لما يريد أنضج خبير أم عناد مندفع أم رفض للرفض، أم فهم دقيق لطبيعتي، أياً ماكانت دوافعه ونواياه فلن أرد آملة أن يكون التجاهل منقذاً لي منه .

رفعت الفنجان لشفتاي فعجزت عن الإرتشاف لإنه لم يتبق سوى راسب البن الرطب إذن فقد أنهيت فنجاني دون أن أتذوقه ضاعت متعتي الصغيرة في دروب عقلي القلق ..

أطفالي مازالوا نائمين ولم أجد ما أفعله في باكورة يوم إجازة فألتقطت كتابي المنقلب على وجهه وقرأت لحوالي ساعة ثم تذكرت مطالب الموجهة بأن أكتب لها وجهة نظري النقدية لمنهج العلوم في الصف الرابع والخامس والسادس الطلب حماسي لكن ظني أنهم سيضعون ما كتبت في درج مهمل في مكتب مسؤول حتى إذا مر عليه بعض وقت وجد طريقه في سلة المهملات حال دون إشتعال حماسي بل وكدت أن أحجم تماماً عن طلبها لكن عرقلني إحساسي بالمسؤولية عن إهمالي لمطلبها وبدأت أكتب رؤيتي من منطلق سرد الموضوعات بطريقة منطقية أي بتسلسل منطقي من حيث التدرج في المعلومات، الإجراءات الصعبة بالمنهج، الأنشطة (التجارب) الصعب تنفيذها، الإستراتيجيات التي يجب تغييرها، المعلومات التي سيتم حذفها للحشو أو التكرار أو الصعوبة ...

انتهيت بحوالي الساعة العاشرة مع موعد إستيقاظ أولاد فألتهيت بهم ولهم حتى قرابة الثامنة ليلاً ..

وفي تمام التاسعة اتصلت أميرة هل كتبت المقترحات التي اتفقنا لتوجيهها لإدارة المدرسة ؟

ليس بعد أهي مهمة .

مطلـب من مطالـب العمل ويجـب تنفيذه لا دخل لنـا بجدواه أو عدمها .

أهـا علـم وينفـذ قلتهـا بطريقـة سـاخرة فضحكـت أمـيرة وثرثرنـا قليـلاً ثـم أغلقـت الخـط ..

وعـدت مـرة أخـرى أدون ملاحظـاتي، في البدايـة احـترت هـل أكتبهـا مبـاشرة علي هيئـة نقـاط معـدودة أم لابد مـن مقدمة وخاتمـة وكأنهـا جـواب رسـمي وبعـد قليـل تفكـير انتهيـت إلى لـو أن الاقتراحـات طلـب إدارة فسـأكتبها نقـاط لإنهـا مجـرد أمر والأوامـر عـادة تـؤدى بطريقـة روتينيـة لا دخـل للمشـاعر فيها، أمـا لـو أنهـا اقتراحـات تطوعيـة منـي إليهـم فسـأكتبها بمقدمـة وخاتمـة ...

انتهيـت قرابـة الحاديـة عشر ليـلاً ونهضت من مكتبي بجسـد مترنـح وأجفـان مثقلـة بالكاد أتحملهـا مفتوحة فـوق عيني ...

وفـور أن وضعـت رأسي على الوسـادة وصلت رسـالة لشـدة حاجـاتي للنـوم ولعلمـي أن تلك الرسـائل لا يأتي منهـا إلا القلق عزفـت عـن فتح الرسـالة وأغلقـت هاتفـي تماماً .

في الصباح ...

فتحت الرسالة تحوي كلمة واحدة ...

أكتبيني ...

من أدراه أني أكتب ؟

وسـحبني هذا السـؤال لشـطر مضى من حيـاتي بالتحديد ليوم خميـس كنـا ننتظـر زيـارة المحاسـب لم يرتجـف قلبـي ولم يعترِيـنِ قلـق كـما فرضـت العـادة لم تكتنفـنِ أيـة مشـاعر سـوى بعـض فضـول مـن ذلـك المحاسـب المراقبة من قبلـه ؟ وفي سـاعة محددة دلـف الرجـل بيتنـا وبعـد دقائـق قليلـة اسـتوى جالسـاً في غرفـة الإسـتقبال لم يحـضر معـه سـوى والدتـه، وكـما العادة إسـتقبلهما والـدي وبعـد ربع السـاعة تقريبـاً دخلت إليهـما بفناجـين القهوة المبثوثـة عـلى صينيـة فضية البريـق ...

تفحصتنـي أمـه وكأنها تعايـن بضاعة أعجبتها وهمـت بشرائها أمـا هـو فنظراته متآلفـة لي ألا يـراني كل يوم لكن الجديـد أنه الآن في بيتـي بـدلاً مـن نظراتـه المراقبـة في الجامعـة، رفعـت عينـي إلى وجهـه وأنـا أقـدم لـه فنجانه فرق شاسـع بينـه وبين خالـد المعلقة صورتـه عـلى جـدران ذاكـرتي المخفيـة في تصدعـات اللاوعـي، فالمحاسـب مربـع الوجـه عريـض الجبهـة أبيـض البـشرة بعينـان عاديتـان وكأنهـما مجـرد فتحتـان في الوجـه لا تفضي لشـئ ولاتعبر عـن شـئ أبيـض البـشرة ذلـك البيـاض الرجـولي الـذي لا يـدل

علـى لـون بقـدر ماهـو إنعـكاس لمسـتوى الشـخص وإسـتدلال علـى الإعتـداد بالنفـس، يميـل جسـده للإمتـلاء وعرفت اسـمه عثـمان، وبـدا أنـه يعرفنـي أكثـر من الـلازم لكنـه بحاجـة لمعرفة بيتـي وأمـي وأبي زيارتـه بـدت وكأنهـا دراسـة مجتمعيـة عـن فتاة راقـت لـه في الجامعـة، تبادلنـا حـواراً عاديـاً يـدور حـول عملـه ومخططاته المسـتقبلة التي تشـملني، وعن دراسـتي وحين سـألني عـما أفكر فيه بشـأن المسـتقبل أجبت بأنـه لا فكرة محددة المسـتقبل بالنسـبة لي مبهـم أنـا أتمنى التخـرج مـن الجامعة دون رسـوب أو ملحـق .رد علـي لا طمـوح للتقديـر أجبـت لا فقـط النجـاح مـا أطمـح إليـه وبـدلاً مـن أن تصيبـه إجابتي بخيبـة وجدته سـعيداً وحـين سـألته عـن السـبب قـال لا أحتمل وجـود زوجتـي معي بنفـس مـكان العمل .

سألت باستغراب لما ؟

لا يريحنـي قالهـا بحـذر واختصـار وكأنـه يخشـى فتـح مجـال للنقـاش بيننـا .

وهكذا انتهت الزيارة أو بالتحديد المقابلة الأولى .

في بحر الأسـبوع وذات عصر ونحن نرتشـف الشـاي سـألني أبي بإيـماءة مـن أمي بـما أرد على المحاسـب ؟

رد بأوافق هكذا قلتها ببساطة ودون تلعثم وكأنني أنهي عمل أو أنتهي من إحدى فروضي .

وكأبي رجل روتيني وبجدية أمي انتهى الأمر بلا نقاش أو دعوة للتفكير أو أية أسئلة عاطفية أخرى أعترف أنني فتاة لم تخطط للحب وليست لي معرفة به إلا ما قرأته عنه في الكتب وعبر صفحات الروايات والقراءة عن الحب مختلفة تمام الإختلاف عن الوقوع فيه كما القراءة عن الكتابة مختلفة عن الوقوع في الكتابة إن القراءة عن الحب تشبه تحصيل معلومات عنه مع الإصابة ببعض الشجن الجميل والمشاعر العذبة أما الوقوع فيه فهو العذاب الذي لا عودة منه ولا نجاة دون إصابة بآثار مستديمة به، لم تطل الفترة الزمنية بين الخطوبة والزواج سوى ثلاث أشهر كنت وقتها أتحضر لإمتحانات البكالوريوس النهائية وأذكر أنني كنت أخرج من اللجنة لبروفا الفستان بصحبة إحدى صديقاتي التي قدر أن تكون مخطوبة مثلي وأن مواعيد زواجنا متقاربة التوقيت فكنا ننهي لجاننا ثم نذهب للتسوق لتلبية بعض إحتياجات الزواج وإبرام المواعيد مع الكوافير والقاعة وما إلى ذلك، أمي امرأة عاملة يستهلكها العمل فلا يترك فيها متنفس وأبي مريض كما أوضحت وصديقتي تشبه أوضاعها أوضاعي فما كان أمامنا إلا الإعتماد على أنفسنا صحيح وقعنا في بعض الزلات

وأرتكبنا بعض الهفوات لكن في المجمل أنجزنا المهمة وهكذا مرت وتيرة الأيام من حمل وإنجاب فبعد سنتين من الزواج كنت أم لطفلين طفل وطفلة لا أنكر أنني أحببت زوجي لكن ذلك الحب البارد المستجلب بالعشرة والمواقف المحفوف بالمسؤوليات والروتين والضغوطات لم أشكو من زوجي طيلة ثمان سنوات زواج سوى أن له طبع جاف كأن بين عظام صدره جلمود على شكل قلب فقد كان كثير خصامي وهجري وأشهد الله أنه لم يسبنِ قط ولم يتطاول علي باليد قط ولم ينلنِ صوته بصراخ وزعيق لكنه كان لا يكلمني بالأسبوع ولا نلتق على مائدة طوال مدة هجره في البداية كان أسلوبه غريباً عما عهدته في عائلتي سواء في زمن جدتي وجدي أوفي عهد أمي وأبي لذا تذرعت بالصبر بل وذقت مرارته بصمت في بداية زواجنا كانت مدة قطيعته لا تطول عن أسبوع لكنها تدرجت حتى أصبحت شهر وجر الشهر أخوته الشهور ثم بدأ يرحل عن البيت لا أعلم عنه شيئاً لكنه في النهاية يعود، وزاد السفر طبعه توحشاً، ودعمت الغربه جبلته، صحيح أنني لم أتكيف مع طبعه ولم أعتد عليه في البداية لكنني أيضاً لم أقاومه أو أقومه ولا ثُرت عليه بل أصابني طبعه بالجفاء وأكسبني القسوة ولكي أتحمل ذلك كله عدت لدفن نفسي بين دفتي الكتب وأصبحت أنهي في الأسبوع كتاباً أو كتابين كنت أخرج آلامي في الكتب وكأنها هي المسؤولة عن متاعبي

وبـدأت الكاتبة الكامنـة في أعماقي تعود للكتابـة، في البداية كنت أكتـب لصحـف إلكترونيـة ثـم لورقية لكنـي توقفت عـن نشر ما أكتـب وأكتفيـت بالكتابـة في الظـل وكأني أنثـر عـذابي وأحـاول مـدواتي في الخفـاء ومـع إلتحـاق طفـلاي بالمدرسـة حصلت على بعـض الوقـت فألتحقـت أنـا الأخـرى بالعمـل لم يكـن الوقـت هـو السـبب بـل السـبب ذكرته سـابقاً في كتـابي ولن أذكـره مجدداً حتـى لاأقـع في فخ التكرار الممل ولسـت أنسـى أوائـل أيام عملي معلمـة تحاصرهـا رهبـة البدايـات تقلقهـا هيبـة المسـؤولية ويثقل عاتقهـا مسـتقبل غامـض يحتمـل كل الإحتـمالات يتأرجـح بـين إمكانيـة النجـاح وحتميـة الفشـل، بجعبـة قليلـة الخـبرة ناقصـة التجربـة لميـدان العمـل وكنانـة الأسـهم الموجهة نحـوي أكثر من تلـك التـي سـأخوض بهـا غـمار المعـترك، أذكـر جـدولي المترنـح بتأثـير الحصـص متنقلـة بـين مراحل عمريـة متباينة بـين من يخطو أعتـاب الطفولـة إلى الـذي يخطـو أعتـاب المراهقـة فالـذي يخطـو أعتـاب الرجولـة ...

لكننـي في النهايـة اعتدت عدم وجود زوجي مـرة بالهجر ومرة بالسـفر وكان هـو ذكيـاً في جعـلي أعتاد هـذا فالتعود مثل السـحر

مضطرة أن أقطع السرد فقد وردتني رسالة ...

سأكتبها لكم ..

لا تسألي من أنا ...

أنـا دمعـة تائهـة بـين حنايا تعابـيرك، وحـزن مخفـي في ضلوع اسـتعاراتك، ومشـاعر مدفونـة في بلاغـة عباراتـك والإجابـات المتعثرة في رفات حكمتك والأسئلة الحائرة في براعة تشبيهاتك ...

فأجعلينـي الكلمـة الـذي ينفـخ فيهـا قلمـك مـن روحـه وانقشـيني حرفـاً في متاهـات روحـك بـأي خط شـئت عبثي كان أو منمـق، نصبيني سـطراً تتوجين بـه بدايات أوراقـك أو نظميني جمـلاً تذيلين بهـا كتاباتـك ...

هتفـت مبتسـمة أوووه أنـه يكتـب أيضـاً ربـما يكـون شـاعراً أو ينظـم نثـراً ثـم قلـت ربـما اسـتعان بالعربيـة أليـس معلـماً فيها فلأبحـث عـن ماكتـب في الكتـب ...

لكن لمَ عناء البحث لمَ لا أسأله ...

وأرسلت سؤالي ..

أتكتب ؟ أجاب برسالة سريعة بل أعزف .

وليتني ما أرسلتها،

وليتها ما أُرسلت ...

***

تم بحمد الله الجزء الأول من الأحداث . . .

التواصل مع داركتاب

Email : darkitabone@gmail.com

fasbook : darkitabone

البدج داركتاب

٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨